شرح

الشيخ الدكتور

عبد الملك بن عبد الرحمن السعدي

على متن

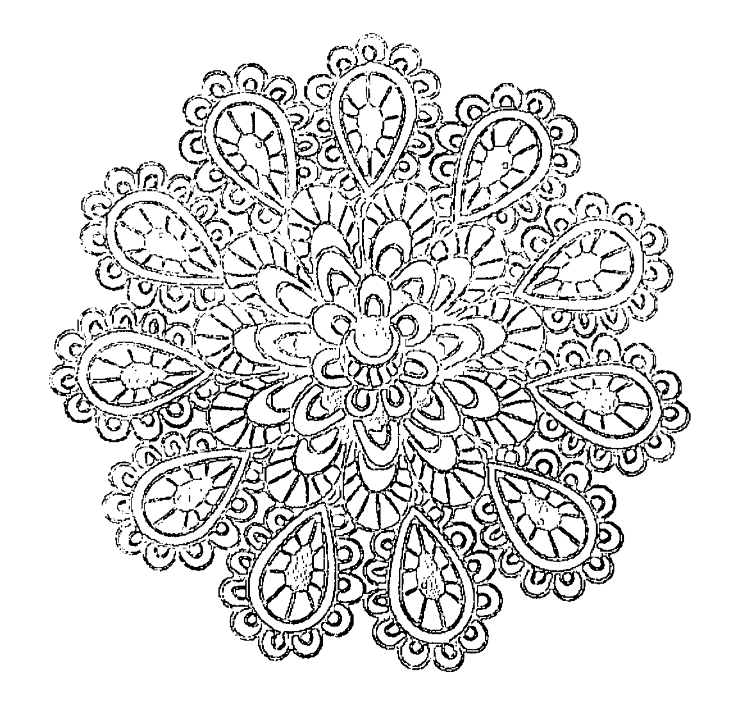
العقائد النسفية

للإمام نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي

(٤٧١ - ٥٦٠) هـ

ويليه للشارح : أفعال العباد بين الجبر والاختيار في القرآن الكريم





شرح
العقائد النسفية

شرح العقائد النسفية

عبد الملك بن عبد الرّحمن السّعدي

الطبعة الأولى: ٢٠١٦م

ملاحظة: طُبع شرح العقائد النسفية للدكتور عبد الملك بن عبد الرحمن السعدي أربع مرات لوحده وهذه الخامسة، وطبع كتاب أفعال العباد مرة لوحده وهذه هي الثانية، ويطبعان لأول مرة مجتمعين في كتاب واحد



٢٠١٦

شرح

الشيخ الدكتور

عبد الملك بن عبد الرحمن السعدي

على متن

العقائد النسفية

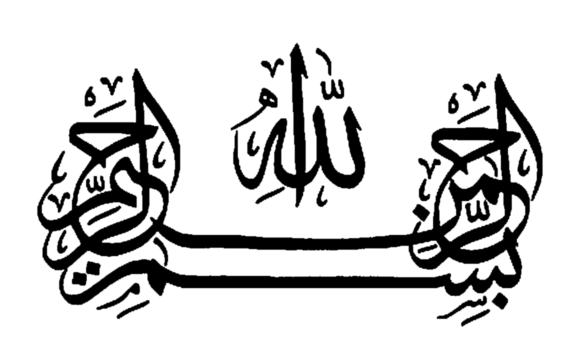
للإمام نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي

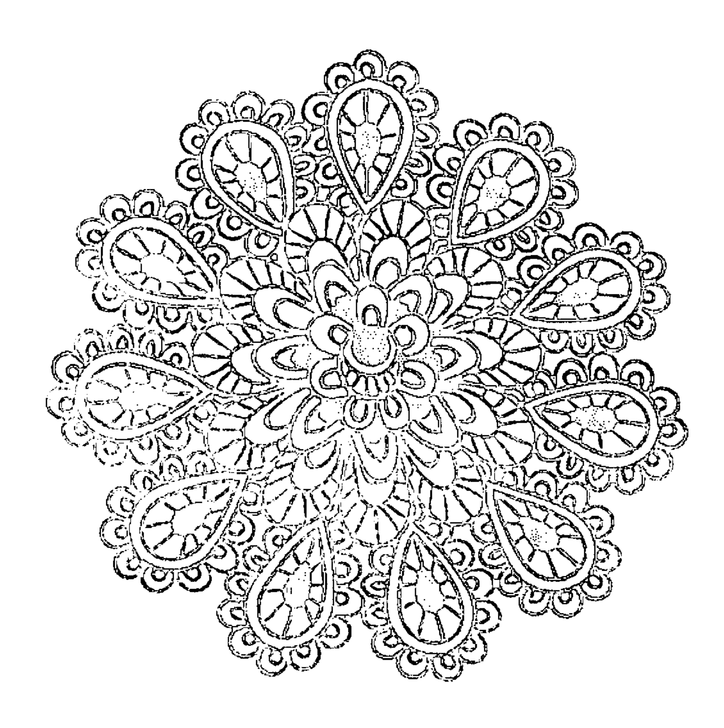
(٤٧١ - ٥٦٠) هـ








بسم الله الرحمن الرحيم







إهداء

إلى من صرت غريق إحسانه..

إلى مَنْ أحرق أعصابه وهدم قواه ابتغاء راحتي وضمان مستقبلي..

إلى مَنْ وضعني على طريق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..

إلى مَنْ أَقفُ له إكباراً؛ لأنَّهُ أظفرني بخير الدنيا وسعادة الآخرة..

إلى والدي الحاج عبد الرحمن أسعد السعدي رحمه الله وجعل الجنة مثواه..

أهدي كتابي هذا المتواضع كشيء يرمز إلى الاعتراف ببعض جميله، وعظيم إحسانه، سائلاً المولى أن يجعل درجته مع النَّبيين والصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً، إنه سميع مجيب..

ابنك عبد الملك





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي نَزَّه رَبَّهُ، وطلبَ توحيدَه، وعلى آله وأصحابه الذين خدموا الدين والعقيدة .

وبعد:

فإنَّ متن النسفية (للإمام نجم الدين النسفي عمر بن محمد بن أحمد)[1] من المتون المقررة على طلاب الصف السادس من المعاهد الإسلامية في العراق، ولما كان فهم هذا المتن عسيراً على إفهام طلاب هذه المرحلة، وشروحه لا يسعهم دراستها؛ لضيق وقتهم، وصعوبة أسلوبها وعبارتها[2] .

رأيت من المناسب أن أكتب هذه الأبحاث شارحاً له بها شرحاً حديث الشَّكل، سهل العبارة، بسيط الأسلوب، وافياً في التوضيح والكشف، فتوكَّلْتُ على الله؛ لإعدادها وتقديمها بين أيديهم.

فجعلت المتن المذكور في أعلى الصفحة وأعقبته بالشرح ابتدأت بشرح مفردات المتن ثم بالشرح الإجمالي للمسألة، وجعلت هامشاً في ذيل الصفحة لتوضيح بعض الأمور.

(١) هو عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو حفص نجم الدين النسفي، عالم بالتفسير والأدب والتاريخ، من فقهاء الحنفية، ولد بنسف وإليها نسبته، وتوفي بسمرقند، قيل له مائة مصنف، كان يُلَقَّبُ بمفتي الثقلين، وهو غير النسفي (المفسِّر) عبد الله بن أحمد. ولد (٤٧١هـ - ١٠٧٨م)، وتوفي (٥٦٠هـ - ١١٦٥) . الأعلام للزركلي: ٥/ ٢٢٢.

(٢) أرجو أن لا يخفى على القارئ الكريم أنَّ ما أتيت به في هذا الكتاب إنما هو مستمَدٌّ مما تركَهُ أولئك العلماء الأفذاذ.

وما أنا وأمثالي إلا عالة على أفكارهم ومؤلفاتهم، وليس لنا أي فضل في ذلك سوى ما وفقنا الله من عرض للموضوع بشكل أسهل وأبسط.

وقد قسمتُ مواضيع الكتاب إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة.

وبذلك أرجو من المولى جلَّ شأنه أن يرزقني التوفيق والإخلاص، وأن يكتبني مع العلماء العاملين، وأن ينفعني بما علمت وما أعلم إنه سميع مجيب.

المـــــؤلف

أ.د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي

مُقدّمة

الأحكام الشرعية نوعان:

أولاً- عملية: وهي ما تتعلق بكيفية العمل، وتسمى (فرعية) أيضاً.

كالوجوب للصلاة، والحرمة للزنى، وهكذا.

ثانياً- اعتقادية: وهي ما تتعلق بالاعتقاد، وتُسَمَّى (أصلية) أيضاً، كاعتقادنا بوحدانية الإله، ووجود الآخرة، وفرضيَّة أركان الإسلام.

وقد أُطلق على ما يبحث عن المسائل الأولى – علم الشَّرائع والأَحكام، وعلى ما يبحث عن المسائل الثانية – علم التوحيد والصفات، والمقصود في بحثنا هذا هو الثاني[١].

التعريف:

التوحيد لغة: مصدر وحّد توحيداً، أي نسب إلى الوحدانية[٢].

واصطلاحاً: علمٌ يُبحثُ فيه عن إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية[٣].

موضوعه:

المعلوم من حيثُ إنَّه يتعلق به إثبات العقائد الدينية[٤].

---

(١) انظر بذلك شرح النسفية للتفتازاني: ص٥.

(٢) أقرب الموارد: ٢/ ١٤٣.

(٣) الحصون المحمدية: ص٧.

(٤) نثر اللآلي: ص٦.

واضعه:

الشيخ أبو الحسن الأشعري، والشيخ أبو منصور الماتريدي[1]؛ لأنهما أشهر من دَوَّنَ في هذا العلم وأقام الأدلة والبراهين على المخالفين[2].

استمداده:

من الأدلة النقلية والعقلية.

مسائله:

قضاياه الباحثة عما يجب، وما يستحيلُ، وما يجوز في حق الله تعالى، والرسل عليهم الصلاة والسلام، وفي إثبات المغيبات[3].

غايته:

خمسة أمور:

- **أولها**- الرقي من التقليد إلى ذروة الإيقان.
- **وثانيها**- إرشاد المسترشدين بإيضاح الحق المبين، وإلزام المعاندين بإقامة البراهين.

---

(١) أبو الحسن الأشعري والماتريدي: واضعا علم الكلام الخاص بعقيدة أهل السنة والجماعة؛ لأنَّ أول من وضع علم الكلام: واصل بن عطاء من المعتزلة.
أما الأول: فهو علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، مؤسِّس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة، وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم، توفي في بغداد. قيل بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب ولد سنة (٢٦٠هـ - ٨٧٤م)، توفي سنة (٣٢٤هـ - ٩٣٦م)، الأعلام ٥/ ٦٩.
وأما الثاني: فهو محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي، من أئمة علماء الكلام، نسبته إلى ماتريد (محلّة بسمرقند) من كتبه التوحيد، وشرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفه (رَحِمَهُ اللهُ) مات بسمرقند سنة (٣٣٣هـ-٩٤٤م).

(٢) نثر اللآلي: ص٦.

(٣) المصدر السابق: ص٦.

- وثالثها- حفظ قواعد الدين عن أن تستزلها شُبَه المبطلين.
- ورابعها- بناء العلوم الشرعية عليه؛ لأَنَّهُ أساسها ومنه أَخْذُها واقتباسها.
- وخامسها- صحة النية والاعتقاد؛ للفوز بدار الخلود[1].

براهينه:

الحجج القطعية المؤيَّد أكثرها بالأدلة السمعية[2].

مكانته بين العلوم:

هو من أشرفها؛ لأَنَّهُ أصل العلوم الدينية، ومتعلِّق بذات الله تعالى، وذات رسله عليهم الصلاة والسلام[3].

حُكْمُهُ الشَّرعي:

الوجوب العَيني والكفائي:

* **فالعَيني**: هو معرفة أدلته إجمالاً، وذلك على كلِّ مسلم ومسلمة، كأنْ يعتقد بوجود الإله؛ لوجود هذه المخلوقات، ويعتقد بوجود الملائكة؛ لأنَّ الله أخبر عنهم.

* **والكفائي**: هو معرفة أدلته التفصيلية كأن يعرف وجود الخالق بحدوث العالم بتغيره، وتغيره بمشاهدة ذلك من حركة إلى سكون، وهكذا بقية الصفات والمغيبات.

أسماؤه:

١- **علم التوحيد**: سمي بذلك؛ لأنَّ أشهر مباحثه توحيد الله تعالى الذي هو أساس الدين[4].

---

(١) المصدر السابق: ص٦.

(٢) شرح النسفية للتفتازاني: ص٥.

(٣) المصدر السابق: ص٥.

(٤) الحصون المحمدية: ص٨.

٢- **علم الكلام**: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ عنوان مباحثه، كان قولهم (الكلام في كذا وكذا) أو لأنَّ مسألة الكلام كانت أشهر مباحثه حيث أدت هذه المسألة إلى نزاع عظيم بين المسلمين وقُتِلَ عليها العدد الكبير من العلماء، وعُذِّب الكثير، منهم الإمام أحمد رحمه الله[1]، أو لأنَّهُ أول ما يجب من العلوم التي تُعَلَّم، ولا تُعَلَّم إلا بالكلام؛ أو لأنَّهُ يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم[2].

٣- **علم العقائد**: سمي بذلك لأنَّهُ يبحث في الأمور التي يجب على الإنسان الاعتقاد بها وعدم الشك فيها؛ ولأنه يجب عليه أن يعقدها عقداً صحيحاً.

٤- **علم أصول الدين**: سمي بذلك؛ لأنَّ الدِّين مشتملٌ على أصول وفروع، فالأصول المعتقدات ويسمى أصول الدين.

والفروع: الأفعال العملية والأخلاقية، ويسمّى **الأول**: علم الفقه، **والثاني**: علم التصوف.

الأسباب الموجبة لوضعه:

لم يدرِّس السلف الصالح هذا العلم ولم يدوِّنوه ولم يحتاجوا إليه؛ وذلك (لصفاء عقيدتهم ببركة صحبة النبي ﷺ وقرب العهد بزمانه، ولقلَّة الوقائع والاختلافات، وتمكُّنهم من مراجعة الثقات)[3].

إلى أن انتشر الإسلام واختلط بالمسلمين (الموالي) من غير العرب، ونُقِلت الفلسفة الإغريقية والمنطق اليوناني إلى المجتمع الإسلامي في عهد (أبي جعفر المنصور)[4].

---

(١) هو الإمام الشهير أبو عبد الله أحمد بن حنبل، ينتهي نسبه إلى عدنان، إليه ينسب المذهب الحنبلي. توفي في بغداد سنة (٢٤١هـ) ودفن في مقبرة باب حرب، طبقات الحنابلة: ٤/ ١، ووفيات الأعيان: ١/ ٤٧.

(٢) شرح النسفية: ص٧.

(٣) المصدر السابق: ص٧.

(٤) أبو جعفر المنصور هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله، ثاني خلفاء بني العباس، =

ثم في عهد (هارون الرشيد)[1]، ثم تمت في عهد (المأمون)[2]، حيث عني بترجمة كثير من هذه العلوم إلى العربية.

فظهرت جماعة تدعو إلى البدع في الاعتقاد، وأَرْخَت عنان الأهواء للبحث في إظهار معتقدات غير منسجمة مع قواعد الإسلام ونصوص الكتاب والسنة كالقول بالتشبيه، والتجسيم للإله، والقول بقدم العالم ونفي حشرالأجساد، وما إلى ذلك، متأثرين بما أملته عليهم الفلسفة الطائشة، فانبرى للرد جماعة من المعتزلة وأسسوا قواعد الرد والمناظرة في ضوء تلك الأسس التي بنى عليها خصومهم أدلتهم، إلا أنهم وإن كانوا أصحاب الفضل في هذا الشأن فإنَّه لم تخل أسسهم ومبادئهم عن بعض هفوات خالفوا فيها ما عليه جماعة المسلمين وجمهورهم كقولهم: (إنَّ مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً) المنزلة بين المنزلتين.

= وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب، كان عارفاً بالفقه، والأدب، مقدَّماً في الفلسفة والفلك محبّاً للعلماء، ولد في الحميمة (قرب معان) سنة(٩٥هـ/ ٧١٤م) ولي الخلافة سنة (١٣٦هـ) وهو باني مدينة بغداد، وجعلها دار ملكه بدلاً من الهاشمية، وكان جدياً بعيداً عن اللهو والعبث، توفي في مكَّة محرماً بالحج، ودفن في الحجون سنة ١٥٨(هـ/ ٧٧٥م) الأعلام: ٤/ ٢٥٩.

(١) هو هارون أبو جعفر بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، استخلف في عهد أبيه عند موت أخيه الهادي ليلة السبت، لأربعة عشر مضت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وكان من أمْيَز الخلفاء، وأجلِّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج، ولد بالري سنة(١٤٨هـ) كان أبيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً، له نظر في العلم والأدب، وكان يصلِّي في خلافته في كلِّ يوم مائة ركعة إلى أن مات لا يتركها إلا لعِلَّةٍ، ويتصدَّقُ من صلب ماله كل يوم بألف درهم، تاريخ الخلفاء للسيوطي: ص٢٨٣ فما بعدها.

(٢) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور أبو العباس، سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة مملكته، نفذ أمره من أفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند، ولي الخلافة سنة (١٩٨هـ) فتمم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، ولد عام(١٧٠هـ/ ٧٨٦م)، وتوفي(٢١٨هـ/ ٨٣٣م) الأعلام: ٤/ ٢٨٧.

وقولهم: فعل الأصلح واجب على الله تعالى، والقول بخلق القرآن، وغير ذلك مما سيأتي، وعلى رأس هذه الفرقة (واصل بن عطاء)[1].

أحد تلاميذ التابعي الجليل (الحسن البصري رحمه الله تعالى)[2]، فقد كان واصل يحضر حلقة درس البصري لتلقي العلوم، ولما وصل بهم البحث إلى مسألة مرتكب الكبيرة خالف أستاذه فيها، وعقد مجلساً آخر.

فقال الحسن البصري: اعتزل واصل مجلسنا فسُمُّوا (بالمعتزلة)، وكان من أتباع واصل هذا (الأستاذ أبو علي الجُبَّائي)[3] من كبار أئمة الاعتزال.

وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري – واضع هذا العلم – أحد تلاميذ الجبائي إلا أنه ترك مذهبه بعد ما حاجّه في المثل الذي ضربه لهم في مسألة فعل الأصلح وأفحمه، واشتغل هو وأتباعه ومنهم الشيخ أبو منصور الماتريدي بإبطال رأي المعتزلة، وإثبات ما وردت به السنة ومشى عليه الجماعة – لذا سموا (أهل السنة والجماعة).

كما ظهرت آراء الخوارج في قولهم إنّ مرتكب الكبيرة كافر.

---

(١) هو واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة، من موالي بني ضبة أو بني مخزوم، رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين، سمي أصحابه بالمعتزلة؛ لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى (الواصلية)، وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق، كان يلثغُ بالراء فيجعلها غيناً فتجنب الراء في خطابه، وضرب به المثل في ذلك، ولد سنة (٨٠هـ - ٧٠٠م)، وتوفي(١٣١هـ - ٧٤٨م)، الأعلام: ٩/ ١٢١.

(٢) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وهو أحد العلماء الفقهاء والفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة عام (٢١هـ - ٦٤٢م)، توفي(١١٠هـ - ٧٢٨م)، الأعلام: ٢/ ٢٤٢.

(٣) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي، أبو علي، من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، وإليه نسبت الطائفة الجبائية، له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب، نسبته إلى جبى (من قرى البصرة)، اشتهر في البصرة، ودفن بجبى، له تفسير حافل مطول رد به على الأشعري، ولد سنة (٢٣٥هـ - ٨٤٩م)، وتوفي (٣٠٣هـ - ٩١٦م)، الأعلام: ٧/ ١٣٦.

الفصل الأول

في حقائق الأشياء وطرق معرفتها

ويتضمــن:

١- الرد على المنكرين لها.

٢- أسباب العلم بها.



بسم الله الرحمن الرحيم

ص: قَـالَ أهْـلُ الحـقِّ: حقائِـقُ الأشـياء ثابتـةٌ، والعلـمُ بهـا مُتَحَقِّـقٌ، خلافاً (للسُّوْفُسْطَائِيَّة).

ش: المفردات

قال: فعل ماضٍ.

أهل: فاعل و(قال) تحتاج إلى مقول بمثابة المفعول به، والمقول هنا هو: (حقائق الأشياء ثابتة) وبقيَّة المسائل المذكورة في هذا الكتاب.

الحق: لغة مأخوذة من حق الأمر حقاً وجب وثبت[1].

واصطلاحاً: هو الحكم المطابق للواقع: أي الخارج ونفس الأمر.

ويطلق على:

١- القول: فيقال: قول حق.

٢- والعقائد: عقيدة حقة.

٣- والأديان: دين حق.

٤- والمذاهب: مذهب حق[2]، ويوصف الله تعالى بالحق وكذا القرآن الكريم، ويقابله الباطل.

أما الصدق: فهو أيضاً مطابقة الحكم للواقع إلا أنه شاع في الأقوال خاصة يقال قول صدق ويقابله الكذب[3].

(١) أقرب الموارد: ١/ ٢١٤.

(٢) شرح التفتازاني: ص١٠.

(٣) يراجع المصدر السابق: ص١٣.

الفرق بين الحق والصدق:

أنه إن لوحظت المطابقة من الواقع إلى الحكم سمي (حقاً).

وإن لوحظت من الحكم إلى الواقع سمي (صدقاً).

حقائق: جمع مفرده حقيقة، والحقيقة[1] ما به قوام الشيء واقعياً، كالحيوان الناطق به قوام الإنسان، أو اعتبارياً، كالقول المفرد به قوام الكلمة.

الأشياء: جمع مفرده شيء.

والشيء معناه الموجود، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] أي موجوداً.

ثابتة: أي موجودة.

والعلم بها: أي بحقائق الأشياء.

متحقق: أي ثابت في الخارج لا سبيل لإنكاره.

السوفسطائية: نسبة إلى سوفسطاء، وهو اسم بمعنى: الحكمة المموَّهَة، والعلم المزخرف؛ لأنَّ (سوفا) معناه العلم والحكمة، و(اسطا) معناه: المزخرف والغلط[2].

الشرح الإجمالي:

أنكرت السوفسطائية وجود حقائق الأشياء، وقالوا: إنَّ ما يُرى من الأشياء لا حقيقة لها في الخارج والواقع.

يهدفون بذلك إلى نفي الإله والآخرة والأحكام الشرعية.

---

(١) الفرق بين الحقيقة والماهية:

الحقيقة: ما به تحقق الشيء في أفراده في الخارج فقط، كالحيوان الناطق للإنسان.

والماهية: أعم من الحقيقة حيث تطلق أيضاً على ما لم يتحقق في الخارج كماهية العنقاء. أ هـ. شرح رمضان: ص٢٧.

(٢) شرح النسفية للتفتازاني: ص٨.

وقد انقسموا في مذهبهم هذا إلى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى:

تقول: إنَّ حقائق الأشياء أوهامٌ وخيالاتٌ باطلةٌ، فالجدار الذي نراه مركباً من الحجر والجصّ مثلاً لا وجود لأجزائه المركَّب منها واقعياً، بل هي أوهام وقعت في خيال الرائي، حيث تخيَّل أنَّ لهذا الشيء هذه الأجزاء، وليس لها حقيقة في الواقع.

وكذا حرارة النار، وبرودة الثلج، ووجود الأرض والسماء وهكذا، وهم (العنادية) سُمُّوا بذلك؛ لعنادهم وعدم اعترافهم بالواقع المشاهد.

الفرقة الثانية:

تقول: إنَّ حقائق الأشياء لا واقع لها، وإنما هي تابعة للاعتقادات فكل راءٍ يرى حقيقة للشيء بموجب اعتقاده، فإذا نظرت إلى الجدار ووجدته مركباً من الحجر والجص مثلاً فإنما هو بحسب اعتقادك أنت، إذ قد يراه راءٍ آخر من أجزاء أخرى غير ما تعتقده وهم (العِنْديَّة) سُمُّوا بذلك؛ لأنهم يقولون: عندي كذا، وعندك كذا.

الفرقة الثالثة:

تنكر العلم بثبوت حقيقة الشيء أو لا ثبوتها، ويقولون: نحن نشك في هذه الحقيقة، ونشك أيضاً في أنفسنا هل نحن شاكون أو لا؟ وهم (اللاأدْرِيّة) سُمُّوا بذلك؛ لقولهم لا أدري.

أدلة السوفسطائية:

استدلوا على ذلك بما يأتي:

١- إنَّ حقائق الأشياء إما أن تكون ضرورية أو نظرية، فالضرورية إما حسيَّات تُدرك بالحواسِّ الخمس وإما بديهيات[1]، فالحسيات قد يعتريها الخطأ، كأن

(١) نسبة إلى البديهية، وهي أول كل شيء وما يفاجأ منه، والبديهي: ما لا يحتاج في الحكم عليه إلى غير إدراك الطرفين - المسند والمسند إليه.

ترى حبَّة العنب الموجودة في القارورة الزجاجية المملوءة بالماء أكبر منها حين تخرج منها.

والأحول يرى الواحد اثنين.

والشيء المستطيل إذا أدير بسرعة يرى كأنه مستدير، وصاحب الحُمَّى يجد الحلاوةُ مرَّةً في فمه.

والبديهيات قد تكون غير ثابتة حيث تختلف فيها الآراء والأفكار، فيحتاج إلى أدلة دقيقة، فمثلاً: الصدق النافع يدَّعي المعتزلة أنَّ العقل حكم بحُسْنِهِ، والكذب الضَّار يدعون أن العقل حكم بقبحه، بالوقت الذي يقول الأشاعرة: إنَّ الحسن والقبح لا يدركهما العقل، بل يدركان بالشرع والوحي[1].

أما النَّظريات:

فهي مبنية على الضروريات، وحيث قد ثبت فساد الضروريات يثبت فساد النظريات؛ لأنَّ المبني على الفاسد فاسد.

ويجاب عن ذلك:

بأنَّ غلط الحسِّ في البعض لأسباب أو لموانع، لا ينافي القطع بوجودها في الواقع، فيما إذا انتفت تلك الأسباب والموانع، وبذلك نرى حبة العنب بعد إخراجها من الماء تتمثل بحجم واحد لا يختلف فيه اثنان أو نظرتان.

وإذا زال الحَوَلُ مِنَ الأحْول يرى الواحد واحداً لا اثنين.

وإذا زالت الحمى يتذوَّق صاحبها الحلاوة دائماً، فغلط الحسِّ لعارض لا يدلُّ على عدم وجود واقع للمحسوس، ومع ذلك فإن دليلهم هذا اعتراف بواقع محسوس فإنَّ

---

(١) إلا أن الاشاعرة لا ينكرون نصيب العقل في إدراك الأمور البديهية، كنفع الصدق وضرر الكذب وغير ذلك. ويعتقدون أن مجيء الشرع يكون مؤيداً لما ثبت عقلاً، وأصل الخلاف يدور حول الأمور النظرية عموماً، وكذلك حول ترتب الثواب والعقاب.

إدراك المحموم الحرارة والأحول الواحد اثنين اعتراف بإثبات حقيقة الحرارة والاثنين لشيء من الأشياء، وذلك مناف لادعائهم[1].

وأما المثال الذي ذكرتموه في البديهيات فإنَّ كون الصدق نافعاً هو البديهي، ولم تختلف فيه الآراء إذ الكل يعترفون بهذه الحقيقة، ولكن خلافهم في هل عرف نَفْعهُ بالعقل أو بالشرع؟ وهذا أمر نظري وليس خلافاً في إثبات الحقيقة المشار إليها.

استدلالنا على ثبوت حقائق الأشياء، لنا دليلان:

أحدهما- ضروري: هو أننا نثبت وجود حقائق الأشياء بطريق المعاينة والمشاهدة ومن رأى غير ذلك فعليه البيان والتوضيح.

وثانيهما- نظري: وهو أن حقائق الأشياء إما أن تكون ثابتة أو منفية، فإنْ كانت ثابتة فهو غرضنا.

وإن كانت منفية فحكمنا عليها بالنفي حقيقة؛ لأنَّ نفي الشيء عن الشيء نوع من الحكم، وما دمنا قد أثبتنا قولكم بحقيقة من الحقائق فلا يسعكم نفيها على وجه الإطلاق؛ لأنَّ الاعتراف بحقيقة اعتراف بأصل وجود جنسها.

والحق: إنَّ المناظرة معهم عبث، وإضاعة للوقت، وبالأخص اللاأدرية، بل الطريق أن يعذبوا بالنار؛ ليحسوا بإحراقها؛ لأنَّ الإحراق حقيقة من الحقائق، فإما أن يعترفوا أو يموتوا[2].

---

(١) إن هذا الاعتراف إنما ينصب على العنادية واللاأدرية منهم لا على العندية كما لا يخفى.

(٢) يلاحظ جميع ذلك في شرح التفتازاني: ص١٤ - ١٦.

ص: وأسبابُ العِلْمِ للخَلْقِ ثلاثةٌ: الحواسُّ السَّليْمَةُ، والخَبَرُ الصَّادِقُ، والعَقْلُ

ش: المفردات

الأسباب: جمعٌ مفرده سبب، والسبب لغةً: ما يتوصل به إلى أمر من الأمور[١].

واصطلاحاً: ما يكون طريقاً إلى الحكم من غير تأثير، والمؤثِّرُ هو العلة[٢].

العلم: هو صفة توجب تميزاً لمحلها – وهو الموصوف بها – لا يحتمل النقض[٣]. كالعلم بأنَّ النار حارَّة، وأنَّ الله موجودٌ، وأنَّ الواحد نصف الاثنين.

الخلق: مصدر بمعنى المفعول – أي المخلوق – والمراد هنا من لديه قابلية العلم، وهم الملائكة، والإنس، والجن[٤].

الخلق: قَيْدٌ يخرج به علم الخالق، فإنَّه لذاته لا بسبب من الأسباب.

الحواس: جمعٌ مفرده حاسَّة، وهي القوة الحساسة[٥].

السليمة: من العيوب المخلَّة في إحساسها، كالعمى للعين، والصمم للأذن مثلاً.

الخبر الصادق: هو ماله نسبة خارجية وقد طابقها كالسماء فوقنا، ومكة موجودة والملائكة عباد الرحمن، والمتكلم من وراء جدار حي.

العقل: هو قوة للنفس بها تستعدُّ للعلوم والإدراكات[٦].

---

(١) المصباح: ١/ ٣٥٧.

(٢) ملا رمضان: ص٣٥.

(٣) المصدر السابق: ص٣٥.

(٤) شرح النسفية للتفتازاني: ص١٩.

(٥) المصدر السابق: ص١٩.

(٦) المصدر السابق: ص١٩.

الشرح الإجمالي:

بعد أن اتضح لنا أنَّ حقائق الأشياء ثابتة، وأنَّ العلم بها متحقق، وأقمنا الأدلة على ذلك، وناقشنا أدلة المنكرين لوجودها، وهم السوفسطائية الذين بنوا أفكارهم على طعنهم في الحسِّ، وبداهة العقل، أصبح من اللازم أن نبيِّنَ الوسائل التي يحصل بها العلم للمخلوق؛ لأَنَّهُ بالعلم يتوصل إلى معرفة حقائق الأشياء، فتبين –بطريق الاستقراء– أنها ثلاثة؛ وذلك لأنَّ السبب إن كان خارجاً عن الشيء المـُدْرِك[1] فالخبر الصادق، وإنْ كان آلة للمُدْرِك فالحواس، وإنْ كان واسطة العلم هي المـُدْرِك فالعقل[2].

(١) المدرك – بكسر الراء – ما به تصور الشيء.

(٢) انظر هذا الضابط في شرح النسفية: ص١٩.

ص: فالحـواسُّ خَمْسٌ: السَّـمْعُ، والبَصَرُ، والشَّـمُّ، والـذَّوْقُ، واللَّمْسُ، وبكُلِّ حاسَّةٍ مِنْها يُوقَفُ على ما وُضِعَتْ هِيَ لَهُ.

ش: السبب الأول للعلم: الحواس الخمس الظاهرة، وهي:

١ - السمع:

هي قوَّة مودَعَة في العصب المفروش في مؤخَّرةِ الصِّمَاخ، تُدْرَكُ بها الأصوات بواسطة دخول الهواء المتكيف بكيفية الصوت إلى الصِّمَاخ، وموضعها الأذن، وفاقدها يسمى (أصم).

٢ - البصر:

هي القوة المودعة في العصبتين المجوفتين اللَّتين تتلاقيان في الدماغ، ثم تفترقان فتؤديان إلى العينين تدرك بها الأضواء، والألوان، والأشكال، والمقادير، والحركات، والحُسْن، والقُبْح، وموضعها العينان، وفاقدها يسمى (أعمى).

٣ - الشمّ:

هي قوَّة مودعة في الزائدتين الناتئتين في مقدَّم الدِّماغ الشبيهتين بحلمتي الثديين، تُدْرَك بها الروائح بطريق وصول الهواء المتكيف بكيفية ذي الرائحة إلى الخيشوم، وموضعها الأنف، وفاقدها يُسمّى (أخشم).

٤ - الذوق:

هي قوة منبثة (منتشرة) في العصب المفروش على جرم اللسانُ تُدْرَك بها الطعوم المخالطة للرطوبة اللعابية التي في الفم بالمطعوم ووصولها إلى العصبُ وموضعها اللسان.

٥- اللمس:

هي قوة في جميع البدن تدرك بها الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، والنعومة، والخشونة عند التماس والاتصال، وموضعها الجسم كله.

وبهذا تبيَّنَ أنَّ العينَ موضع البصر، وليست هي البصر، والأذن هي موضع السَّمع، وليست هي السمع وهكذا.

ويقابل الحواس الظاهرة الحواس الباطنة والتي هي: الحس المُشْتَرَك، والواهمة، والمخيلة، والمتصرفة، والخازنة فقد أثبتها الحكماء (الفلاسفة) بدلائل غير سالمة من الإيرادات؛ لذا لم تثبت لدى المتكلمين.

هناك أسباب أخرى لحصول العلم:

حيث قد يحصل عن طريق الحدس، والتجربة، ولا تُذْكَر اكتفاءً بالعقل؛ لأنَّ مرجع جميع ذلك إليه، حيث يحصل العلم بالشيء بالعقل نفسه بمجرد التفات أو انضمام حدس أو تجربة.

وجُعِلَت الحواسُّ الظاهرة سبباً للعلم، دون الباطنة؛ لأنَّهم وجدوا الإدراكات تحصل عقب استعمال الحواسّ الظاهرة.

ويشترِك في ذلك أصحاب العقول كالإنسان، وغيره كبقية الحيوانات؛ لأجل ذلك جعلوا الحواس وسيلة وسبباً مستقلاً للعلم.

وبكل حاسة منها: أي من هذه الخمسة يوقف: أي يُطَّلَعُ، يقال: وقف فلان على المسألة أي اطلع عليها.

المعنى: جرت سنة الله تعالى على أنه خلق حاسة البصر؛ ليُطَّلَع بها على الألوان مثلاً، وخلق حاسة السمع؛ ليُطَّلَع بها على الأصوات.

وحاسة الذوق؛ ليُطَّلَع بها على المطعومات، ولا يمكن أن يُطَّلَع على الألوان بحاسة السمع، وعلى الأصوات بحاسة البصر وهكذا.

إلا من باب خرق العادات، وذلك جائز، ولله تعالى خرق العادات، فعند ذلك يمكن أن تُدرك الألوان بالسمع، وليس ذلك إلا بمحض قدرة الله تعالى.

ص: والخبرُ الصادِقُ على نوعين:

أحدُهُمـا: الخبر المتواتـر: وهُو الثَّابتُ على أَلْسِـنَةِ قَوْمٍ لا يُتَصَـوَّرُ تواطُؤهُم على الكَذبِ، وَهُوَ مُوجِبٌ للعِلْـمِ الضَّروري، كالعِلْمِ بالملوكِ الخالِيَةِ في الأَزْمِنَةِ الماضِيَةِ، والبلدانِ النائِيَة.

ش: المفردات

متواتر: اسم فاعل من تواتر، ومعناه لغةً تتابع[1]، سُمِّي الخبر به؛ لأَنَّهُ يقع على التعاقب والتوالي.

القوم: هم الجماعة من الرجال ويراد به هنا الذكور والإناث تغليباً.

لا يتصور: أي لا يُجَوِّزَهُ العقل، بل يحيل ذلك.

تواطؤهم: أي توافقهم.

موجِب: بكسر الجيم أي مسبِب – بكسر الباء الأولى.

العلم الضروري: الذي يحصل لدى الإنسان بدون نظر واستدلال.

الملوك الخالية: كفرعون، وهارون الرشيد ونحو ذلك.

البلدان النائية: أي البعيدة كلندن، وواشنطن، وموسكو لمن لم يرها.

الشرح الإجمالي:

الخبر الصادق سبب من الأسباب التي يحصل بها العلم، ويتحقق هذا السبب في نوعين من أنواع الأخبار:

أحدهما: عن طريق الخبر المتواتر: وهو ما نقله جماعة من الناس بحيث يبلغ عددهم مبلغاً لا يجوِّز العقل اتفاقهم واجتماعهم على أن يكذبوا خبراً، وينقلوه إلى المخبَر – بفتح الباء.

(١) القاموس: ٢/ ١٥٧.

وينبغي لهذا الخبر توافر الشروط الآتية فيه:

١- أن يكون المخبرون بحيث لا يتصور صدور الكذب عنهم.

٢- أن يكون المخبرون عالمين بما اخبروا علماً مستنداً إلى الحسِّ لا إلى غيره.

٣- أن يكون المُخْبَر به ممكناً مشاهداً ولو بالتجربة والحدس، فلو اجتمع العالم واخبروا باجتماع الليل والنهار مثلاً لا يحصل اليقين؛ لاستحالته.

٤- أن يكون هذا العدد الذي يحصل به اليقين من المخبرين كاملاً من أول السَّند إلى آخره، فلو وصل إلى مَن دونهم انقطع تواتره[1].

إذا توافر ما تقدم يحصل لدى المخبَر علم ضروري: أي بديهي بدون حاجة إلى استدلال.

ويحصل هذا العلم ولو اخبر به أفرادهم كل على انفراد؛ لأنَّ إخبار كل فرد بمفرده وإن كان ظنياً، إلا أنه حينما ينضم خبر كل فرد إلى الآخر يفيد اليقين، إذ تحصل القوة بالاجتماع بما لا يمكن حصولها بالانفراد، كالحبل من الشعر تحصل به قوة لا تحصل في كل شعرة على انفرادها.

(١) هذه الشروط تعتبر كلها في الخبر المنقول عن الرسول فقط، ولا يشترط كلها في كل خبر ينقل.

ص: والثَّاني: خَبَرُ الرَّسُـول المُؤَيَّـدِ بالمعجِزَةِ، وَهُوَ يُوْجِبُ العِلْمَ الاسـتِدْلاليَّ، والعِلْمُ الثابِتُ به يضاهي العِلْمَ الثابِتَ بالضَّرُوْرَةِ في التَّيَقنِ والثَّبَاتِ.

ش: شرح المفردات

الرَّسول: رجل أوحى الله إليه بشرع وأرسله إلى الخلق ليبلغهم الأحكام.

النبي: رجل أوحى الله إليه بشرع أُمِر بتبليغه أو لم يؤمر، وهو أعم من الرسول؛ لأنَّ كلَّ رسول نبي كسيدنا محمد وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وما إلى ذلك، وليس كل نبي رسولاً، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] فالعطف يقتضي المغايرة (فبينهما عموم وخصوص مطلق).

المؤيد: أي المقوى والمثبتة رسالته.

المعجزة: هي أمر حقيقي خارق للعادة يظهر على يد من ادعى الرسالة من الله تعالى، مقرونة بالتحدي، مقصودة له.

مثل: ناقة سيدنا صالح، وعصا سيدنا موسى، ومعجزات النبي محمد ﷺ الكثيرة كانشقاق القمر، وإسماع صوت الجماد وغير ذلك، وأبرزها إعجاز القرآن الكريم.

أما الخارق الحاصل على يد من ادعى النبوة كذباً كمسيلمة الكذاب فليس بمعجزة؛ لأنَّهُ ليس مقصوداً له، فإنَّه لما بصق في البئر المالحة فغارت، كان مقصوده أن تكون عذبةً ولم يقصد غورها وهكذا، وسنوضح الفرق بين المعجزة والخوارق الأخرى لدى كلامنا على الكرامة.

الاستدلالي: نسبة إلى الإستدلال وهو النظر في الدليل الموصل إلى النتيجة التي هي المطلوب الخبري.

يضاهي: يشابه، وهي أداة تشبيه.

في التيقن: عدم احتمال النقيض.

والثبات: عدم احتمال الزوال بالتشكيك.

الشرح الإجمالي:

النوع الثاني من نوعي الأخبار:

خبر من ادعى الرسالة، وأُيِّدَ بالمعجزات الدالَّة على إكرامه وتصديقه من قِبَلِ مرسله، والتي هي بمثابة قول المرسِل (صدق عبدي في كلِّ ما يبلغ عني)؛ لأنَّ خَرْقَ العادة من قبل الرسول لا يكون إلا تصديقاً له؛ لأنَّ الخرق يكون مقارناً للتحدي، فلو كان المدعي كاذباً على الله؛ لما نفذ طلبه المقصود، ولما أعانه وأمدَّهُ به.

وعند وجود المعجزة فالخبر المسموع من الرَّسول لا يكفي لإفادة العلم الضَّروري، بل لا بُدَّ للتوصل إلى صدق إخباره من دليل يقيني مستند إلى صدق الرسول المقطوع به بواسطة المعجزة.

إذن فخبر الرسول يسبب يقيناً جازماً بواسطة الاستدلال، وعند ذلك يكون العلم الحاصل به مشابهاً للعلم الحاصل بالضرورة عن طريق الحواس السابقة.

ووجه الشبه بينهما عدم حصول النَّقْض والشكِّ لدى العالم به.

مثال ذلك: إذا قال الرسول ﷺ: «الصلاة فرض على كل مسلم ومسلمة».

فنقول للوصول إلى العلم بهذه القضية: الصلاة أَمَرَ بها الرسول المؤَيَّدُ بالمعجزة أمراً حتمياً، وكلُّ ما أمر به الرسول أمراً حتمياً فهو فرضٌ نتوصل إلى (الصلاة فرض) وهو المطلوب.

فعند ذلك يحصل لدينا علم بفرضية الصلاة كما يحصل العلم لدينا بحرارة النار وضياء الشمس.

ص: وأمَّا العقْلُ؛ فهُوَ سَببٌ للعلْمِ أيْضاً، وما ثَبتَ منه بالبداهة فهْوَ ضَرُوريٌّ؛ كالعِلْمِ بأنَّ كُلَّ الشَّيْء أعظمُ منْ جُزْئه، وما ثَبتَ بالاستدْلاَلِ فهُوَ اكتسابي.

ش: المفردات

العقل[1]: مصدر عقل يعقل، هو نور روحاني به تُدْرِكُ النفوس العلوم الضَّرورية والنَّظرية، وهو مأخوذ من عقال البعير؛ لما فيه من معنى الربط؛ لأَنَّهُ يربط الإنسان عن فعل النقائص.

البداهة: هو ما يحصل لدى الإنسان بأدنى تنبيه من غير احتياج إلى تفكير.

الضروري له معنيان:

١ - ضروري: ما يحدثه الله في الإنسان من غير كسبه واختياره، كعلم الإنسان بوجود نفسه.

٢ - ضروري: ما يحصل بأول النظر من غير تفكير، كالعلم بأنَّ كل الشيء أعظم من جزئه، فإنه يحصل العلم به بعد تصور الكلِّ والجزْء والأعظم.

---

(١) وله أسماء أخرى منها:

النهية: لأنه ينهي صاحبه عن القبيح.

اللب: لأنه خلاصة الإنسان.

الحجر: لأنه يحجر صاحبه عن فعل القبيح.

الكيس: انعطافه وعدم الحمق.

الحصاة: مأخوذة من الثقل والرزانة.

الأرب: وهو الدهاء.

وله أسماء أخرى باعتبارات متغايرة، فيسمى عقلاً باعتباره يدرك المنافع والمضار والغموم والمسار وغير ذلك.

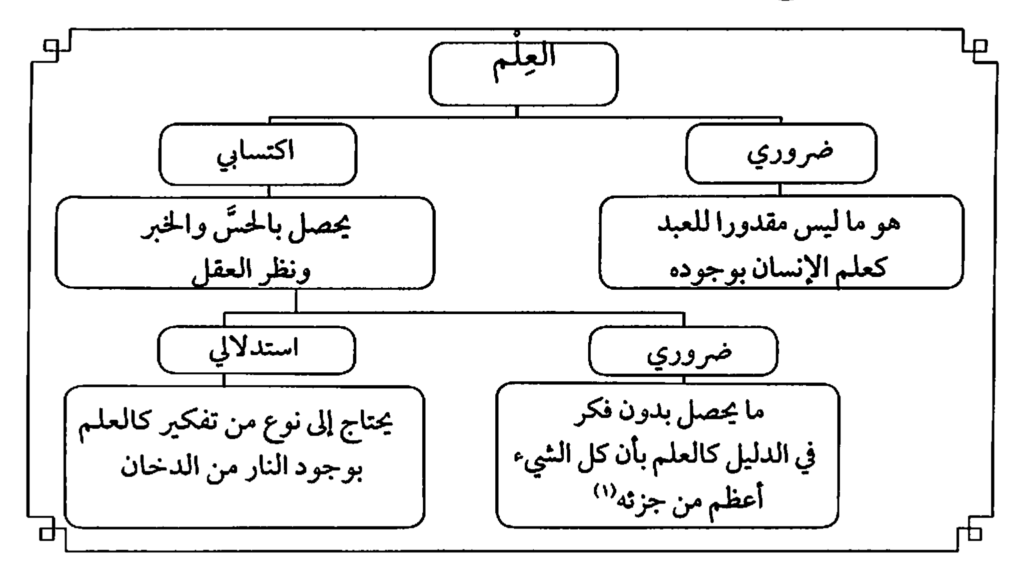
ويسمى نفسا: باعتبار تسيير البدن والتصرف.

ويسمى روحاً: باعتبار أنه حي ويظهر منه أثر الحياة.

الإستدلالي: منسوب إلى الاستدلال: وهو ما يحتاج فيه إلى نوع تفكير، كالعلم بوجود النار عند رؤية الدخان.

الاكتسابي: منسوب إلى الكسب: وهو ما يحدثه الله تعالى بالإنسان بواسطة كسبه ومباشرته أسبابه من الحواس والخبر الصادق، ونظر العقل (فالاكتسابي) أعم من الاستدلالي؛ لأنَّ الاكتساب كما يكون بالنظر، والتفكير يكون أيضاً بواسطة الحواس والخبر الصادق ويقابله الضروري بالمعنى الأول.

وإليك توضيح القسمة على الشكل الآتي:



الشرح الإجمالي:

نظر العقل سبب من أسباب حصول العلم عند جمهور المسلمين، وقالت السُّمَّنِيَّةُ[٢]: لا يكون العقل سبباً في جميع النظريات، وقالت الفلاسفة[٣]: لا يكون العقل سبباً للعلم في الإلهيات.

وقالت طائفة: إنّ النظر لا يفيد معرفة الله بلا معلم مرشد.

---

(١) أقرب الموارد: ٢/ ٨١٢.

تبين أن تمثيل المصنف بهذا المثال للضروري المقابل للاكتسابي فيه تسامح؛ لأنه قسم من الاكتسابي لا قسيمه.

(٢) هم قوم من عبدة الأصنام قائلون بالتناسخ: وهو انتقال الروح من بدن إلى بدن آخر.

(٣) هو آرسطو حيث قال: لا يقين في مباحث الألوهية.

والدليل على ذلك: أنَّ كثرة الاختلافات، وتناقض الآراء، دليلٌ على عدم حصول العلم به.

والجواب عن ذلك:

إن ما يحصل من اختلاف وتناقض في الآراء مبنيٌّ على فساد النظر، وهذا لا ينافي حصول العلم بالعقل إن كان النظر صحيحاً[1]، أما الاحتياج إلى المعلم لمعرفة الله فإن كان ادعاؤكم امتناع حصول العلم بدون معلِّمٍ فلا نسلِّم ذلك، وإن قالوا: يحصل مع العسر فمسلَّم فيه[2].

ثم إن احتجاجكم هذا وهو – أنَّ نظر العقل في الإلهيات ليس مفيداً لكثرة الاختلاف – هو استدلال بنظر العقل، وهذا دليل أنكم تُثْبِتونَ ما تريدون نفيه.

وعلى هذا فإنَّ العقل يكون سبباً من أسباب العلم فما يدركه بداهة وبدون تفكير يسمى (ضرورياً) كما مثل، وما يحتاج في إدراكه إلى نظر وفكر يسمى (اكتسابياً)، وقد يكون هذا الاكتساب بواسطة الحواس: كتقليب الحدقة، وفتح الأجفان للنظر، وإصغاء الأذن للاستماع، وقد يكون بواسطة نظر العقل، كالاستدلال على حياة من خلف الجدار بكلامه.

(١) شرح النسفية: ص٣٢.

(٢) شرح رمضان: ص٥٨.

ص: والإلْهامُ لَيْسَ مِنْ أَسْبابِ المَعْرِفَةِ بصحَّة الشَيْء عِنْد أَهْل الحقِّ.

ش: شرح المفردات

الإلهام: إلقاء معنى في القلب بطريق الفيض - أي بدون كسب ونظر،، ويكون بواسطة المَلَك، ويقابله الوسواس: وهو ما يحصل بواسطة النفس[1] والشيطان[2].

المعرفة: المراد بها هنا العلم حيث لا فرق بينهما عند أهل السنة والجماعة، والفلاسفة فرقوا بينهما فقالوا:

العلم: إدراك المركَّب.

والمعرفة: إدراك البسيط، ولذلك يقال عرفت الله ولا يقال علمت الله.

الشرح الإجمالي:

إن الإلهام الذي يلقيه المَلَكُ في النفس لا يكون سبباً من أسباب العلم لعامة الخلق، ولا يصلح للإلزام على الغير[3]، ولا يكون إلا في الخير قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنْهَا﴾ [الشمس: ٨] وقد يحصل الإلهام لبعض الخلق خاصة، ويحصل به العلم بالنسبة له لا لغيره.

وممن حصل لهم الإلهام سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، إذ يروي أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قوله: « إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ -أي مُلْهَمُون- وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ »[4].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾، شرح رمضان: ص٦٤.

(٣) وذلك لاحتمال كونه من الشيطان فيشتبه الإلهام بالوسواس.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء: ٤/ ١٤٩، ومسلم: ٧/ ١٤٥.

وهو أنواع:

منه ما يحصل بالقذف في القلب بلا مباشرة، كما كان لأم موسى -عليه الصلاة والسلام- بقذف موسى في التابوت.

وقد يكون في المنام كما كان لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لذبح ولده، وقد يكون بواسطة الملك – قال الغزالي: (العلم الحاصل بلا دليل يكون إما بمشاهدة الملك على حقيقته فيسمى (وحياً) وهو خاصٌّ بالأنبياء، وإما بلا مشاهدة الملك فيُسمَّى (إلهاماً) ويكون للأنبياء وللأولياء: وهو العلم اللدنّي، كما وقع لسيدنا الخضر مع موسى عليه السلام، وكما قال سيدنا علي – كرم الله وجهه – : «لو وضعت لي وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل القرآن بقرآنهم»، وهذه مرتبة لا تحصل بمجرد التعلم الإنساني)[1].

بقي هنا شيء آخر: هو أنّ خبر الواحد، وتقليد المجتهد قد يفيدان الظنَّ والاعتقاد الجازم، فهل هما سببان من أسباب العلم؟

الجواب:

إنهما ليسا من أسباب العلم؛ لأنَّ العلم الحاصل بهما قابل للزوال، والمراد بالعلم هنا ما لا يقبل الزوال[2].

---

(١) القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي: ص١١٧.

(٢) شرح النسفية: ص٣٤.

الفصل الثاني

الإلهيـــــــــات

ويتضمـــن:

١- حدوث العالم.

٢- وجود الله تعالى.

٣- صفاته تعالى وتنزيهه عن الحوادث.

٤- مبحث الكلام.

٥- جواز رؤية الله تعالى.

٦- أفعال العباد بين الجبر والاختيار.

٧- القضاء والقدر.

٨- عدم تكليف الله خلقه بالمحال.

٩- خلق الله المسببات عند الأسباب لا بها.

١٠- الأجل واحد.

١١- الحرام رزق الله.

١٢- لا يجب عليه تعالى فعل الأصلح.



ص: والعَالَمُ بجمِيعِ أجْزَائِهِ مُحدَثٌ؛ إذْ هُوَ أعْيانٌ وأعْرَاضٌ.

فالأَعْيانُ: مالهُ قِيامٌ بذاته، وهُوَ إمّا مركَّبٌ وهو الجِسْمُ، أوْ غَيْرُ مُركَّبٍ كالجوْهَرِ وَهُوْ الجُزْءُ الّذِي لاَ يَتَجَزَّأُ.

والعَرَضُ: ما لا يقُوْمُ بذاتِهِ ويَحْدُثُ في الأجْسامِ والجَواهِرِ - كالألْوانِ، والأكوانِ، والطُّعُوْمِ، والرَّوَائِحِ.

حدوث العالم

ش: المفردات

العالم: بفتح اللام، لغةً: لكل ما يعلم به الشيء، مشتقٌّ من العلم، كالخاتم: اسم لما يُخْتَمُ به.

العالم: ما سوى الله من الموجودات كعالم الإنسان، وعالم النبات، وعالم الحيوان، وغيرها، ويسمى بذلك لكونه علامة على وجود صانعه.

جميع أجزائه: من السموات وما فيها، والأرض وما عليها، وكذا بقية الأفلاك.

محدث: اسم مفعول من أحدث، أي مخرج من العدم إلى الوجود.

إذ: معناها التعليل.

الأعيان: العينُ ماله تحيُّزٌ بنفسه غير تابع لتحيز[1] شيء آخر.

الأعراض: العَرَضُ ما تحيزه تابعٌ لتحيز محلِّه وموضعه، أي انتقاله تابع لانتقال العين القائم بها.

الجسم: هو ما تركَّب من جزئين فصاعداً على رأي، أو ثلاثة فصاعداً على رأي آخر.

الجوهر: هو ما لا يقبل الانقسام لا فعلاً، ولا وهماً، ولا فرضاً.

(١) التحيز: أخذ قدر من الفراغ الموهوم.

الألوان: أصول الألوان: البياض، والسواد، والحمرة، والخضرة، والصفرة، وبقية الألوان تحصل نتيجة تركيب لونين أو أكثر مما تقدم.

الأكوان: الاجتماع أو الافتراق، والحركة، والسكون.

والطعوم: وأصولها تسعة: المرارة، والحرافة، والملوحة، والحموضة، والقبض، والحلاوة، والعفوصة، والدسومة، والتفاهة، وتركب منها بقية الطعوم.

الروائح: أنواعها كثيرة وليس لها أسماء، إلا أنها توصف فيقال: رائحة طيبة، ورائحة كريهة، أو تضاف فيقال: رائحة الورد، ورائحة المسك.

الشرح الإجمالي:

خلافنا في هذه المسألة مع الفلاسفة:

نحن نقول بحدوث العالم، وحشر الأجسام، وننكر دوام حركة الأفلاك ونقول بجواز الخرق والالتآم على السموات.

والفلاسفة: يقولون بقدم العالم، وعدم حشر الأجسام، ويثبتون كثيراً من أصول الهندسة[1]؛ ليبنوا عليها دوام حركة الأفلاك؛ لأنَّ حركتها قديمة عندهم[2] حيث إن قوام حركتها مبني على ثبوت استدارتها فلا يكون لها مبدأ ولا نهاية ويمنعون الخرق والالتآم على السموات.

وإثبات حدوث العالم يتوقف على إثبات حدوث الأعيان والأعراض المتركب منها.

وإثبات حدوث الأعيان يستوجب البحث عن إثبات الجوهر، وعن تركيب الجسم ونذكر ذلك في مبحثين.

---

(١) لأن كثيراً من أصولها مبني على ثبوت الكمِّ المتَّصل المتوقف على ثبوت الهيولى.

(٢) من أصول الهندسة أيضاً أن كل خط يمكن تنصيفه فلو تركب من الأجزاء لزم تنصيف الجزء في الخط المؤلف من الأجزاء الوتر.

ونحن نقول أن كل خط يتجزأ ولا يلزم منه أن كل خط يتنصف.

المبحث الأول

في إثبات الجوهر الفرد

١- أثبت الفلاسفة الهيولى[١]:

وهي لفظ يوناني معناه الأصل والمادة، وأثبتوا لها القِدَم، أي قالوا: إنَّ مادة الأجسام قديمة مع الله تعالى، إلّا أنَّ قِدَم الله متقدِّم عليها تقدُّم العلة على المعلول، حيث قالوا: (إنها أصل العالم، وهي قديمة، والعالم صورتها وخلوها عن الصورة غير ممكن كما لا يمكن انفكاك الصورة عنها، فهي قديمة بزعمهم، وبحسب الأعراض الحادثة يكون التغير فيها)[٢].

دليل قدمها عندهم:

قالوا: (لو لم تكن الهيولى قديمة لكانت حادثة، فتحتاج إلى مادة؛ لأنَّ كلَّ حادث مسبوق بمادة عندهم، فيلزم التسلسل وهو محالٌ، فثبت قدم مادة الأجسام التي يتألف منها العالم، والمتألف من القديم قديم).

٢- وأثبت أهلُ الحقِّ وجود الجَوْهَر الفرد:

وهو الجزء الذي لا يتجزأ؛ ليمكنهم إثبات مبدأ للعالم تتألف منه الأجسام المتألف منها العالم - أي أنه بالإمكان تجزئ هذه الأجسام؛ حتى تنتهي إلى جزءٍ لا يقبل الانقسام، فينقطع التسلسل، فينقطع المحذور منه.

وهذا الجزء حادث حيث ثبت تحيزه، وكل مُتَحَيِّزٍ حادث، والحادث مستند إلى محدث وفاعل بالاختيار.

---

(١) تلاحظ أقسامها في شرح رمضان.

(٢) نثر اللآلي: ص٢٧٤ - ٢٧٥.

واستدلوا على إثبات الجوهر الفرد بما يأتي:

١- لو وضعت كرة حقيقية على سطح حقيقي، لم تماسه إلا بجزء غير منقسم، إذ لو ماسته بجزئين؛ لكان فيها خط فلم تكن كرة حقيقية على سطح حقيقي.

٢- لا بّد لكلّ عين أن تنقسم إلى جزء يكون نهاية، إذ لو بقي ينقسم لا إلى نهاية - كما تدعون - لم تكن الخردلة أصغر من الجبل؛ لأنَّ كلاً منهما منقسم إلى ما لا نهاية، والْعِظَمُ والصغر إنما هو بكثرة الأجزاء وقلّتها، وذلك لا يتصور إلا في المتناهي.

وإذا ثبت وجود الجوهر الفرد ينتفي ما أثبتوا من وجود الهيولى، والصورة وبانتفائهما ينهدم ما قرروه وهو:

١- قولهم بقدم مادة الكون؛ لأنّهم بنوا منع حدوثه على دليل التسلسل، وبوجود هذا الجوهر ينقطع التسلسل.

٢- قولهم بعدم حشر الأجساد؛ لأنَّ الجسم إذا كان قديماً فإنه لا يفنى؛ فالميت بعد موته باقٍ عندهم، إلا أنَّ صورته تغيرت بحسب الأعراض الحادثة، وبإثبات الجوهر يثبت قبول التجزؤ الموصل إلى الفناء.

٣- قولهم بامتناع الخرق والالتآم للسموات؛ لأنَّهما يستلزمان كون العالم متناهياً وقابلاً للتجزيء، وحيث قد ثبت التجزؤ، فلا مانع من خرق والْتآم السماوات.

وجميع ما قالوه أمور تهدف إلى نفي الفائدة من وجود الوعد والوعيد وإتيان الأنبياء؛ لعدم فناء العالم، ويؤدي أيضاً إلى تكذيب الرسل والأنبياء.

المبحث الثاني

﴿ في تحديد الجسم ﴾

اختلف في تركيبه:

فذهبت الأشاعرة إلى أنَّهُ ما تركَّب من جَوْهَرين.

وقالت المعتزلة: هو ما له أبعاد ثلاثة: طول، وعرض، وعمق؛ ذلك لأنَّ الأصل: هو الجزء الذي لا يتجزأ. وأطلقوا عليه لفظ (النقطة)، فإذا تركَّبَت معها أخرى حدث طول، فيُسَمَّى (خَطّاً)[1]، فإذا تركب معه من الجانب الآخر خطٌّ آخر سُمِّي (سطحاً)[2]، ثم إذا تركّب معه من أسفله أو أعلاه مثل ذلك، حصل عُمْقٌ فيسمَّى (جسماً)[3].

ومن هذا يفهم: أن الجسم ينتهي إلى السطح، والسطح ينتهي إلى الخط، والخط ينتهي إلى الجوهر.

وهذا التركيب يدلُّ على حدوث الجسم، ومع ذلك فإنَّهُ متحيِّزٌ، والمتحيِّزُ حادِثٌ، وبعد هذا نقول:

تبين لنا أنَّ الأعيان: إما مركبة، وهي الأجسام، وإما غير مركبة كالجوهر[4]، وكلٌّ منهما متحيِّزٌ، وكلُّ متحيزٌ حادِثٌ؛ لملازمة الأعراض له؛ لأنها تابعة لتحيزه، والأعراض حادثة بدليل مشاهدة تغيرها كالحركة بعد السكون، والضَّوء بعد الظلمة، والسَّواد بعد البياض وهكذا، وملازم الحادث حادث.

---

(١) بهذا الشكل ــــ

(٢) بهذا الشكل =====

(٣) بهذا الشكل :

(٤) قلنا كالجوهر ولم نقل الجوهر؛ لأنَّ غير المركب لا ينحصر بالجوهر، بل يشمل النفوس المجردة والعقول، وهذا على رأي الفلاسفة، أما المتكلمون فإنَّهم لا يقولون بالنفوس المجردة، ويعتبرون غير المركب هو الجوهر فقط.

وإذا ثبت حدوث الأعيان والأعراض المؤلف منها العالم ثبت أَنَّها حادثٌ؛ لأنَّ ما أُلِّفَ من الحادث فهو حادث.

وجميع ما تقدم هو الدليل العقلي على حدوث العالم.

أما النَّقلي[1]:

فمن الكتاب: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، فابتداء الشيء يدلُّ على حدوثه.

ومن السنة: قوله ﷺ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ»[2].

---

(١) الدليل النقلي يقوم حجة على من يؤمن بالكتاب والسنة ولا يقوم حجة على منكرهما فنذكر الأدلة النقلية ليستفيد منها المؤمن بها فقط.

(٢) رواه البخاري كتاب بدئ الخلق باب ما جاء في قول الله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[الروم:٢٧] رقم: (٣٠١٩)، والمراد بالذكر هنا اللوح المحفوظ.

ص: والمُحدِثُ لِلعَالَمِ هُوَ اللهُ تَعَالى.

وجود الله تعالى

ش: المفردات

المحدِثُ: اسمُ فاعلٍ من أحدث، أي موجد له من العدم إلى الوجود.

الله: الذات الواجبة الوجود لذاته ولا يحتاج إلى شيء آخر لإيجاده.

الشرح الإجمالي:

لما ثبت لدينا أنَّ العالم حادث، فلا بدَّ له من محدِث، ويجب أن يكون هذا المحدث موجوداً، وأن يكون وجوده واجباً لا ممكناً، وهذا يقتضي منا أنْ ندّلِلَ على شيئين:

١- وجود المحدث للعالم.

٢- وجوب وجوده لا جوازه.

برهان وجوده تعالى:

أولًا- الأدلة العقلية[١]، نذكر منها أربعة:

١- ثبت أنّ هذا العالم حادِثٌ ومُمكِنٌ، والممكن يستوي وجوده وعدمه بدون رجحان لأحدهما على الآخر، ككفتي الميزان، ونحن نراه قد وجد فعلاً، فلا بدَّ من مرجح لوجوده على عدمه، وإلا لزم إما ترجيحه بدون مرجح، أو ترجيحه هو لنفسه.

---

(١) استدلَّ أعرابي جاهليٌّ على وجود الخالق بقوله: (البَعْرَة تدلُّ على البعير، والأثر على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا يدلان على السميع البصير).

أما الأول : فمحال؛ لأنَّ التساوي والترجيح بدون مرجح ضدان، والضدان لا يجتمعان.

وأما الثاني: فباطل أيضاً؛ لأنَّهُ يلزم كون الموجِد للمرجَّح – بفتح الجيم – هو نفسه، ولا بدَّ للموجِد – بكسر الجيم – من أن يسبق الموجَد – بفتحها – فيلزم تقدم الشيء على نفسه وهو باطل، وكذا يلزم منه توقف الشيء على نفسه، فيلزم الدَّور الباطل.

٢- برهان التسلسل:

لا بد أن تنتهي هذه الممكنات إلى نهاية، وإلا يلزم التَّسلسل الباطل – وهذا ما يسمّى (برهان التسلسل).

وذلك لأنَّهُ لو تسلسلت سلسلة الوجود لا إلى نهاية؛ لاحتاجت إلى علَّةٍ مستقلَّةٍ غير محتاجة إلى علَّة قبلها لإيجادها، وتلك العلة المستقلة لا بدَّ أن تكون غير الممكنات؛ حيث لا يجوز أن تكون نفس الممكنات، فلو كانت نفسها أو بعضها؛ لزم تقدم الشيء على نفسه أو بعضه، وهو محال.

٣- برهان التطبيق:

وهو برهانٌ يثبت وجود نهاية أولية لهذه الممكنات، أي تنتهي إلى نهاية ليست منه.

وكيفية ذلك: أن تأخذ جملة متسلْسلَة من الممكنات غير متناهية، وتمسك عليها من المعلول الأخير الذي ليس علة لغيره، ثم نأخذ جملةً أخرى متسلسلة من الممكنات وهي أيضاً من قبل المعلول الأخير مخالفة للأولى بواحدة من الحلقات[1].

ثُمَّ بعد ذلك نَسْحَبُ السلسلة الناقصة، فنساويها بالمعلول الأول، وبعد هذا يلزم أحد أمرين.

---

(١) بهذا الشكل:

الجملة الأولى من الممكنات المعلول الأخير الذي لم يكن عله لغيره

إلى لا نهاية......... ⊖ ⊖ ⊖ ⊖ ⊖ ⊖ ⊖

إلى لا نهاية.... ⊖ ⊖ ⊖ ⊖ ⊖

الجملة الثانية من الممكنات

الأول: إما أن تقابل كلَّ حلقة من السلسلة الثانية حلقة من الأولى أو لا تقابل، فإذا قابلت يلزمُ أن تكون السلسلة الناقصة بقدر السلسلة الزائدة؛ لأنَّ المفروض في كلتيهما عدم التناهي من الطرف الثاني، ومساواة الناقص بالزائد محال.

إذن لا بد من التناهي حتى يتبيَّنَ نقصان السلسلة الناقصة في آخرها لدى نهاية السلسلتين.

الثاني: وإن لم تتقابل؛ لزم أن يوجد في الأولى ما لا يوجد بأزائها في الثانية؛ لكونها ناقصة وعند ذلك يلزم أن تنقطع الثانية عن الأولى وتتناهى.

وبتناهيها يلزم تناهي الأولى أيضاً؛ لأنا فرضنا أنها لا تزيد على الثانية إلا بقدر متناهٍ، وهي الحلقة الواحدة، والزائد على المتناهي بقدر متناه أيضاً، إذن لا بُّد من أن تتناهى الممكنات إلى موجد لها ليس ممكناً مثلها وإلا يلزم التسلسل أو الدور المحالان.

٤- إتقان الكون ونظامه:

إنَّ وجود هذا الكون بهذا النظام الرتيب، وهذا التوازن المحكم؛ إذ لو وجد صدفةً أو تلقائياً أو طبيعةً لما انتظم بهذا الشكل، ولاختل توازنه وحركته، ولو كان سيره طبيعةً؛ لأمكن أن نشاهد سفينةً أو سيارةً تسير بدون موجِّهٍ وقائدٍ وبشكل مُتَّزِنٍ ورتيب، كما يسير الكون من أول وجوده إلى الآن، وهذا لم يحصل، فلا بُّد من وجود مسيِّرٍ أو موجِّهٍ.

ثانياً- الدليل النقلي:

أ- من الكتاب: وردت آيات كثيرة تدلُّ على وجود الله تعالى منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

ب- من السنة: وردت أحاديث منها:

في حديث جبريل حينما سأل النبي ﷺ بقوله: ما الإيمان؟ قال: « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ » رواه مسلم[1].

ومنها ما رواه أنس ﷺ قال: (جاءَ رَجلٌ مِنْ أهلِ البَاديةِ فقال: يا محمدُ أتانا رَسُولُكَ فَزَعمَ لنَا أنكَ تَزْعُمُ أنَّ الله أَرْسَلَكَ قال: فَمَنْ خَلَقَ السَّماءَ؟

قال: «الله» قال: فمنْ خلقَ الأرضَ؟ قالَ: «الله»، قالَ فمنْ نَصبَ هذهِ الجِبَال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله») رواه مسلم أهـ[2].

الطبيعيون أو الوجوديون:

يُنكِرُ هؤلاء وجود الخالق -جل شأنه- ويدَّعون أنّ الأشياء أوجَدَتْها الطبيعةُ؛ لأنّهم لا يؤمنون إلا بما تُدْرِكُه الحواسُّ من الماديات.

ويمكن محاجتهم بما يأتي:

١- إنّ الطبيعة لا بدَّ أن تكون موصوفةً؛ لإيجاد هذه الكائنات بالصفات الآتية:

أ- أن تكون قادرةً: إذ الطبيعة إذا كانت عاجزة لا يسعها أن توجِدَ الحوادث التي لا شكَّ أنَّ من بينها ما يتمتع بالقوة، إذ يمتنع على العاجز أنَ يوجِدَ قادراً.

ب-أن تكون عالِمَةً: إذ لا يمكن للجاهل أن يوجِدَ عالِماً أو يوجِدَ شيئاً يجهله.

ج- أن تكون حيَّةً: إذ الميت لا يمكنه أن يخلق الأحياء، وهكذا بقية الصفات التي يجب حصولها في الخالق.

فإذا اعترفوا بأنَّ الطبيعة موصوفة بهذه الصفات فنقول هي الإله ونسميه (الله) لا الطبيعة.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، رقم: (١٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام، رقم:(١٢).

٢- إنَّ ادعاءهم بأنهم لا يؤمنون إلا بالماديات المشاهدة أو المحسوسة غير مسلَّمٍ فيه؛ إذ لو كان ذلك صحيحاً لما آمنوا بجاذبية الأرض، وبوجود قوَّةٍ وشُحْنَةٍ كهربائية على أسلاك الكهرباء، ولَمَا آمنوا ببعض الجراثيم التي يخبرهم بها الطبيب، وهم لا يرونها وتُدْرَكُ بالمجهر؛ وكذا وجود العقل مع كل إنسان؛ إذ أنَّ هذه الأمور مما يؤمنون بوجودها إيماناً تاماً وهي من غير المحسوسات، وهناك الكثير من الموجودات نؤمن بوجودها وهي غير محسوسة، بل المحسوس آثارها، فيجبُ أن يكون الإيمان بوجود الله تعالى من هذا القبيل.

٣- لو كان الأمر كما قالوا بالإيمان بالماديات فقط؛ لما ساغ لأحدهم أن يتألَّمَ من السَّبِّ والشَّتْمِ أكثرَ من ضربة السوط، إذ الأول معنويٌّ، والثاني ماديٌّ، فالمفروض أن يتألموا من ضربة السَّوط فقط لا من السَّبِّ واللَّعْن ما داموا يعترفون بالماديات فقط.

ثم إنَّهم يؤمنون أن مُوجِدَ الكائناتِ الطبيعةُ، والطبيعةُ شيء معنويٌّ ليس مادياً يُدرَكُ بالحواس، فكما يؤمنون بوجودها وهي غير محسوسة، ينبغي أن يؤمنوا بوجود الخالق ولو لم يُدْرك بالحواس.

برهان كون وجوده واجباً لا جائزاً:

الله موجود، والموجود إما أن يكون وجوده واجباً أو جائزاً، فلو لم يكن وجود الله واجباً لكان جائزاً، ولو كان جائزاً؛ لكان من جملة هذا العالم الذي ثبت لنا جواز وجوده.

وإذا كان من جملة العالم لا يصحُّ أن يكون محدثاً له؛ لأَنَّهُ هو المبدِئ – بكسر الدال – له، والمبدِئ لا بّد أن يكونَ قَبْلَ المُبدَأ – بفتح الدال – وعلى هذا لا يصح أن يكون المبدِئ نفس المُبدَأ؛ لأَنَّهُ يلزم وجود الشيء قبل نفسه، وأن يكون الشيء علَّة لنفسه وهما محالان.

وكذا لا يصحُّ أن يكون بعضه؛ لأنَّ بعض الشيء لا يتقدم على كلِّه؛ لأنَّ البعض المتقدم أصبح علَّةً للكل الذي من جملته هذا البعض، وعندئذ يلزمُ كون الشيء علَّة لنفسه،[1] وبالتالي فلا بدَّ أن يكون موجِدُ العالم واجِبَ الوجودِ لا جائز الوجود.

---

(١) بهذا الشكل

الموجد غير الممكنات الممكنات

فالحلقة الكبيرة نفرضها الموجد للممكنات وهي متقدمة على كل الحلقات الباقية فإن كانت الكبيرة هي الموجدة للممكنات – وهي نفس الممكنات – يلزم باعتبارها موجودة أن تتقدم على الموجود الذي هو نفسها. وإن قلنا بعض الممكنات أيضاً يلزم أن تتقدم هذا البعض على نفسه لأنه يعد مع المجموع.

ص: الواحِدُ .

الوحدانية

ش: المفردات:

الواحد: غير المتعدد، اسم فاعل مشتقٌّ من الوحدانية، والواحد أصل تنتهي إليه المتعددات.

الشرح الإجمالي:

لا بدَّ من أن يكون محدِثُ العالم واحداً في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله.

١- وحدانية الذات:

أي أنّ محدث العالم ليس مركباً من أجزاء أو أعضاء؛ لأنّها من خواصِّ الحوادث.

٢- وحدانية الصفات:

أي أنَّ محدث العالم ليس له قدرتان فأكثر، ولا إرادتان فأكثر، أو عِلْمان فأكثر، وليس لأحدٍ صفة كصفاته، أو قدرة كقدرته، أو إرادة كإرادته وهكذا.

٣- وحدانية الأفعال:

أي ليس معه إله آخر في إحداث العالم، ولم يكن له ولد ولا زوجة، خلافاً للثانوية القائلين بوجود إلهين،[1] **أحدهما**: خالق الخير، وهو (يزدان)، **والثاني**: خالق الشر، وهو (أهرمَنْ) بمعنى إبليس.

وقيل: **الأول**: النور، **والثاني**: الظلمة[2].

---

(١) حاشية الباجوري على السنوسية: ص١٨.

(٢) شرح رمضان: ص٩٣، وقد ذكر الدليل التالي على تعدد الآلهة: بأن الفاعل الواحد يمتنع =

وخلافاً لبعض النَّصارى القائلين: بأنه ثالث ثلاثة معبراً عنها بالاقانيم الثلاثة، وهي: ذات، وعلم، وحياة. وبعضهم يقول: إنه أب – وهو الله سبحانه، وابن وهو عيسى– وأم – وهي مريم–.

وخلافاً (للطبيعيين) القائلين: بأنه زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر[1].

أدلة الوحدانية:

١ – من المعقول:

الدليل المشهور والذي يسميه علماء الكلام برهان التمانع، أي التخالف والتنازع. وهو أنّ محدث العالم إلهٌ واحدٌ؛ إذ لو كانا إلهين؛ لما وجد شيء من الممكنات.

وتوضيحه:

أنه لو أمكن وجود إلهين؛ لما وجد شيء من العالم؛ لأنهما إما أن يتفقا على فعل الممكن، أو يختلفا، فمثلاً إيجاد (خالد).

إن اتفقا على إيجاده، فإما أن يوجداه معاً، فيلزم اجتماع مؤثِّرين على شيء واحد، واشتراكهما في إيجاده دليلٌ على عدم إمكان قيام أحدهما بإيجاده مستقلاً، فهما عاجزان ولا يصلح أن يكون العاجز إلهاً.

= أن يكون خيراً وشراً بالذات؛ لأنَّ ذاته إن اقتَضِي الخير ينبغي أن لا يكون شريراً وإن اُقتضِي الشر ينبغي أن لا يكون خيراً.

ولأن الخَيِّرَ إن قَدِر على دفع الشرير ولم يفعل لم يكن خَيِّراً؛ لأن الرضى بالشر شر. وإن لم يقدر عجز والعاجز منحط عن درجة الالوهية ويمكن أن يجاب عنه:

بأن يقال لا نسلم أن الفاعل الواحد إذا فعل خيراً وشراً يلزم أن يكون خيراً وشراً بالذات، لأن الشر بالنسبة إلينا، أما بالنسبة إلى الله تعالى فكله خير ومصلحة.

(١) نثر اللآلي: ص١٢.

وإما أن يوجداه مرتباً بأنْ يوجده أحدهما ثم يوجدَه الآخر، فعند ذلك يلزم تحصيل الحاصل، وإما أن يوجد أحدهما البعض والآخر البعض الآخر، فيلزم عجزهما حينئذ؛ لأَنَّهُ لما تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سدَّ على الآخر طريق تعلق قدرته، فلا يقدر على مخالفته وهذا عجز.

وهذا الفرض يصلح أن يتصور على كل واحد منهما، فيلزم من ذلك كونهما عاجزين.

وإن اختلفا في وجوده وعدمه، بأن أراد أحدهما إيجاده، والآخر عدمه، فإما أن تقع الإرادتان – وهذا محال –؛ لأَنَّهُ يلزم اجتماع الضِّدين، وإما أن ينفذ أحدهما إرادته دون الآخر، فيلزم عجز من لم تنفذ إرادته وعجز من نفذت أيضاً؛ لأَنَّهُ مماثل له، ومماثل العاجز عاجز.

ثم إنَّ هذه الكائنات لا بد أن تنتهي إلى واحد فقط، إذ أن أصل المعدودات الواحد لا المتعدد.

٢- من المنقول:

أ- من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص: ١-٢].

وقوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ب- من السنة:

كان الكثير من كلام النبي ﷺ يدلُّ على ثبوت الوحدانية، منها ما رواه مسلم عن جابر في حجة النبي ﷺ فقال: «فَأَهَلَّ بالتَّوْحِيدِ... لَبَّيْكَ اللّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ....الخ».

ويذكر في نفس الحديث أنه حينما رقى على الصفا واستقبل البيت، فوحَّد الله وكبَّر وقال: «لا إلهَ إلاّ اللهَ وحدهُ لا شريكَ لهُ، لهُ المُلكُ، ولهُ الحمدُ، وهَو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا إلهَ إلاّ اللهَ وحدهُ، صَدَقَ وعدَهُ، وَأنجزَ وعدهُ، ونصرَ عبدهُ، وهزمَ الأحزابَ وحدهُ»[1].

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم: (١٢١٨).

ص: القَدِيْمُ.

قدم الله تعالى

ش: المفردات:

القديم: ضد الحادث، وهو الذي لم يسبق بالعدم، اسم فاعل مشتقٌّ من القدم.

الشرح الإجمالي:

إنّ محدث العالم قديم، لا أول له ولا بداية، فليس كالحوادث.

والدليل على ذلك:

الواقع أن أدلة وجود المحدث للعالم تكفي لإثبات قدمه، ما دمنا أنا قد أثبتنا فيها: أن العالم لا بّد أن ينتهي إلى موجِد، مخالف له ليس هو ولا جزؤه، حيث لا ثالث بين الحادث والقديم، ومع ذلك فإنّا نسوق أدلة أخرى تثبت هذه الصفة له تعالى.

١ - العقلي:

إنَّ الأمر يدور بين كونه قديماً أو حادثاً ولا ثالث، فإنْ لم نقل بأنَّه قديمٌ يلزم كونه حادثاً.

والحادث يحتاج إلى محدث، وهذا المحدث يحتاج إلى محدث، وهو يحتاج إلى محدث وهكذا.

فإما أن يتسلسل[1] إلى غير نهاية كالآتي:

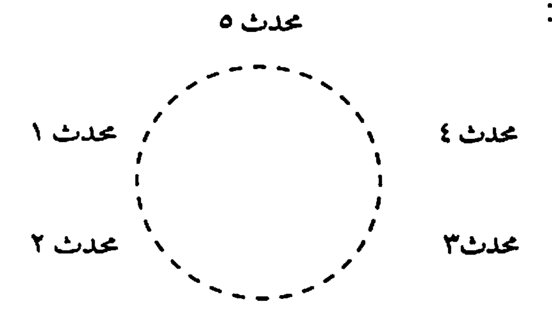
حادث – يحتاج إلى محدث – والمحدث يحتاج إلى محدث... وهكذا إلى غير نهاية، والتسلسل إلى غير نهاية محال عند جميع العقلاء.

---

(١) التسلسل: ترتب أمور وتعاقبها في جانب الأزل لا نهاية لها، الحصون الحميدية: ص١٦.

وإما أن يدور[1].

وذلك على الشكل التالي:



وذلك بأن يستمرَّ وجود المحدثين حتى تنتهي إلى آخر محدث رقم (٥) قد أحدثه الحادث الأول، فيكون الأول حادثاً ومحدثاً بوقت واحد، فيكون وجوده متوقفاً على نفسه.

٢- من النقل

أ- من الكتاب: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

ب- من السنة: قوله ﷺ «اللَّهُمَّ أَنْتَ ٱلأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ ٱلآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[2].

(١) الدور: توقف شيء على شيء يوقف عليه، حاشية الباجوري على السنوسية: ص٣٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم:(٢٧١٣).

ص: الحيُّ، القَادرُ، العَليمُ، السَّميعُ، البَصيرُ، الشَّائِي، المُرِيدُ.

الصفات المعنوية

ش: المفردات

الحيُّ: المتصف بالحياة، وضدها الموت.

وهي صفة أزليَّة قائمة بذاته تعالى؛ لولاها لما صحَّ اتصافه ببقية الصفات.

القادر: المتَّصِفُ بالقدرة – وهي القوة، وضدها العجز.

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يوجد فيها الحوادث ويعدمها، وتعلّقها بالممكنات فقط[1].

العليم: المتصف بالعلم، وهو الإحاطة بالمعلوم، وضده الجهل، وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ينكشف له بها جميع الأشياء من الواجبات، والجائزات، والمستحيلات، وهي تتعلق بهذه الثلاثة[2].

السميع: أي المتصف بالسَّمع، وضده الصَّمم.

وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بواسطة صماخ وأذن، تنكشف بها المسموعات.

البصير: أي المتصف بالبصر، وضده العمى.

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بواسطة مُقْلَة ولا حَدَقَة، تنكشف بها المبصرات ويتعلق السمع والبصر بالموجودات[3].

---

(١) إذ لو تعلقت بالواجب؛ لأمكن إعدامه – وهو محال – ولو تعلقت بالمستحيل؛ لأمكن إيجاده، وهو محال أيضاً.

(٢) لأن الله تعالى يعلم الواجب وهو نفسه وصفاته، ويعلم بالمستحيل، كعدم وجود شريك له كما يعلم بالممكنات.

(٣) فالله تعالى لا يرى المعدوم ويرى الموجود واجباً أو ممكناً ولا يرى المستحيل؛ لأنَّه غير موجود.

الشائي المريد: لفظان مترادفان - أي المتصف بالإرادة، وضدها الإكراه والغفلة.

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يخصص بها كل جائز ببعض ما يجوز عليه، وتعلقها بالممكنات كالقدرة.

الشرح الإجمالي:

إن خالق العالم بهذا النظام المحكم الرتيب، وبهذا الشكل البديع، والعمل المتقن لا بدَّ له أن يتَّصف بهذه الصفات.

والدليل على ثبوتها له:

أولاً: بصورة عامة.

لو لم تثبت له هذه الصفات؛ لثبتت له أَضدادها، وهي: الموت، والعجز، والجهل، والصمم، والعمى، والإكراه، وإذا ثبتت هذه الأضداد يلزم إما عدم وجود هذا الكون المشاهد، أو وجوده مع حصول الخلل بنظامه وحركة أفلاكه وتوازنه.

والواقع على خلاف هذين الفرضين.

ثم إنَّ الإله يجب أن يتصف بصفات الكمال - وهذه الأضداد صفات نقصان - فلو اتصف بها؛ لزم اتصافه بالنُّقصان، وذلك محال.

ثانياً: أدلتها بصورة خاصة:

١ - دليل الحياة:

أ- عقلاً: إنه لو كان ميتاً لما صحَّ اتصافه بصفاته السَّابقة، والتي قام الدليل على وجوب اتصافه بها، فالميت لا قدرة له ولا إرادة، ولا علم، ولا غيرها، ثم إنه من المحال أن يكون ميتاً ويخلق مخلوقاً حياً.

ب- نقلاً:

من الكتاب: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن السُّنة: ما رواه زيد بن ثابت قال: شكوت إلى رسول الله ﷺ أَرَقاً أصابني فقال: « قُلِ اللَّهُمَّ غَارَتِ النُّجُومُ، وهَدَأَتِ الْعُيُونُ، وَأَنْتَ حَيٌّ قَيُّومٌ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ أَنِمْ عَيْنِي، وأَهْدِئْ لِيَلِي، فَقُلْتُهَا فَذَهَبَ عَنِّي »[1].

٢- دليل القدرة:

أ- **عقلاً:** إيجاده سبحانه لهذا العالم، وما احتوى عليه من الأنواع ذات العظمة والغرابة مِن: عالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم المعادن ذات الأصناف، والتي تعجز العقول وتغرق في عجائبها الأفهام، فمن المستحيل أن يكون الموجد والخالق لها فاقداً للقدرة؛ لأنَّ العاجز لا يستطيع أن يقوم بنفسه، فكيف يقوم به غيره؟ ولا يتصور أن نرى مخلوقات ذات قدرة أوجدها خالق خالٍ منها.

ب- **نقلاً:**

من الكتاب: قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

ومن السنة: من دعوات النبي ﷺ: « اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ ، وَعَلَيْكَ الْبَلاَغُ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ » رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب[2].

٣- دليل العلم:

أ- **عقلاً:** دليله هو نفس دليل القدرة، حيث لا يمكن أن يوجد هذا الكون من لا معرفة له بتكوينه وترتيبه أو دقَّة صنعته؛ لأنَّ الجاهل بالشيء يستحيل عليه خلقه، فالذي يجهل النِّجارة لا يستطيع أن يعمل الكرسي مثلاً، والذي يجهل الحدادة لا يستطيع أن يعمل الفأس مثلاً.

---

(١) الأذكار للنووي: ص١٢٤.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم: (٣٥٢١).

ب- نقلاً:

من الكتاب: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

ومن السنة: ما رواه أبو بكر الصديق ﷺ قال: يا رسول الله مرني بكلمات أقولهنَّ إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ » رواه أبو داود والترمذي[1].

٤- دليل السمع والبصر:

أ- عقلاً: لو لم يتصف بهما؛ لزم اتصافه بضدهما، وهما الصَّمم والعمى، وهما نقص في حقِّ الخالق، إذ لا يتصور أنّ الأصم أو الأعمى يوجد هذا الكون المشتمل على أنواع من الأصوات والمبصرات.

وليس من المعقول أن يوجد نوعاً من المخلوقات سميعاً وهو فاقد للسَّمع أو بصيراً وهو فاقد للبصر.

ب- نقلاً:

من الكتاب: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

فاستنكار سيدنا إبراهيم ﷺ على أبيه عبادة ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرَ دليلٌ على وجوب اتصاف المعبود بهما.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم: (٥٠٦٩)، وسنن الترمذي، كتاب الدعوات، رقم: (٣٥٢٩).

ومن السنة: قوله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ» رواه الترمذي. وقال: حديث حسن صحيح[1].

٥- دليل الإرادة:

أ- عقلاً:

لو لم تجب له الإرادة؛ لما كان هذا العالم حادثاً؛ لأَنَّهُ إن لم يوجد بالإرادة يكون وجوده بطريق العلِّيَّة والضرورة بدون اختيار.

وإذا كان كذلك؛ لزم كونه قديماً؛ لأَنَّهُ يصبح معلولاً لعلة، وهي الله ومعلول القديم قديم؛ لأَنَّهُ تابع لعلته لا يتأخر عنها، وقد ثبت أنَّ العالم حادث، وجد بعد أن لم يكن موجوداً، والله تعالى موجود قبل الكون، ثم وجد الكون بإرادته واختياره.

ب- نقلاً:

من الكتاب: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهكذا.

ومن السنة:

قوله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[2]. فكلام النبي ﷺ يدلُّ على أن لله إرادة؛ لأَنَّهُ قال: «من يرد الله به خيرا...».

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، رقم: (٣٣٨٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين» رقم: (٦٨٨٢).

ص: لَيْسَ بعَرَضٍ، ولا جِسْمٍ، ولا جَوْهَرٍ، ولا مُصَوَّرٍ، ولا مَحْدُودٍ، ولا مَعْدُودٍ، ولا مُتَبَعِّضٍ، ولا مُتَجَزِّىءٍ، ولا مُتَرَكِّبٍ، ولا مُتَنَاهٍ، ولا يُوصَفُ بالماهِيَّةِ ولا بالكَيْفِيَّةِ.

المخالفة للحوادث

ش: المفردات

تقدم معنى العرض والجسم والجوهر، فلا نعيده هنا.

ولا مصوَّر: أي ليس بذي صورة وشكل، كصورة الإنسان أو غيره من المخلوقات.

ولا محدود: أي ليس بذي حَدٍّ ونهاية.

ولا معدود: أي ليس محلّاً للكميات المتَّصلة، كالمساحات الأرضية، ولا الكميات المنفصلة كالأشياء المتفرقة المعدودة.

ولا متبعض: أي لا ينحل إلى أقسام أو أَبعاض.

ولا متجزىء: أي لا ينحل إلى الأجزاء التي ركب منها[1].

ولا متركب: أي من الأجزاء كالجسم.

ولا متناه: أي ليس له أطراف ونهاية، كالمساحات والأعداد.

ولا يوصف بالماهية: أي لا يقال عليه (ما هو)؛ لأنَّ معناه من أي الأجناس هو؟ ومن أي شيء تركَّبت ذاته؟

ولا بالكيفية: أي لا يُقال: لونه كذا، وطعمه كذا، وحرارته كذا وبرودته كذا... إلى آخره.

---

(١) الفرق بين المتبعِّض والمتجزِّء هو: إذا لوحظ أنه انحل إلى الأجزاء التي تركَّب منها سُمِّيَ متجزأ، وإنْ لوحظ تركيبه منها سمي متبعضاً. شرح رمضان: ص١٠٧.

الشرح الإجمالي:

بعد أن عرفتَ فيما مضى معنى الجسم، والجوهر، والعَرَض، وعرفتَ معنى الحادث، والقديم، وبعد أن ثبت أنّ الأعراض حادثة، وكلُّ ما تحل به فهو حادث، وثبت أن الله قديم وجب أن يُنفى عنه تعالى كل ما هو من لوازم الحوادث، فهو ليس (بعرض)؛ لأنَّ العرض لا يقوم بذاته، بل يحتاج إلى محلٍّ يقوم به، فلو كان الله عرضاً؛ لاحتاج إلى مكان يقوم به وبالتالي يكون ممكناً متغيراً – لأنَّ العرض لا يبقى – ولو كان عرضاً لاحتاج إلى غيره، وقد ثبت: أن وجوده تعالى واجب، وأنه مستغنٍ عن غيره.

وليس هو (جوهراً)؛ لأنَّ الجوهر وإن كان مفرداً إلا أنه متحيِّز، والتحيِّز من خصائص الممكنات، والله تعالى ليس ممكناً، ثم إنَّه جُزْء للجسم، والجسم حادِثٌ، فَجُزْءُ الحادث حادث.

وهكذا بقية الأوصاف، فإنَّها من لوازم الحوادث وخصائصه، فهي لا تخلو من أن تدل إما على الاحتياج وإما على التجدد والتحديد بحدود الأجسام.

ص: ولا يَتَمَكَّنُ في مَكان.

ش: المفردات

التمكن: نفوذُ بُعْدٍ في بُعْدٍ آخر – أي امتداد جِسْم في بُعْدٍ محدَّدٍ.

التَّحَيِّز: مجرَّدُ أخذ قدر من الفراغ الموهوم، حصل الامتداد أم لا.

الشرح الإجمالي:

إن مُحدِث العالم قديم، ويستحيل عليه عقلاً أن يكون حادثاً مثله، فلا يتصف بأي صفة يوصف بها الحادث، ومن جملة ما يتصف به الحادث تمكُّنه في مكان من الأمكنة، أو تحيزه بقدر من الفراغ، أو يكون في جهة من الجهات، والله تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك؛ لأنها أمارات للحدوث والإمكان.

الخلاف مع (الكرامية)[1]:

ذهبت الكرامية والمشبهة إلى: أن الله تعالى مستقرٌ على العرش، متمكِّنٌ منه، متَّصِلٌ به، كاتصال الأمير الجالس على السَّرير، زاعمين أنه (جسم) متَّصِفٌ بالصُّورة.

وزعم بعضهم: أنه تعالى على العرش غير متمكِّن منه، ولا متصل به، وأنَّ له جهة وهي (الفوقية).

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، بمعنى استقر وتمكن.

---

(١) فرقة منسوبة إلى زعيمها المعروف (محمد بن كرام السجستاني) – مكانها بخراسان – لهم عقائد زائفة تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة، منها: تجسيم المعبود، وجعل له نهاية وحدود، ومنها اعتقادهم أنَّ معبودهم محل للحوادث، ومنهم من يحيل انعدام أجسام العالم.

ومنها أنَّ الله لو اقتصر على إرسال واحد من أول زمان التكليف إلى يوم القيامة، ودام شرعه لم يكن حليماً، وغير ذلك من العقائد الباطلة. انظر الفرق بين الفرق: ص٢١٥.

ويجاب عن هذا بما يأتي:

١- ثبت لدينا أن الله تعالى قديم، وأنَّ العالم حادث، وأنَّ العرش جزء من هذا العالم، فلو استقرَّ على العرش كان (حالاً) في الحادث، والحالُّ في الحادث حادثٌ مثلُهُ، والله تعالى قديم.

٢- كان الله تعالى موجوداً قبل العرش، فلو كان الله مستقراً عليه، لكان محتاجاً إليه. والعرش إما أن يكون قديماً مثله، فيلزم تعدد القدماء (وهو باطل).

وإما أن يكون حادثاً، والمحتاج إلى الحادث حادث مثله، ثم إنَّ وجوده محتاج إلى الله تعالى، فلو كان الله محتاجاً إليه؛ لزم الدور، وتوقف الشيء على نفسه، وهو محال.

٣- إن الباري متعرٍّ عن المكان في الأزل قبل حدوث العرش وغيره من الأمكنة، فلو تمكَّن الله تعالى عليه بعد حدوثه؛ لزم تغَيُّرُ الباري من التَّعري إلى التمكُّنِ منه.

والتغير من صفات الحدوث والإمكان، والباري منزه عنها.

٤- إنه لو كان متمكِّناً في المكان، فإما أن يساوي المكان، أو ينقص عنه، وعلى كلا الفرضين يلزم أن يكون (متناهياً) وهو باطل؛ لأنَّهُ من خواصِّ المقادير والأعداد الملازمين للأجسام.

وإما أن يكون أزيد من المكان، فيلزم تجزئته؛ لأنَّهُ يكون جزء منه في المكان، وجزء خارجه، وهو مُحالٌ عليه تعالى[1].

أما استدلالهم بالآية فلا يقوم حجَّة لهم لما يأتي:

إذ قد ورد الاستواء لخمسة معانٍ في اللغة العربية وهي:

١- بمعنى استقرَّ وتمكَّن، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، أي استقرَّت وتمكَّنت عليه.

٢- بمعنى انتهى، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا لا شاهد فيه في هذا الموضع.

---

(١) انظر شرح رمضان: ص١٠٨.

٣- بمعنى التَّمام، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، أي تَمَّ عَقْلُه وكَمُلَ.

٤- بمعنى الاستيلاء والغَلَبة، مثل:

قد استوى بِشْرٌ على العراق ... من غير سيف ودم مهراق[1]

٥- بمعنى مَلَكَ، مثل: (استوى فلان على العرش) بمعنى مَلَكَ، وإن لم يقعد عليه البتة، وهو رأي الزمخشري[2].

وما دام اللفظ يحتمل الأوجه السابقة، فلا يصحُّ الاحتجاج به وتخصيصه بمعنى خاص منها؛ (لأنَّ الدليل إذا تطرَّقه الاحتمال بَطُلَ به الاستدلال).

رأي علماء المسلمين في الآيات والأحاديث الدالَّة على التَّجسيم:

وردت آيات وأحاديث قد يُفْهَمُ منها ثبوت الاستقرار لله تعالى في المكان، مثل آية الإستواء السابقة، ومثل قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

ومثل الآيات الدالَّة على ثبوت اليد، والعين، ومثل الأحاديث الدالة على القبضة والإصبع، والوجه، واليمين لله تعالى، أو الدالة على نزوله تعالى إلى السماء، أو على القرب والبعد له تعالى[3].

وهي كلها لا يمكن حَمْلُها على ظواهرها – كما فسَّرها المجسمة – إذ يلزم من ذلك ثبوت الجسم له تعالى، وقد ثبت أنه محال، ولهذا فقد ذهب علماء المسلمين فيها مذهبين:

---

(١) شرح رمضان: ص١٠٨.

(٢) تفسير الرازي: ٦٦/ ١٥٥.

(٣) مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾.

ومثل قوله ﷺ في بعض الأحاديث: «ينزل ربكم إلى السماء الدنيا» وما إلى ذلك.

ومثل قوله تعالى في الحديث القدسي: « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ ».

المذهب الأول: مذهب التفويض:

وهو مذهب (السلف)[1].

حيث قالوا: إنَّ ما جاء في الكتاب والسنة من هذا القبيل نؤمن به أنه كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولا نخوضُ في تفسيره، فأمْسَكُوا عن التأويل، وقالوا: الله أعلم بما يعني بذلك، مع اعتقادهم بنفي التَّشبيه والتَّجسيم.

ولذلك أجاب الإمام مالك بن أنس حينما سُئِلَ عن معنى الإستواء، فقال: (الإستواء معلوم، والكيْف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب)[2].

المذهب الثاني: مذهب التأويل:

وهو مذهب (الخلف).

بعد أنِ اتسعت رقعة الإسلام، ودخل فيه كثيرٌ من الشّعوب المتأثرين بالآراء الفلسفية، والعقائد الفارسية التي تؤمن بحلول الإله وتجسُّده، دعى ذلك إلى إثارة هذه الشُّبهات بالنسبة لله تعالى، مستندين في ذلك إلى ما يؤيدهم من اللغة العربية ومن ظواهر النصوص الدالَّة على ذلك.

اضطر الخلف إلى تأويل الألفاظ الواردة، والدالة على التَّجسيم والحلول، وحملها على معانيها المجازية، وبحسب لياقتها مع مقام الباري -جل شأنه- ما دامت اللغة تحتملُ ذلك؛ لأنَّ الكتاب والسُّنة يشتملان على المعاني المجازية، كما يشتملان على المعاني الحقيقية[3].

---

(١) ومنهم الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام الشافعي، ومحمد بن الحسن، وسعيد بن معاذ المروزي، وعبد الله بن المبارك، وأبو معاذ خالد بن سليمان، صاحب سفيان الثوري، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسماعيل البخاري، والترمذي، وأبو داود السجستاني، من تفسير الآلوسي: ١٦/ ١٥٦.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي: ص٢٦.

(٣) وقد جاء في القرآن الكثير من المجاز، مثل قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ =

فأَوَّلوا الإستواء في الآية السابقة بالاستيلاء والاقتدار[1]؛ لأنهم قالوا: لا يمكن حَمْلُهُ على المعنى الأول – وهو الإستقرار والتَّمكن – لما تقدم ذكره في الردِّ على المجسِّمة والمشبهة.

ولا يُمكنُ حمله على المعنى الثاني؛ لأَنَّهُ فيه قد عدي (بإلى) والآية التي نحن بصددها عدي (بعلى) الدالة على الفوقية.

ولا على المعنى الثالث؛ لخلوه من (على)؛ ولأن الله تعالى لا يلحقه التمام باستوائه على العرش؛ لأَنَّهُ كامل.

ولا على رأي الزمخشري؛ لأنَّ هذا يفتح باب التأويلات الباطنية، ثم إنَّ تأويله بمعنى المُلْك والسُّلْطان، يتنافى مع قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

لأَنَّهُ يصبح المعنى ويحمل ملكه وسلطانه ثمانية، والواقع خلاف ذلك[2].

إذن... فلا بُّد من حمله على معنى الاستيلاء والاقتدار خاصة وإنَّ سياق الكلام يدلّ على ذلك؛ لأَنَّهُ سيق للمدح، والمدحُ يكون بالشَّيء الخاصّ بالممدوح، فإذا قلت: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:] بمعنى استولى وغَلَبَ ناسَب المدح، أما إذا كان بمعنى استقرَّ فإنه لا يحصل فيه الامتداح؛ لاشتراك الوضيع والرَّفيع فيه[3].

وقالوا: العينُ تُطلَق على الباصرة حقيقةً، وتستعمل في الرِّعاية والعناية مجازاً[4].

= ومثل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ومثل: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ومثل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وهكذا.

(١) تفسير الآلوسي: ١٦/ ١٥٥.

(٢) نثر اللآلي: ص٤١.

(٣) رمضان: ص١٠٨.

(٤) يقال: جعلت عين فلان على كذا، أي رعايته. ويدُه على هذه الدار، إذا ملكها أو حُقَّ له التصرف بها، ويسمَّى صاحب اليد، وإذا وضعت شيئاً عند أعمى تقول له: عينك عليه، أي رعايتك عليه.

وقالو: اليَدُ تطلق على ذات الذراع والأصابع حقيقةً ،وتستعمل في القوة والملك مجازاً.

وقالوا: النَّزول يُطلق على النُّزول الجسمي، ويستعمل في نزول الأمر أو المَلَكِ مجازاً.

ويُستعملُ بمعنى التواضع والتلطف، فيقال: (نزل فلان) أي تواضع، وعلى هذا الأساس أوّلُوا قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، بقوته وسيطرته، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، بحفظنا ورعايتنا، وهكذا.

أما القول: بأنَّ السَّلَفَ لم يُأَوِّلُوا، ونُسِبَ إليهم أنهم قالوا: إنَّ الله استوى على العرش استواءً يليق به، ولا يُراد به الاستيلاء.

وقالوا: إنَّ المراد بالعين، واليد، يَدٌ تليق به، وعَيْنٌ تليق به، وهكذا، فإنِّي أرى أنَّ هذا القول فيه نوعٌ من التأويل، والسَّلف لم يُأَوِّلُوا بذلك مطلقاً.

ونسبة القول المتقدم إليهم قولٌ؛ بإثبات اليد والعين له تعالى، إلا أنّهم قالوا: يَدٌ وَعيْنٌ مخالفَةٌ للحوادث.

وكذا قولهم بالاستواء استقرارٌ يليق به، والحقُّ أنَّ السلف سلَّموا وآمنوا بالآيات والأحاديث الدالة على ذلك، ولم يخوضوا في أيِّ تفسيرٍ أو تأويل لها.

والمتجهون إلى مذهب السلف يَرُدُّون على الخلف المؤَوِّلِيْن بما يأتي:

١- قالوا: لو كان المراد - بيد الله - قوته؛ لكان لله قُوىً متعددة في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وفي قوله: ﴿أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، فلو كان المراد بذلك القوة؛ لصار المراد بنيناها بقوانا، وخلقتك بقدرتي، والله تعالى ليس له إلا قدرة واحدة.

ويجاب عن ذلك:

أن تثنية الشيء وجمعه قد لا يراد به تعدُّد الأفراد، بل ليكون فيه نوع من المبالغة في القوة؛ لأنَّ ما تفعله اليدان أو الأيدي أقوى وامتن مما تفعله اليدُ الواحدة، وعلى هذا الأساس صار المجاز أبلغُ من الحقيقة.

٢- قالوا: إنَّ لله يداً وعيناً واستقراراً ليست مماثلة للمخلوقات، كما له قدرة وإرادة وعلم ليست كعلم وإرادة المخلوقات، فهي صفات لله تعالى، فالاشتراك في الاسم لا يلزم معه الاشتراك في الحقيقة والكيفية.

ويمكن الإجابة عن ذلك:

أنّ القدرة والعلم وبقية الصِّفات أمور معنوية لا تشير إلى معنى جسمي، فلا مانع من إطلاق لفظها على الخالق، كما تطلق على الخلق؛ لأَنَّهُ لا يتبادر إلى الذِّهن ثبوت الجسم لدى إطلاقها عليه تعالى.

بخلاف وصفه باليد والعين ونحوهما مما يشير إلى الجسمية والعضوية، فإنَّها حينما تُطْلَق يُتَبَادر إلى الذهن ثبوت الجسمية له تعالى، فلا بدَّ من صرفها عن الحقيقة إلى المجاز.

وادعاء أنَّها صفات مخالف للمفهوم اللغوي، إذ هذه أسماء للذوات، وليست أسماء صفات؛ إذ الصِّفة ما دلَّ على حدث مع ذات كاسم الفاعل والمفعول ونحوهما.

وسميت هذه الصفات الخبرية؛ لأنَّ العقل لا يُثبتها له تعالى، ولكنْ أَثبتها الخَبر من آية أو حديث.

والأشعري حينما أولها لم ينكرها، بل أولها من الذَّوات إلى الصفات.

منشأ الخلاف بين السلف والخلف:

نشأ الخلاف بين السَّلف والخلف في الآيات المتشابهة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

فمذهب السَّلف استندَ على أنَّ الوقف عند قوله تعالى «إلا الله» وجعلوا «والراسخون في العلم» استئناف جملة جديدة فأعربوها مبتدأ وجملة يقولون خبراً.

ومذهب الخلف اعتبر الوقف عند قوله «والراسخون»، وجعلوا جملة يقولون حالاً من ضمير الجماعة في «الراسخون».

الرأي المختار:

الذي أرجِّحُه، وأرى الأخذ به هو ما يأتي:

١- إنَّ رأي السلف هو الأسلم للعقيدة، ما دام بإمكان الشخص التسليم بالنُّصوص الدالة على المحلية والجسمية، وما دام ذهنه لم ينصرف إلى التجسيم والتشبيه، ولا يتكلف التأويل شريطة أن لا يخوض في تفسير أو تأويل شيء منها ولا الأخذ بظاهرها.

٢- أما في معرض الدفاع عن حدوث الله، ونفي الجسمية عنه، ودفع الشبهة الموجهة على العقيدة، أو في حالة حصول من لا يؤمن بالنَّص بدون الخوض في معرفة معناه، فالذي أراه الأخذ بها أول به الخلف ما دامت اللغة العربية محتمِلَةٌ لذلك[1].

وهذه الأسباب هي التي دعت الخلف إلى التأويل، مع اعتقادهم أنَّ التفويض أسلم.

لذلك قيل: (طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أحكم).

(١) وإنيِّ أعجب ممن يوجِّهُ الملامةَ على الخلف، في حين أنه يُقرُّ ما اتجه إليه الْكتَّابُ المعاصرون من تفسير الآيات القرآنية تفسيراً علمياً منسجماً مع النظريات العلمية التي يقولها المفكرون المعاصرون، وهم مُحقُّون بذلك؛ لأنَّ أعداء الإسلام حاولوا بكل جهدهم الطَّعن فيه وادعوا قصوره عن معالجة مشاكل الحياة واستيفائه لمتطلباتها، فاضطروا لتفسير الآيات بهذا الاتجاه ما دام أنَّ اللفظ يسمح فيه، ولم يخالف قاعدة من القواعد العامة للإسلام.

ص: ولا يَجْرِي عَلَيهِ زَمَانٌ، ولا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ.

ش: المفردات:

ولا يجري: أي لا يتعيَّنُ وجوده بزمان، ولا يتغيَّرُ بتغيُّره.

الزمان: متجدِّد، يقدر به متجدد آخر، مثل حركة عقارب الساعة، تقدَّرُ بها الثواني والدقائق والساعات.

ومثل طلوع الشَّمس يقدَّر به النهار، وغروبها يقدَّر به الليل.

ومثل اليوم والليلة يقدَّر بها الشهر، ومثل الشهر يقدر به السَّنة.

ومثل السَّنة يقدَّر بها العمر[1].

ولا يشبهه شيء: أي لا يماثِلُه، ولا يَسُدُّ مَسَدَّهُ شيء من الموجودات.

الشرح الإجمالي:

عرفنا معنى الزمان، وعرفنا أنَّه متجدِّدٌ يعرف به متجدد آخر، وقد ثبت لدينا أن الله تعالى ليس متجدداً، بل هو قديم، والقديمَ لا يجوز أن يُقارِن الحادث؛ لأنَّ مقارِنَ الحادِثِ حادثٌ مثله.

ثم إنه تعالى كان في الأزل ولم يكن معه زمان ولم يَحْتَجْ إليه، فجديرٌ به أن لا يحتاج إليه بعد خلقه؛ لأنَّهُ لو احتاجه لزم الدَّور؛ إذ يكون الله تعالى محتاجاً إلى الزمان، والزمان محتاجاً إلى الله تعالى.

والله تعالى لا يشبهه شيء؛ لأنَّ المشابهة بين الشيئين إن كانت من جميع الوجوه تقتضي المساواة بينهما من جميع الوجوه، وإن كانت من وجه واحد تقتصر المساواة بينهما من ذلك الوجه.

---

(١) شرح رمضان: ص١١٠.

فمشابهة الله تعالى للعالم إما أن تكون من جميع الوجوه، فيلزم أن يكون العالم قديماً، والصانع مُحْدَثاً من جميع الوجوه، وقد سبق أن حكمنا على العالم بالحدوث، وعلى الصانع بالقدم.

وإن كانت من وجه دون وجه فتقتضي المساواة من وجهه، فيلزم أن يكون العالم قديماً من وجه محدثاً من وجه آخر، وكذا الصانع، ونحن نعلم أن المُحْدَث من وجه أو من أوجه لا يليق أن يكون (إلها)"[1].

وهذا هو الدليل العقلي على عدم مشابهته للحوادث.

أما النقلي: فمثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(١) نثر اللآلي: ص٥٥.

ص: ولا يَخْرُجُ عن عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ شَيْءٌ

الشـرح الإجمالي:

أولاً- العلم:

أي أن الله سبحانه وتعالى يعلم جميع المعلومات جزئياتها وكلياتها، ويقدر على كل شيء، واحداً كان أو منفرداً أو متعدداً قوياً أو ضعيفاً.

وقالت الفلاسفة (أي الفلاسفة المسلمون)[1]:

إن الله يعلم بالكليات ولا يعلم بالجزئيات، مثلاً: يعلم وجود زيد، ولا يعلم بخروجه ودخوله، وحركاته وسكناته.

واستدلوا على ذلك:

بقولهم لو كان عالماً بأنَّ زيداً في الدار، عند كونه فيها فعند خروجه من الدار إنْ بقي علمه بكونه فيها يكون جهلاً لا علماً، وإن لم يبق علمه بذلك كان تغيراً، والتغيُّر على الله تعالى محالٌ، فلا يكون عالماً بالجزئيات؛ لكونها تتغير.

أما الكليات فلا تغير فيها، فلا يقع التغير في علم الباري.

وأجيب عن ذلك:

بأنَّ العلم ليس حصول صورة مساوية للمعلوم مثبتة في نفس العالم تتغير ذاته بتغير الصورة المادية، بل هو تعلق العالِـم بالمعلوم.

والتغير في التعلق لا يستلزم التغير في الذات، ولا التغير في الصفات الحقيقية.

---

(١) كالفارابي، وابن سينا، وابن رشد.

مثال ذلك:

لو علِّقت مرآة صقيلة صافية في موضع، وقوبلت إلى جهة ثم مرَّ أمامها إنسان يلبس ملابساً بيضاء، فإنَّهُ يظهر فيها الأبيض، ثم إذا مرَّ عليها آخر يلبس ملابساً سوداء يظهر فيها الأسود، وآخر يلبس ملابساً حمراء فإنه يظهر الأحمر... وهكذا فهل يقع في الذِّهن أنَّ المرآة قد تغيرت أو تغير شيء من صفاتها واستدارتها أو تغير مكانها؟.

الجواب: لا... وهكذا العلم لا يتغير بتغير متعلقاته.

وقالت الدَّهْرِيَّة[1]:

إنَّ الله تعالى لا يعلم ذاته، ويقولون: إنَّ العلم نسبة، والنسبة لا تكون إلا بين المُنْتَسِبَين، ونسبة الشيء إلى نفسه محال.

والجواب:

ليس العلم نسبة، بل هو صفة ذات، ونسبة الصفة إلى الذات ممكنة[2].

وما تقدم هو الدليل العقلي.

أما الدليل النقلي، فمثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦].

ثانياً: عدم خروج شيء عن قدرته:

قالت الفلاسفة: الواحد لا يصدر عنه إلا واحد؛ لأنَّهُ لو قدر على أكثر من واحد؛ لزم أن لا يكون الباري واحداً؛ لأنَّ حيثيَّةَ صدور أحد الأمرين غير حيثية صدور الأمر الآخر، فلا يكون واحداً من جميع الوجوه.

والجواب عن ذلك:

إنَّا نقول: أيضاً يلزم على هذا أن لا يصدر الواحد عن الواحد؛ لأنَّهُ لو صدر عن الواحد واحد يكون مصدراً مغايراً له تعالى، فلا يكون الواحد واحداً من جميع الوجوه، والواقع أنه واحدٌ من جميع الوجوه.

---

(١) الدهرية يثبتون وجود الله تعالى، ولكنهم ينسبون الحوادث إلى الدهر.

(٢) رمضان: ص١١٧.

وقال النَّظَّام:

إنه تعالى لا يقدر على خلق الجهل والقبح؛ لأَنَّهُ لو قدر على ذلك لزم أن يكون جاهلاً وقبيحاً؛ لأنَّ خالق الجهل جاهل، وخالق القبح قبيح.

والجواب:

إنا لا نسلِّم ذلك، بل الجاهل هو المتصف بالجهل لا الخالق له، حيث لا يلزم من خلقه الشيء اتصافه به.

وقال البَلْخِي:

إنه تعالى لا يقدر على مثل مقدور العبد... كالصوم والصلاة.

واستدل على ذلك:

بأَنَّهُ لو قدر على مثل مقدور العبد لزم أن يكون العبد؛ مماثلاً له تعالى، وقد ثبت أنه لا يماثله شيء من الموجودات.

والجواب:

أنه لا يلزم من ذلك أن يكون العبد مماثلاً له تعالى في القدرة؛ لأنَّ قدرة الله تعالى أزلية قديمة دائمة، وقدرة العبد حادثة زائلة غير دائمة، فلا يكون مماثلاً له تعالى[١].

وما تقدَّم هو الدليل العقلي.

أما النقلي فقوله تعالى: ﴿وَهُوَعَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

---

(١) شرح رمضان: ص ١١٨.

ص: وَلَهُ صِفَاتٌ أَزَلِيَّة قائِمَةٌ بذاتِهِ تَعَالَى، وَهِيَ لا هُوَ ولا غَيْرُهُ.

ش: المفردات

أزلية: اسم منسوب إلى الأزل – وهو القِدَمُ.

قائمة بذاته: لأنَّ الصفة معنى يقوم بالموصوف.

لا هو: أي ليست الصفة عين الذات.

ولا غيره: أي ليست غير الذات.

الشرح الإجمالي:

اشتمل هذا النص على ثلاث مسائل:

١. أحدها: هل لله تعالى صفات؟
٢. وثانيها: هل هي قديمة أو حادثة؟
٣. وثالثها: هل هي قائمة به أو بغيره؟

أولاً- إثبات صفات الله تعالى، والخلاف مع المعتزلة والفلاسفة:

ذهبت المعتزلة إلى إنكار صفات المعاني لله تعالى، إلا أنَّهم أطلقوا عليه تعالى كونه قادراً بدون قدرة، ومريداً بدون إرادة، وعالماً بدون علم، وهكذا.

وأطلقوا هذا الإطلاق باعتبار تعلُّقِ الذات بالممكنات، لا باعتبارها صفات لها، فإذا تعلقت ذاته بالمقدور سمي قادراً، وإن تعلقت بالمعلومات سُمِّيَ عالماً وهكذا.

واستدلوا على ذلك:

إنَّ الصفات إن ثبتت له تعالى؛ لزم كونها قديمة، وإذا ثبت قدمها لزم تعدد القدماء وتعددهم محال، وهكذا[1].

---

(١) شرح رمضان: ص١٢٠.

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

١- إنَّ المحال تعدد ذوات قديمة بذواتها، أما تعدد الصفات لذات واحدة فغير محالٍ، كذات خالد هي واحدة، وتتصف بصفات متعددة، فهي وحدةُ ذاتٍ مع تعدد الصفات.

ثم إنَّ قِدَمها لا لذاتها، بل لكونها صفات للقديم، والمحال تعدد القدماء لذاتهم فهي ممكنة الوجود، وصارت واجبة الوجود لغيرها[1].

٢- إنَّ الصفات قائمة بغيرها وليست قائمة بنفسها، فلو كانت هي ذات الله تعالى؛ لأصبح الإله غير قائم بذاته، وذلك محال.

٣- من المستحيل أن يطلق مشتق على ذات لم يقم بها معنى ذلك الاشتقاق، فلا يقال: ذابِحٌ إلا أن يقع منه الذَّبْحُ، ولا شارب إلا أن يقع منه الشرب، ولا قادر إلا أن تكون له قدرة.

وذهب الفلاسفة:

إلى عدم ثبوت الصفات له تعالى، وإلى عدم إطلاقها عليه.

واستدلوا على ذلك:

بأنَّ ما يمكن إطلاقه على الخلق لا يطلق على الله تعالى؛ لعدم المماثلة بينهما، ولكون ألفاظ الصفات تطلقُ على الخلق، فلا يمكن إطلاقها عليه تعالى.

ويجاب عن ذلك:

إنه لا مانع من إطلاق لفظ على شيء باعتبارٍ، ويطلق على آخر باعتبارٍ آخر، فالقدرة من الخالق ليست كالقدرة من الخلق وإن اشتركا في الإطلاق.

فالله تعالى ذات وله صفات، وقد نطق القرآن الكريم والسنة النبوية بإثبات الصفات له تعالى في كثير من الآيات.

---

(١) شرح رمضان: ص١٢٤.

ثانياً- صفات الله تعالى أزلية معه، الخلاف مع الكرامية:

زعمت الكرامية:

أن لله تعالى صفات إلا أنها حادثة، وليست قديمة معه.

واستدلوا على ذلك:

بأنه متكلمٌ سميعٌ بصيرٌ اتفاقاً، ولا يتصور وجود هذه الصفات إلا بوجود المخاطب، والمسموع[1]، والمبصر، وهي حوادث فيجب حدوث تلك الصفات أيضاً.

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

١- إنه لا يتعلق وجودها على وجود المخاطب والمسموع، والمبصر، بل يجوز أن توجد قبل ذلك، وتكون مهيئة للإبصار، والتكلم، والاستماع، وهكذا.

٢- إنها حينما تتعلق بالموجود المـُحْدَث يحصل تجدد في تعلقها دون أنفسها.

٣- يلزم من حدوثها حدوث الباريَ -جل شأنه-؛ لكونها قائمة بذاته تعالى، والقائم به الحادث يكون حادثاً مثله.

ثالثاً- قيام الصفات بالذات، الخلاف مع المعتزلة:

المعتزلة وإن قالوا: إن الصفات هي نفس الذات، إلا أنهم أنكروا قيام صفة الكلام بذات الإله، وقالوا: هو قائم بغيره، كاللوح المحفوظ، أو كالملك، أو الرسول، أو الشجرة في مناجاة موسى عليه الصلاة والسلام.

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

١- من الضروري استحالة اتصاف ذات بصفة لم تكن تلك الصفة قائمة بتلك الذات، بل بذات أخرى، فإذا وقع الكلام من الشجرة مثلاً - كما تقولون - لا يسمى متكلماً، بل الشجرة هي المتكلمة.

---

(١) شرح رمضان: ص١٢١.

٢- قد دلت الآيات على ثبوت الكلام له تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

ففي كل ذلك إسناد الكلام إليه تعالى، والأصل في الإسناد حملُهُ على الحقيقة.

تبيَّن مما تقدم:

أنَّ الصفات هي عين الذات ونفسها عند الفلاسفة والمعتزلة، وأنها غيرها على رأي الكرامية والمعتزلة في صفة الكلام فقط.

ونحن نقول: إنها ليست عين ذاته تعالى ولا غيرها، بل قائمة بها.

أما إنها ليست عين الذات:

فلأنها لو كانت عينها؛ لزم اتحاد الذات والوصف القائم بها، ولزم الترادف بين الاسم والوصف، وهو محال[1].

وأما أنها ليست غيرها:

فلأنّ الصفات لو كانت غيرها لكانت إما قائمة بنفسها أو قائمة بغيرها، أما قيامها بنفسها فظاهر البطلان؛ لأنَّ الصفة لا تقوم إلا بشيء موصوف.

وأما قيامها بغيرها:

فيلزم اتصاف ذلك الغير بها لا غيره، وليس هذا التعبير بغريب، فإنَّ يَدَ خالدٍ ليست هي ذاته ولا غيره، أي لا يقال: يَدُ خالد هي نفس خالد، ولا يقال إنها غيره؛ لأنَّها جزؤه، وأن الواحد من العشرة، ليس هو نفس العشرة ولا غيرها؛ لأنَّهُ جزؤها.

---

(١) انظر شرح رمضان: ص١٢٢.

ص: وَهِــيَ العِلْــمُ، والقُدْرَةُ، والحَيَــاةُ، والقُوَّةُ، والسَّــمْعُ، والبَـصَرُ، والإِرادَةُ، والمَشِيئَةُ، والفِعْلُ، والتَّخْلِيقُ، والتَّرْزِيقُ، والكَلامُ.

صفات المعاني

ش: المفردات

العلم: صفة أزلية تنكشف بها المعلومات عند تعلُّقها بها.

القدرة: صفة أزلية تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها.

الحياة: صفة أزلية تصحح بقية الصفات لموصوفها.

القوة: هي نفس القدرة.

السَّمع: صفة أزلية تتعلق بالمسموعات.

البصر: صفة أزلية تتعلق بالـمُبْصَرات.

الإرادة: صفة أزلية توجب تخصيص أحد المقدورين - من الفعل والترك في أحد الأوقات بالوقوع.

المشيئة: هي نفس الإرادة.

الفعل والتخليق: هما والإيجاد والإحداث والاختراع أسماء مترادفة، بمعنى إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود.

الترزيق: هو منح الأرزاق لمن له حياة.

الكلام: صفة أزلية عبر عنها بالنظم العربي المسمى بـ(القرآن)، وبالنظم السرياني (وهو الزَّبور)، وبالنظم اليوناني (وهو الإنجيل)، وبالنظم العبراني (وهو التوارة).

ويسمى هذا بالكلام النفسي -أي الذاتي- وهو الحقيقة في الكلام، أما اللفظي: فهو إفصاح وتعبير عما في النفس لذلك يقول الأخطل:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جُعِلَ اللسانُ على الفؤاد دليلاً

الشرح الإجمالي:

صفات الله تنقسم إلى أقسام باعتبارات مختلفة:

أولاً- إلى صفات ذات، وصفات أفعال:

فصفات الذات: هي التي يتصف بها ولا يتصف بضدِّها، مثل: القدرة، والإرادة، والعلم ،ونحوها حيث لا يتصف بالعجز، والإكراه، والجهل.

وصفات الأفعال: هي التي يتصف بها، ويتصف بضدها، مثل: الإغناء والإفقار، والإحياء والإماتة، والإعزاز والإذلال.

ثانياً- إلى نفسية، وسلبية، وثبوتية:

فالنفسية: هي الوجود وسميت بذلك؛ لأنها منسوبة إلى النفس لملازمتها لها.

السلبية: هي التي يسلب عنه أضدادها[1]، وهي خمسة: القدم، والوحدانية، والمخالفة للحوادث، والبقاء، والقيام بالنفس.

الثبوتية: ما تبقى من الصفات عدا الخمسة السابقة.

ثالثاً- إلى معاني، ومعنوية:

فالمعاني: جمع معنى وهو الحدث – المصدر – وهي المذكورة في كلام المصنف آنف الذكر.

والمعنوية: منسوبة إلى المعاني، وهي الملازمة لها؛ لاشتقاقها منها، مثل كونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً...الخ، وبراهين ثبوتها له تعالى تقدمت سابقاً.

---

(١) نسبة إلى السَّلب، وسميت هي دون البقية بهذا الاسم مع أن البقية أيضاً يسلب عنه أضدادها؛ لأنهم لدى ذكرهم إياها يذكرون معها أضدادها دون بقية الصفات، فيقولون واحد لا مشارك له، قديم ليس بحادث. باق لا يطرأ عليه العدم. وهكذا فهي ملازمة لسلب أضدادها.

ص: وَهْوَ مُتَكَلِّمٌ بكَلام هُوَ صِفَةٌ لَهُ أَزَلِيَّةٌ، لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الحُرُوفِ والأَصْوَاتِ، وَهْوَ صِفَةٌ مُنَافِيَةٌ للسُّكُوتِ والآفَةِ، والله تَعَالى مُتَكَلِّمٌ بِهَا آمرٌ، نَاهٍ، مُخْبرٌ.

مبحث الكلام

ش: المفردات

منافية: مخالفة.

للسكوت: ترك التكلم مع القُدْرَة على الكلام.

الآفَةُ: عدم مطاوعة الآلات فطرةً، كالأخرس، أو لضعفه كالطفل.

متكلم بها: أي بصفة الكلام.

آمر: أي طالب لأفعال من المكلفين.

ناه: أي طالب لترك أفعال من المكلفين.

مخبر: عن حوادث الماضي والمستقبل.

الشرح الإجمالي:

إن الله سبحانه وتعالى متصف بصفة الكلام النفسي الذي هو ليس من جنس الحروف والأصوات، بل أشبه ما يمثُل بالكلام الذِّهني الموجود في ذهن الإنسان. وليس صفةً قائمةً بغيره كما يقول المعتزلة، إذ يستحيل أن توصف ذات - كما قلنا - بمشتق ولا يوجد فيها أصل اشتقاقه.

وإنَّ كلامه أزلي لا كما قالت الكرامية: إنه حادث.

وليس حرفاً ولا صوتاً، ولا كما قالت الحنابلة: إنه من جنس الحروف والأصوات إلا أنه قديم[1].

---

(١) رمضان: ص١٣٦.

فإنْ قيل السكوت والآفة من صفات الكلام اللفظي، والله منزَّهٌ؛ عن اللفظ والحروف والأصوات؛ لكونها حادثَة، فكيف يتصوران مع النفسي؟

الجواب:

إنَّ الكلام النَّفسي له سكوت وآفة معنويان أيضاً؛ لأنَّ الكلام النَّفسي: هو تدبير في النفس أولاً، ثم التَّكلم به باللسان، وذلك التدبر هو الكلام الباطني.

وهو منافٍ للسكوت الباطني الذي هو عدم التدبُّرِ؛ إما لعدم القدرة عليه وهو الآفة، وإما مع القدرة عليه وهو السكوت[1].

وأما كونه آمراً ناهياً مخبراً بها:

فهذا التنوع لا يدلُّ على تعدد هذه الصفة، بل على أنَّها تكثر باختلاف المتعلقات كَبقية الصفات فهي قديمة، والحدوث إنما هو في المتعلقات والإضافات. فمثلاً إنْ تعلقت بطلب فعل سميت (أمراً) وإن تعلقت بترك فعل سميت (نهياً)، وإن تعلقت بالأخبار عن واقع بالماضي أو ما يقع في المستقبل سميت (خبراً).

(١) فإن قيل: إذا كان كلام الله ليس صوتاً ولا حرفاً، فكيف يسمع وكيف يصل إلى المَلك وإلى قلب الرسول؟

الجواب: لا يشترط وجود الحرف والصوت لإيصال الكلام إلى قلب الرسول أو إلى الملك إذ يمكن أن يقع ذلك في عقل الملك وقلب الرسول بدون الحرف والصوت.

ولا غرابة بعد أن ظهرت الآلات الحديثة الناقلة للصوت فآلة التسجيل تنقل الصوت من مسجل إلى آخر مثله وينطبع الصوت بدون حرف ولا صوت؛ وآلة (الفاكس) توضع البرقية فيه في بلد وتوجد مطبوعة كاملة بنفس الكلمات في بلد آخر بدون حرف أو صوت وكذا العقل الالكتروني (الكمبيوتر).

ص: وَالقُرْآنُ كَلاَمُ الله تَعَالى – غَيْرُ مَخْلُوقٍ.
وهُوَ مَكْتُوبٌ في مَصاحِفِنَا، مَحْفُوظٌ فِي قُلُوبِنَا، مَقْرُوءٌ بِأَلْسِنَتِنَا، مَسْمُوعٌ بآذانِنا، غَيْرُ حالٍّ فِيها.

مبحث القول بخلق القرآن الكريم

ش: المفردات

القرآن: عَلَمٌ على كلام الله المنزَّل على سيدنا محمد ﷺ المعجز.

مكتوب في مصاحفنا: بأشكال الكتابة، وصور الحروف الدالَّة عليه.

غير حالٍّ فيها: أي ليس كلام الله حالّاً في المصاحف أو في القلوب أو الألسنة.

الشرح الإجمالي:

ذهب أهل السنة والجماعة إلى: أنَّ الكلام صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليس بحادث ولا قائم بغيره.

وذهبت المعتزلة إلى إنكار ذلك، حيث لم يثبتوا له تعالى، صفة الكلام، وقالوا: إنه متكلِّمٌ بكلام يخلقه في غيره، كما تقدم الخلاف في ذلك.

وعلى هذا الأساس:

نشأ خلاف بين الفرقتين في القرآن هل هو قديم أو مخلوق؟

وسُمِّيَت هذه المسألة (مسألة خلق القرآن) وهي مسألة شهيرة في تاريخ المسلمين، حصلت من أجْلِها فتنةٌ عظيمة بينهم في عهد المأمون[١]، حيث قُتِلَ وعُذِّبَ

(١) تقدمت ترجمته في المقدمة في الأسباب الموجبة لوضع هذا العلم.

وسُجِنَ الكثيرُ من أعلام المسلمين آنذاك، ممن استنكروا على القائلين بخلق القرآن، منهم الإمام أحمد وغيره، وقد نجى الإمام الشافعي[1]، وذهب إلى مصر، وظَهَرَ مذهبُهُ الجديد هناك.

ومنشأ هذا الخلاف مبني على الخلاف في إثبات الكلام النفسي ونفيه، فالمعتزلة تنفيه.

وأهلُ السنَّةِ والجماعة يثبتونه، لأَنَّهُ ثبت بالكتاب، وتواتر النقل عن الأنبياء، والإجماع أنه متكلِّم، ولا معنى لوصفه بذلك إلا لكونه متَّصفاً بالكلام إذ يمتنع - كما قلنا - أن يشتق لشيء وصف ولا يوجد فيه معنى ذلك الوصف، فالمتحرك مثلاً من قامت به الحركة لا من أوجدها، وإلا لزم وصفه تعالى بالسُّواد، والأكوان وبقية الأعراض؛ لأَنَّهُ موجد لها في غيره.

ثم إننا نثبت للشيء وجوداً في الأعيان، ووجوداً في الأذهان، ووجوداً في العبارة، ووجوداً في الكتابة.

فمثلاً النار:

- وجودها العيني: وهو حقيقتها، وجوهرها المحرق الخارجي.
- وجودها الذهني: وهو انطباع صورتها في الذهن.
- وجودها العباري: وهو التلفظ والنطق بكلمة (نار).
- وجودها الكتابي: وهو نقش لفظ (ن ا ر).

فالوجود العيني: هو الحقيقة، وما بقي دال عليه وليس نفسه، إذ لو كان نفسه لاحترق اللسان بالنطق بكلمة (نار)، ولاحترق الورق عند كتابتها عليه[2].

---

(١) يحكى أنَّ الإمام الشافعي حينما أُكْرِهَ على القول بخلق القرآن أو القتل، أشار إلى أصابع يده اليمنى الأربعة، فقال -عاداً بها-: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن هذه الأربع مخلوقة، وارى عليهم بالإشارة، فهو يعني الأصابع الأربعة، وهم فهموا الكتب الأربعة، فنجى من القتل، ثمَّ رحل إلى مصر.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد: ص٥٨.

إذن فالثلاثة الأخيرة دالَّةٌ على الأول وليس هي نفسه، فالكتابة تدل على العبارة، والعبارة تدل على ما في الذهن، وما في الذهن يدل على ما في الأعيان.

والكلام أيضاً:

- له وجود عيني: وهو الأزلي القائم بذاته تعالى.
- وله وجود ذهني: وهو المحفوظ في الذهن والخيال.
- وله وجود عباري: وهو ما ينطق به القارئ حين القراءة.
- وله وجود كتابي:وهو ما ينقش على صحائف المصاحف وغيرها.

ونحن نقول: - إن الوجود الأول - وهو العيني هو صفته تعالى، وهو قديم وليس بمخلوق.

أما الثلاثة الأخرى فهي حادثة؛ لأنَّ الثاني وجد في الذهن بعد أن كان الذهن خالياً منه، والنُّطق بالعبارة لا ينطق بحرف إلا بعد الانتهاء من الأول.

وكذلك الكتابة، وكلُّ ذلك من أمارات الحدوث، فالقرآن: إنْ عنينا به كلام الله تعالى فهو غير مخلوق، والقول بذلك كفر؛ لأَنَّهُ صفة الله تعالى ويستحيل اتصافه بالحوادث.

وإنْ عنينا به ما يدل عليه من ملفوظ ومخطوط ومخيل في الذهن فهو حادث؛ لأَنَّهُ يوصف بما هو من لوازم المخلوقات والحوادث.

- فيقال: قرأت نصف القرآن – للعبارة.
- ويقال: حفظت نصف القرآن – للذهني.
- ويقال: يحرم على المحدث مس القرآن – للمخطوط.
- وكل ذلك من لوازم الحدوث.

فاللفظي، والذهني، والكتابي ليس الخارجي واحداً منها، بل دال عليه كما قلنا في النار: إنه لو كان المنطوق بها هي الخارجية؛ لاحترق اللسان.

أما المعتزلة:

فإنهم أنكروا الأول واعترفوا بالثلاثة فقط، فاضطروا إلى القول بخلق القرآن وحدوثه.

واستدلوا على ذلك:

بأن القرآن متصف بما هو من صفات المخلوق وسمات الحدوث من: التأليف، والتنظيم، والإنزال، والتنزيل، وكونه عربياً، مسموعاً، فصيحاً، معجزاً، إلى غير ذلك، ولما كان متصفاً بصفات المخلوقات صار مخلوقاً مثلها.

والجواب:

إن هذا اللفظ لا يرد علينا؛ لأنا نقول: إنَّ هذه أوصاف للفظ الدال على كلام الله تعالى، واللفظ حادث ونقول به، بل يرد على الحنابلة القائلين: بأن كلام الله تعالى حروف وأصوات وهو قديم، وكلامنا هنا في النفسي وهو القديم حقيقة.

واستدلوا أيضاً:

بقولهم: إنَّ أهل السنة والجماعة متفقون على أن القرآن اسم لما نقل إلينا بين دفتي المصحف تواتراً، وهذا يستلزم كونه مكتوباً في المصاحف مقروءاً بالألسن مسموعاً بالآذان، وكل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة، وإنكم تقولون: إنَّه من عند الله ولا تنفون ذلك، ثم التحدي والإعجاز به لا بالنفسي، إذ لا معنى لمعارضة النفسي.

والجواب:

إن ما هو مكتوب في المصاحف، ومقروء في الألسن، ومسموع بالآذان دالٌّ على كلام الله الموجود في نفسه، وليس هو نفسه ولا حالّاً في الآذان والألسن والأذهان كما قلنا، وإطلاق القرآن على هذه وعلى النفسي من إطلاق اللفظ المشترك على معانيه.

فإذا قلنا: القرآن كلام الله قديم، فالمرادُ به النفسي الذي هو صفته تعالى، وإذا قلنا: القرآن مخلوق، فالمراد به الثلاثة الباقية؛ إذ هو مخلوق لله تعالى ليس من تأليفات المخلوقين، ويكون التحدي والإعجاز فيه.

وبعد هذا كله يمكننا أن نقول: لا خلاف بيننا وبينهم، فقولهم بخلق القرآن باعتبار الحروف والألفاظ[1] وما في الذهن، ونحن نقول به أيضاً، ولكنهم أنكروا النفسي الذي نقول به وبقِـدَمِه، فلو قالوا به؛ لقالوا بقِـدَمِه؛ لأنهم لا يصفون الله بالحادث.

(١) لأنهم يعتقدون: أن الله متكلم بكلام يخلقه في غيره، في العرش، أو اللسان، أو المصحف، أو غير ذلك.

ص: والتَّكْوِيـنُ صِفَـةٌ أَزَلِيَّةٌ: وَهُو تَكْوِينُـهُ لِلعالَمِ وَلِكُلِّ جُزْء مِـنْ أَجْزَائِهِ وَقْتَ وُجُودِهِ، وَهُوَ غَيْرُ الْمُكَوَّنِ عِنْدَنَا.

والإرادَةُ: صِفَةٌ لله تَعَالى قائِمَةٌ بذاتِهِ تَعَالى.

ش: المفردات

التكوين: مصدر كوَّنَ يكوِّنُ تكويناً – هو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود، ويَعَبَّرُ عنه بالفعل، والتخليق، والإيجاد، والإحداث، والاختراع.

المكوَّن- بفتح الواو- هو العالم وأجزاؤه.

المكوِّن- بكسر الواو- هو الخالق تعالى.

الشرح الإجمالي:

ذهب المحققون من الأشاعرة إلى: أنَّ التكوين صفة إضافية لا حقيقية أي هي ليست إلا القدرة والإرادة، فإنَّه إذا أوجد بهما شيئاً سُمِّيَتا إيجاداً، وإذا رزق بهما سميتا إرزاقاً، وإذا أمات بهما سميتا إماتة، وهكذا.

أما الشيخ أبو منصور الماتريدي فيقول: إنها صفة حقيقية قديمة كالعلم والقدرة.

وذهب بعض الأشاعرة إلى أنَّها صفة حادثة.

واستدلوا على ذلك: بأنَّه لا يتصور وجودها بدون وجود المكوَّن – بفتح الواو – والمكوَّن حادث، فلو كان التكوين قديماً؛ لزم قدم المكوَّنات وهو محال.

والجواب على ذلك:

أننا لا نسلم قدم المكونات من قدم التكوين؛ لأنَّ التكوين صفة أزلية، وتعلقها بالمكونات حادث كسائر الصفات، فلا يلزم من تعلقها بالحادث حدوثها.

فالقدرة مثلاً قديمة، وتعلقها بالمقدور الممكن حادث، ومع ذلك لا يلزم من ذلك قدم المقدور، وهكذا، فهي صفة مهيئة لإيجاد المكوَّن من الأزل في الوقت المقدر لوجودها.

واستدل على قدمها بما يأتي:

١- إنه تعالى وصف ذاته: بأنه الخالق، فلو لم يكن في الأزل خالقاً؛ لزم الكذب في خبره تعالى، أو العدول إلى المجاز - أي الخالق مستقبلاً - مع إمكان حمل اللفظ على الحقيقة وذلك لا يجوز.

٢- يمتنع قيام الحوادث بذاته تعالى.

٣- إن كان التكوين حادثاً: فإما بتكوين آخر فيلزم التسلسل وهو محال، وإما بدونه فيستغني الحادث عن المحدث والإحداث، وفيه تعطيل للصانع.

٤- إنه لو كان حادثاً؛ لحدث إما في ذاته تعالى فيصير محلاً للحوادث، أو في غيره فيكون كل جسم مكوناً لنفسه وهو محال.

فعند الأشاعرة:

التكوين: هو عين المكوَّن لا غيره؛ ولذلك قالوا بحدوثه، وعند الماتريدية: هو غيره؛ لأنَّ المصدر غير اسم المفعول، فالضَّرب غير المضروب؛ لأنَّ الأول معنى قائم بالضارب، والثاني أثر حاصل على الغير، فالتكوين صفة أزلية، والمكوَّن هو المخلوق حادث.

الإرادة:

- صفة أزلية قائمة بذاته تعالى.
- خلافاً للفلاسفة القائلين: إنه تعالى موجد بالذات لا فاعل بالإرادة.
- وخلافاً للمعتزلة القائلين: إنه مريد بإرادة حادثة لا في محل.
- وخلافاً للكرامية القائلين: إنه مريد بإرادة حادثة في ذاته.

ويجاب عن الأول:

بأنَّ الأدلة النَّقلية والعقلية جاءت مصرِّحَةً بثبوت الإرادة له تعالى، وعن الثاني والثالث بأنه يستحيلُ عليه تعالى أن يتصف بصفة حادثة، أو يكون محلّاً للحوادث.

ص: وَرُؤْيَةُ الله جَائِزَةٌ فِي العَقْلِ، وَوَاجِبَةٌ في النَّقْلِ، وقَدْ وَرَدَ الدَّلِيْلُ السَّمْعِيُّ بإيجابِ رُؤْيَةِ المُؤْمِنينَ الله تَعَالى في دَارِ الآخِرةِ، فَيُرَى لا فِي مَكَانٍ ولا على جهَةٍ مِن مُقَابَلَةٍ أو اتصالِ شُعَاعٍ، أو ثُبُوتِ مَسَافَةٍ بَيْنَ الرائِيْ وَبَيْنَ الله تَعَالَى.

رؤية الله تعالى

ش: المفردات

الرؤية: معناها الانكشاف التام بالبصر، وإثبات الشَّيء على ما هو عليه، والفرق بين الانكشاف التام والناقص، كالفرق بين تصوُّرِكَ للشيء الذي غاب عنك بعد رؤيته، وبين ما أنت تنظر إليه، فلا شكَّ أنَّ الثاني أتمُّ انكشافاً من الأول.

جائزة في العقل: أي أنَّ العقل لو تُركَ ونفسه لم يمنع رؤية الله تعالى في الدنيا ولا في الآخرة.

وواجبة في النقل: أي ثابتة وواقعة في الدليل السمعي من الكتاب والسنة.

فيرى لا في مكان: أي أنَّ رؤيته تعالى ليست كما نرى الأجسام في مكانٍ من الأمكنة.

ولا على جهة: أي لا نراه فوقاً ولا تحتاً ولا أماماً ولا خلفاً؛ لأنَّ الجهة من لوازم الحوادث.

من مقابلة: أي ليس كما نرى أنفسنا في المرآة حين نقابلها.

أو اتصال شعاع: أي ليس على وجه تنطبع فيه صورة المرئي في الحَدَقَةِ.

أو ثبوت مسافة: أي ليس كرؤية الأجسام، حيث يتوقف رؤيتها على كونها في مكان ليس بغاية من البعد أو القرب.

الشرح الإجمالي:

الخلاف مع المعتزلة: يعتقد أهل السنة والجماعة جواز رؤية الله تعالى في البصر عقلاً ونقلاً، وذهبت المعتزلة إلى أنها ممتنعة عقلاً ونقلاً.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

أولاً- بالدليل العقلي، قالوا:

إن الرؤية يشترط فيها كون المرئي في مكانٍ وجهةٍ ومقابلةٍ من الرائي، وأن تكون بينه وبين الرائي مسافة متوسطة بين القرب والبعد؛ ليشخص المرئي، وأن تسلط عدسة العين إليه؛ لتكون صورته في الحدقة، وهذا كله يستلزم كون الباري -جل شأنه- جسماً وقد تقدَّم استحالة كونه جسماً، فالرؤية مستحيلة؛ لملازمتها المستحيل.

ثانياً- بالدليل النقلي، وهو:

١- قوله تعالى حكاية عن موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وجه استدلالهم بها من وجهين:

أ- قالوا: إنَّ (لن) لتأكيد نفي المستقبل وتأبيده، أي لن تراني أبداً، وهذا يدلُّ على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة.

ب- إن الله علَّق جواز الرؤية على استقرار الجبل حين تحركِه، وحيث الاستقرار وقت التحرك محال؛ لأنَّهُ جمع بين الضدين، فالرؤية محالة؛ لأنَّ تعلق الشيء على شيء ممتنع يدلُّ على امتناع المعلق.

٢- بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وجه استدلالهم بها من وجهين:

أ- الإدراك المسند إلى الأبصار هنا بمعنى الرؤية، أي لا تراه الأبصار.

ب- إنَّ الألف واللام؛ للإستغراق ولوجود النفي معه صار دالاً على عموم السَّلب، أي لا تدركه جميع الأبصار.

٣- رَدَّ الله تعالى على المعاندين الذين يطلبون رؤية الله تعالى عياناً، المقرون بالاستنكار والاستعظام.

فلو كانت رؤيته تعالى جائزة؛ لما قرن الرد بذلك، مثل قول أصحاب موسى عليه السلام: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

واستدلَّ أهل الحق بما يأتي:

أولاً- الدليل العقلي:

وهو أننا حينما نرى الأجسام والأَعْراض نراها على أساس اتِّصافها بالوجود، فلو كانت معدومة؛ لما أمكن رؤيتها؛ لأَنَّهُ من المتفق عليه أنَّ المعدوم لا يُرى.

فالوجود إذن: هو علَّة لصحة رؤية الشيء، فكلُّ موجود يصحُّ رؤيته، ولا شكَّ أنَّ الله تعالى موجود فيصح أن يرى، ولا يمكننا أن نمنع ذلك إلا إذا ثبت لنا أنَّ الوجود علَّةٌ لصحَّة رؤية الممكن فقط، أو أنه ممنوع من جانب الواجب، وهذا لم يثبت، فتبقى العلة على عمومها، فإنْ قالوا: الطعوم والروائح موجودةٌ فلماذا لم تُرَ؟ قلنا: إنَّ عدم رؤيتها ليس ممتنعاً عقلاً، بل لعدم خلق الله تعالى في العبد رؤيتها.

ثانياً- الدليل النقلي:

أ- بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

(فناضرة) بالضَّاد من النَّضارة وهي الحسن (وناظرة) بالظاء بمعنى باصرة.

ب- وقوله تعالى في حق الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فمفهومُ المخالفة فيها يدلُّ على أنَّ المؤمنين ليسوا محجوبين عن رؤية الله تعالى.

ج- بما روى البخاري من قوله ﷺ «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لا تُضَامُّونَ، أَوْ لاَ تُضَاهُونَ - فِي رُؤْيَتِهِ إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[١].

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم: (٥٧٣).

مناقشة أدلة المعتزلة:

يجاب عن أدلتهم بما يأتي:

١- على الدليل العقلي بما يأتي:

أ- لا يلزم في رؤية المرئي أنْ تحقق فيه هذه الشروط؛ لأنَّ الرؤية أعمّ من ذلك فقد تستلزم هذه الشروط وقد لا تستلزم، ولا يقاس الغائب بالشاهد؛ لأنَّ رؤيتنا اليوم إنما هي كيفية من كيفيات عديدة للرؤية، فإنَّ الله تعالى قادر على أن يجعل في الإنسان قابلية الرؤية للشيء بدون هذه الشروط، ثم إنَّ النشأة الثانية يختلف فيها كثير من الأمور والأحوال، عن نشأتنا في هذه الحياة الدنيا.

فالأجسام يحصل بها اختلاف وكذا الطعوم والمشي والجلوس وغير ذلك فلا تقاس الآخرة على الدنيا.

ب- لا يُستغْرَبُ أن تكون الرؤية بدون الحدقة، فلا شكَّ بأنَّه تعالى يرانا بدون حدقة عين فكذا يمكن أن نراه هكذا.

ج- الرؤية نوع كَشْف وعلم إلا أنّها أوضحُ وأتمُّ من العلم، والعلم لا يحتاج إلى كون المعلوم في جهة من العالم به، فإننا نعلمه تعالى الآنَ من غير كيفية وصورة، فكذا يُرى في الآخرة من غير كيفية وصورة وهكذا[1].

٢- ويجاب عن قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾:

بأننا نعدُّ هذه الآية دليلاً على جواز رؤيته تعالى؛ فإنَّها لو لم تكن جائزةً؛ لما سأله موسى إياها؛ لأنها لو كانت ممتنعة؛ لأَصبح سؤاله إما جهلاً بما يجوز له تعالى وما لا يجوز، أو أن يكون عبثاً وسَفَهاً، والأنبياء معصومون عن كل ذلك.

وأما الإدعاء بأنَّ (لن) لتأبيد النفي، فغيرُ مسلَّم، وإلا فماذا يقولون بقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَاۢ﴾ [البقرة: ٩٥]، أي الموت مع أنَّ القرآن قد ذكر تمنيهم الموت

---

(١) انظر هذا المعنى في الإحياء للغزالي: ٤/ ٣١٤، مطبعة مصطفى البابي الحلبي: ١٩٣٩م.

في الآخرة حينما يدخلون النار بقولهم: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وبقولهم: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧].

وأما عن تعليق الرؤية باستقرار الجبل فإنه دليلٌ على جواز الرؤية أيضاً؛ لأنَّ الاستقرار أمر ممكن في ذاته، وما عُلِّق على الممكن ممكنٌ.

فالاستقرارُ حال التَّحرك ممكنٌ بأن يقع السُّكون بدل الحركة، والممتنع اجتماعهما وهو لم يقصد من ظاهر الآية.

٣- وعن قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بما يأتي:

أ- إن الإدراك معناه الإحاطة بجوانب المرئي لا الرؤية فقط، فالرؤية أعمُّ من الإدراك والإدراك أخصُّ ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فانتفاء الإدراك لا يدل على انتفاء الرؤية فقد تحصل الرؤية بدون إحاطة للمرئي.

ب- وإنْ سلَّمْنا أنَّ الإدراك مرادف للرؤية، وأنَّ المراد هنا عموم السَّلب فلا نسلِّم أن في الآية دليلاً على عموم الأوقات والأحوال؛ ليشمل رؤية الدنيا والآخرة وجميع الأحوال.

ثم إن تقدم النفي على الاستغراق يدلُّ على أنَّ المراد سلب العموم لا عموم السَّلب، وسلب العموم لا ينفي أصل الرؤية؛ لأَنَّهُ إن دل على سلب الإدراك عن جميع الأبصار، فإنَّه لا يدل على سَلْبها عن بعضها، كما هو شأن سلب العموم، وعلى هذا فالمسلوب عنهم هم الكافرون؛ لأنهم كما أخبر الله تعالى محجوبون عن الرؤية.

ج- ومع ذلك فيمكننا أن نجعل الآية دليلاً على جواز الرؤية؛ لأنها جاءت في معرض المدح ولا يمدح بشيء يمتنع وجوده، بل يمتدح بشيء يمكن وجوده ويمتنع عنه تعززاً وكبرياً.

٤- وأما الآيات الواردة في سؤال المعاندين، فلم يكن الاستعظام والاستنكار ناتِـجَين عن كون سؤالهم محالاً، بل لكونهم يطلبون ذلك عناداً واستهزاءاً، وإلا لمنعهم موسى من ذلك كما منعهم حينما طلبوا أن يجعل لهم آلهةً يعبدونها من دون الله، وقال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[النمل:٥٥].

هل يُرى الله تعالى في الدنيا بالبصر؟

هي جائزةٌ عقلاً كما عرفنا من عموم الدليل الذي ساقه أهل السنة والجماعة، فهي ممكنة الوقوع على رأي جمهور المسلمين، إلا أنّه حصل الإجماع على عدم وقوع ذلك فعلاً لغير النبي محمد ﷺ.

أما رؤيته بالقلب فلا مانع من ذلك.

هل رآه النبي ﷺ ليلة أسري به أو لا...؟

جرى خلاف بين المسلمين في ذلك:

فذهب الجمهور إلى أنَّهُ رآه ببصره، وهو ما ذهب إليه ابن عباس.

وذهبت سيدتنا عائشة ومن تبعها إلى أنّه رآه بقلبه، وهو المشهور عن ابن مسعود.

استدل الجمهور بأدلة أبرزها قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس ﷺ هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به[١].

واستدلَّ مخالفوهم:

بما روى مسلم وغيره عن مسروق قال: (قلت لعائشة -رضي الله عنها-: يا أمتاه هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد وقف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث؟ من حدَّثكهنَّ فقد كذب: منْ حدَّثك أنّ محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن حدَّثك أنه يعلم ما يكون في غدٍ فقد كذب ثم قرأت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، ومن حدّثك أنه كتم فقد كَذب، ثم قرأت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين)[٢].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، رقم: (٣٦٧٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير سورة والنجم، رقم: (٤٥٧٤).

وبما روي أنه ﷺ قال حينما سُئِلَ هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنَّى أراه»[1].

وأجابوا عن الآية التي استدلَّ بها الجمهور بأنَّ المراد بالرؤية في الآية بالألف الرؤيا المنامية.

الراجح:

هو ما ذهب إليه الجمهور من إمكان وقوعها، وأنها وقعت فعلاً للنبي ﷺ وذلك لما يأتي:

١- لعدم استحالتها عقلاً.

٢- للآية السَّابقة، وأما القول بأنَّ الرؤيا - بالألف - يراد بها المنامية - فيجاب بأنَّها قد تطلق على اليقظة[2].

ولو كان المراد بها الرؤيا المنامية، لما أدَّى ذلك إلى الاستغراب واختلاف الناس وفتنتهم؛ لأنَّ عقولهم لا تأباها إجماعاً.

٣- وما جاء عن سيدتنا عائشة فهو مجرد رأي لها؛ ولذلك استدلت عليه بالآية التي سبق أنْ ذكرنا المراد منها.

٤- وأما ما رويَ من قوله ﷺ: «نورٌ أنَّى أراه»- بفتح الهمزة والنون المشدَّدة وبالألف - فإنه قد روى أيضاً (إنِّي) -بكسر الهمزة والنون مع تشديدها وبالياء- فيكون دليلاً للجمهور، ويمكن أن يُراد بأنه كالنُّور، والنُّور يُرى ولا تدرك حقيقته المركب منها.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله: -عليه السلام-: نور أنَّى أراه، وفي قوله: رأيت نوراً رقم:(١٧٨).

(٢) قال الشاعر:
فكبر للرؤيا وهشَّ فؤاده ... وبشر قلباً كان جما بلا بله

ص: والله تَعَالَى خالِقٌ لأفْعَالِ العِبَادِ مِنَ الكُفْر والإيْـمانِ والطَّاعَة والعِصْيَان، وهي كُلُّها بإرَادَتِهِ وَمشِيْئَتِهِ، وحُكْمِهِ، وقَضيَّته وتَقْدِيرِهِ.

أفعال العباد بين الجبر والاختيار

ش: شرح المفردات

خالق: موجد ومخترع.

العباد: المكلَّفون وغيرهم.

الإرادة والمشيئة: بمعنى واحد.

حكمه: أي قوله للشيء: كُنْ.

وقضيته: قضاؤه.

وتقديره: أي تحديد كل مخلوق بحدِّه ومقداره.

الشرح الإجمالي:

الخلاف مع المعتزلة والجبرية[1].

قالت الجبرية: إنَّ العبد مجبر بأعماله من قيامٍ وقعودٍ ومشيٍ وعبادةٍ وغيرها لا اختيار له في إيجادها وإيقاعها - أي أن الأمر مناط بإرادة الله تعالى في جميع أعمال العبد.

واستدلوا على رأيهم بالنصوص الدالة على أنَّ العبد لا يقعُ منه إلا ما أراده الله وقضاه.

---

(١) هي فرقة تنفي القدرة الإنسانية والاستطاعة، فليس للإنسان اختيار ولا إرادة في أفعاله، بل هو مجبر، والله يخلق فيه الأفعال كما يخلقها بالحيوانات والجمادات، ونسبتها إليها مجازاً، وهم اتباع الجعد بن درهم والجهم بن صفوان الراسبي.

مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

ويجاب عن ذلك:

بأن هذا الرأي سيؤدِّي إلى تعطيل جميع التكاليف الشرعية؛ لأنَّ نظرية الإجبار تتنافى مع التكليف.

فالمجبَرُ على فعل شيءٍ لا يكلَّفُ بضده أو بنقيضه؛ لأنَّهُ يصبح تكليفاً بالمحال، وعلى رأيكم هذا لم يبق فَرْقٌ بين حركة المرتعش وبين حركة المختار، والواقع يثبت خلاف ذلك، ثم إن واقع الإنسان لا يقع منه عمل إلا بعد توجهه إليه وقصده له.

وقالت المعتزلة:

إنَّ العبد خالق وموجد لأفعاله، وقد اضطرهم للقول بهذا حَذَرُهُم من أن يُنْسَبَ الشَّر إلى الله تعالى؛ لأنَّ مبدأ عقيدتهم مبني على أنَّ فعل الأصلح للعبد واجب على الله تعالى، وقال به قبلهم القَدَرِيَّةُ.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- أنه لو كان فعل العبد مخلوقاً له تعالى؛ لما كلَّفَ أحداً من خلقه.

٢- لو كان الله خالقاً لأفعال العبد؛ لكان الله هو القائم، والقاعد، والآكل، والشَّارب، والزاني، والسَّارق، إلى غير ذلك.

٣- قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠]، فنسبة الخلق إلى عيسى عليه السلام دليل على أن العبد يخلق أفعاله.

٤- قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، يدل على أن هناك خالقين غير الله تعالى، فلو لم يكن خالق غيره؛ لما قال: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

عقيدة أهل الحق:

يعتقد أهل السنة والجماعة: أنَّ الأفعال التي تحدث في الكون تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول:

ما لا يحصل بها للعبد أيَّ كَسْبٍ أو توسُّطٍ في إيجادها، وهي ما تقع على وجه القَسْر وعدم الاختيار: كإنزال المطر، وحركة الأفلاك، وإنبات النبات، وغلبة النَّوم، والمرض، والفقر، والصحة، وحركة المرتعش، ونبضات القلب، وحركة الجهاز الهضمي، والذكاء، والفطنة، والغباوة، وغير ذلك.

فهذا لا إشكال فيه بأنه بتقدير الله تعالى وإيجاده ولا خيار للعبد في وقوعه، وهو المعني بالقضاء والقدر خيره وشره.

القسم الثاني:

وهي ما يكون في إيجادها اكتساب للإنسان وسعي اختياريٌّ: كالأكل، والشرب، والإقامة، والجلوس، والمشي، والكسب للعيش، والأعمال التكليفية، فهذه الأفعال مخلوقة لله تعالى من حيث ذواتها لا من حيث صفاتها، أما من حيث الذات فإنه تعالى هو الذي خلق في الإنسان الإنصراف إليها، وخلق فيه العقل؛ ليدل عليها وخلق فيه القدرة والقابلية لإيجادها، كما خلق جميع المقومات المادية والمعنوية؛ لتكوينها، إلا أن الله تعالى يخلقها عقب قصد الإنسان لفعلها وتوجهه إليه.

وأما من حيث الوصف كأن يكون ذلك الفعل حسناً أو قبيحاً، مكروهاً أو مرضياً، خيراً أو شراً، فإنه مناط باختيار الإنسان وإرادته وكسبه واكتسابه.

فالقابلية والاستعداد اللذان أودعهما الله تعالى في الإنسان صالحان؛ لإيقاع فعل ما فيه ثواب وما فيه عقاب، واختيار أحد الفعلين مناط بإرادة الإنسان؛ لذلك يقول الله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، أي من الخير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، أي من الشر فهذا القسم من الأفعال له نظرتان: كونه حصل بتمكين الله يسمى مخلوقاً لله تعالى، وكونه باختيار الإنسان فيُسَمّى كسباً واكتساباً له.

الدليل على أن الله تعالى خالق لأفعال العباد:

أولاً- العقلي:

إن العبد لو كان خالقاً لأفعاله؛ لكان عالماً بتفاصيلها ضرورة أن إيجاد الشيء بالقدرة والاختيار لا يكون إلا كذلك، والواقع أنه لا يعلمها فإنَّ الماشي مثلاً إلى مكان لا يعلم عدد سكنات وحركات مشيته، وثقل حركاته وسرعتها، وحركات أعضائه وعضلاته، وقدر ارتفاع قدمه عن الأرض وانخفاضه.

ثانياً- النقلي:

١- قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] أي خلقكم وخلق عملكم على تقدير (ما مصدرية)، ومعمولكم على تقديرها موصولة.

٢- وقال تعالى ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والمراد به الممكن؛ لأنَّ الواجب قد خَصَّهُ العقل، فأفعال العباد مخلوقة له تعالى؛ لأنَّها شيء.

٣- وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧] في مقام المدح، ولو كان غيره خالقاً؛ لما امتدح نفسه بها؛ لأنها صفة غير خاصة به حتى يمتدح بها.

وأجابوا عن أدلة المعتزلة بما يأتي:

١- عن قولهم: لو كان فعل العبد مخلوقاً...الخ. نقول: إنكم لم تفرِّقوا بين الخلق وبين إيقاع الفعل، فإن نسبة خلق الفعل لله تعالى لا يدلُّ على أنه قد ألزم العبد في إيقاعه وقسره عليه، حيث إن الله تعالى يخلق الفعل بعد قصد العبد الفعلَ وتوجُّهِهِ إليه.

٢- ويجاب عن الثاني: بأن الذي يتصف بالفعل هو من قام به الفعل لا من خلقه، وإلا فإن الله تعالى خالقٌ للسواد والبياض وسائر أوصاف الأجسام، فهل يقال: اللهُ أسود أو أبيض، أو متحرك لكونه خالق ذلك، فكذا إذا خلق قوة الزِّنى في الإنسان، ثم زنى فإنه تعالى لا يسمى زانياً.

٣- وأما عن الخلق في الآيتين، فالمراد به التقدير، أي إذ تقدر كهيئة الطير والله أحسن المقدرين، إذ ورد في اللغة أنَّ معنى الخلق هو التقدير، يقال: خلقت الأديم إذا قايسته؛ لتقطع منه شيئاً.

القضاء والقدر:

القضاء يأتي لمعان:

١- يأتي بمعنى التقدير، مثل: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، أي قَدَّرَهُنَّ.

٢- ويأتي بمعنى الإيجاب والإلزام، مثل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- ويأتي بمعنى الإعلام والتبيين، مثل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٤].

والقدر أيضاً يأتي لهذه المعاني:

١- بمعنى التقدير، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

٢- بمعنى الإيجاب والإلزام، مثل: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠].

٣- وبمعنى الإعلام والتبيين، مثل: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]. أي أعلمنا بذلك، وكتبناه في اللوح المحفوظ.

ويأتي القضاء بمعنى عِلْمُ الله في الأزل بوقوع الشيء، والقدر بمعنى إيجاد ذلك الشيء مطابقاً لما عَلِمَه الله في الأزل، ويُحمل على هذا بالنسبة لأعمال المخلوقين التي لهم اختيار في إيجادها، وعلى هذا يجب الإيمان بهما أي بالقضاء والقدر، يعني نؤمن بأن الله تعالى يعلم جميع ما يقع من أفعال العباد وكلّ ما يتعلق بالمخلوقين، ونؤمن بأنَّ إيجادها يكون على حسب ما علم في السابق، ولا علاقة للقضاء والقدر بالجبر والإكراه من الله للعبد على فعل معيَّنٍ أو ترك له.

وبهذا يقول النووي في شرح مسلم: (قال الخطابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله -سبحانه وتعالىَ- العبدَ وقهره على ما قدر وقضاه،

وليس الأمر كما يتوهموه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله -سبحانه وتعالىَ- بما يكون من اكتساب العبد وصدوره عن تقدير منه)[1].

وذَكَرَ ابنُ حجر العسقلاني في شرحه حديث ابن عمر عن الإيمان، تعريفَ القضاءِ فقال: (والقضاء: عِلْمُ الله أوّلاً بالأشياءِ على ما هي عليه، والقدر: إيجاده إياها على ما يطابق العلم)[2].

فإن قيل: إنَّ علم الله بوقوع الفعل يستلزمَ وقوعه كما علم وهذا يستلزمُ وقوعُ الأفعال قسراً وبدون إرادة العبد؟

فالجواب: أننا نؤمن أن الله هو الخالق والفَعَّال لما يريد، بمعنى أنه قد أوجد الوسائل والآلات للفعل.

أما الإيقاع فهو مناط بإرادة الإنسان؛ لذلك يمكننا أن نقول: إنَّ خلق العمل في الإنسان يكون بعد قصده العمل وتلبُّسه به، فالفعل يقع لا محالة، ولكن ليس جَبْراً من الله تعالى للعبد، بل يقعُ معلَّقاً على قصد فعله، والقصد من العبد، والدليل على ذلك ما ورد من النصوص القرآنية الدالة على ذلك، مثل:

١- قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

٢- وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢-٣]، فقد ذكر أسباب الهداية التي هي أفعال المكلف.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۞ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]، فقد بينت أن الله يضل المتصفين بالصفات التي ذكرت بعد.

٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

---

(١) انظر شرح مسلم: ١/ ١٥٤-١٥٥.

(٢) فتح المبين بشرح الأربعين: ص٦٤.

٥- وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [المائدة: ١٦].

٦- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

أما النصوص الواردة في الإرادة والمشيئة:

وهي الدالة على أن العبد لا يوقع إلا ما يريده الله، والتي تدلُّ على تعليق الهداية بالله تعالى مثل: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، فيرادُ بذلك لو شاء الله لم يترك لهم خيرة، بل جعلهم كلهم موَحِّدين، لكنَّه أراد منح الخيرة لهم.

ومثل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي اتصافكم بالمشيئة والاختيارية التي تشاؤنها هي من عطاء الله وباختياره، لم يكرهه على منحكم إياها أحد.

ومثل: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]، أي إن الله يخلق ذلك لا غير لكن بعد قصد الإنسان لهما.

ومثل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

فيراد بها أنه لو شاء لما ترك الاختيار للناس في اختيارهم طريق الخير والشَّر، فهو قادر على أن يجعلَهم كلَّهم مهتدين، ولم يجعل لهم الخيار في اختيار مصيرهم، إلا أنه أراد أن يمتحنهم بذلك، فجعل لهم العقول وخيَّرهم أي الطريقين يسلكون.

فهو يُضِلُّ من الناس من تعرَّض لأسباب الإضلال، ويهدي منهم من تعرَّض لأسباب الهداية، فلو لم تحمل هذه الآيات على هذه المعاني؛ لتعارضت مع الآيات السَّابقة التي استدللنا بها وغيرها، مثل قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقال أيضاً: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

ص: وللعِبادِ أَفْعالٌ اخْتِيَارِيَّة يُثَابُونَ بِهَا وَيُعَاقَبُونَ عَلَيْها، وَالحَسَنُ مِنْهَا بِرِضَائِهِ تَعالى، والقَبِيحُ مِنْهَا لَيْسَ بِرِضَائِهِ.

ش: شرح المفردات

اختيارية: تقع بإرادتهم واختيارهم.

يثابون بها: إن كانت طاعة لله تعالى.

يعاقبون عليها: إن كانت معصية له تعالى.

الحسن: هو متعلق المدح في العاجل، والثواب في الآجل.

القبيح: هو متعلق الذم في العاجل، والعقاب في الآجل.

الشرح الإجمالي:

بعد أن تبيَّن لنا أن أفعال العباد الاختيارية منسوبة إلى الله تعالى خلقاً وإلى العبد كسباً واكتساباً، علمنا أنهم محل التكليف؛ لذلك يعاقبون ويثابون، ودليل الاختيار في الفعل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ودليل حصول الثواب والعقاب على فعله، قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، فالله تعالى يرضى من عبده فعله الحسن، وهو الموافق لأوامره، ولا يرضى له أن يفعل القبيح، وهو فعل منهي عنه.

ص: والاسْتِطَاعَةُ مَعَ الفِعْلِ: وَهِيَ حَقِيقَةً:- القُدْرَةُ التي يَكُونُ بِهَا الفِعْلُ، وَيَقَعُ هذَا الاسْمُ على سَلامَةِ الأسْبَابِ والآلاتِ والجَوَارِحِ، وَصِحَّةُ التَّكْلِيفِ تَعْتَمِدُ هذِهِ الاسْتِطَاعَةَ.

ش: شرح المفردات

الاستطاعة: هي القوة، والقدرة، والطاقة، والوسع، أسماء مترادفة.

مع الفعل: أي تُخْلَقُ عند قصد إيجاد الفعل.

وهي: أي الاستطاعة.

يكون بها: أي بسببها يوجد الفعل.

ويقع هذا الاسم: أي لفظ الاستطاعة.

الأسباب: أي أسباب الفعل.

والآلات: هي الواسطة التي يوجد بها الفعل.

والجوارح: أي الأعضاء التي يوجد بها الفعل.

تعتمد: تتوقف.

هذه الاستطاعة: أي وهي سلامةُ الأسباب والآلات والجوارح.

الشرح الإجمالي:

ذهبت المعتزلة:

إلى أن القوة التي يوجد بها الفعل يجب أن تتقدم على وجود الفعل، فلا بدَّ من وجود القدرة قبل الفعل، وإلا لزم تكليف العاجز، وهو باطلٌ.

فالمكلَّف بفعل الصلاة يجب أن تكون له قوةٌ وقت تكليفه، والتكليف سابق على فعل الصلاة.

وذهب الجمهور:

إلى أن القوة توجد مع الفعل، فإنْ قَصَدَ الإنسانُ فعل الخير خَلَقَ اللهُ تعالى قدرة فعل الخير، وإن قصد فعل الشر خلق الله تعالى قدرة فعل الشر؛ لأنَّ القوة عَرَضٌ فلا بدَّ أن تكون مقارنة للفعل بالزمان لا سابقة عليه؛ لأنَّ العرض لا يبقى زمانين.

فإن وقعت قبله يلزم وقوع الفعل بدون قوة وهو باطل.

وأجابوا عن علة المعتزلة بما يأتي:

الاستطاعة لها معنيان:

- **أحدهما:** ما بها يوجد الشيء، فهذه تكون مقارنة للفعل، وهي موضوع بحثنا.
- **الثاني:** أنها تطلق على سلامة الآلات والأسباب والجوارح، فمن سلمت له هذه الثلاثة حصلت لديه الاستطاعة.

وصحة التكليف تعتمد وتتوقف على الاستطاعة بالمعنى الثاني، وهي لا شك أنها سابقة على الفعل.

ص: ولا يُكَلَّفُ العَبْدُ بِمَا لَيْسَ فِي وِسْعِهِ.

التكليف بالمحال

ش: شرح المفردات

لا يكلف: أي لا يلزمُ ما فيه كلفة.

في وسعه: أي في طاقته، وهو المحال.

الشرح الإجمالي:

اتفق علماء المسلمين: على عدم وقوع التكليف بالمحال، كجمع الضدين، وخلق الحيوان؛ حيث لم يرد في الشريعة التكليف بما لا يطاق، وبما ليس مقدوراً للعبد؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

واختلفوا في الجواز، هل يجوز عقلاً أن يكلِّف اللهُ تعالى العبدَ بما لا قدرة له عليه؟

ذهبت المعتزلة إلى منع ذلك، وقالوا: إنه يقبح على الله عقلاً أن يكلِّف بما لا يطاق وأن تكليفه عبث؛ لأَنَّهُ يعلم أنه لا يقدر على تنفيذ ما كُلِّفَ به.

وذهب الأشاعرة: إلى تجويزه عقلاً، وقالوا: لا يقبح من الله تعالى شيءٌ، فيجوز أن يكلِّف بما لا طاقة للعبد في إيجاده، وإنما لم يفعل ذلك فضلاً منه ورحمة.

وأجابوا عن قول المعتزلة:- إنَّ تكليفه عبثٌ؛ لأَنَّهُ يعلم أنه لا يقدر على التنفيذ-: بأنّ الله تعالى يكلفه ذلك؛ ليرى هل يأخذ بمقدمات ذلك الفعل، وهل يتوجه ويعزم على فعله وهذا يكفي في الاختبار.

ص: وما يُوجَدُ مِنَ الأَلَمِ فِي المَضْرُوبِ عَقِبَ ضَرْبِ إِنْسَانٍ، والانْكِسارُ فِي الزُّجَاجِ عَقِبَ كَسْرِ إِنْسَانٍ، كُلُّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ لله تَعَالَى لا صُنْعَ للعَبْدِ فِي تَخْلِيقِهِ.

﴿لا تأثير للسبب في خلق الأشياء﴾

الشرح الإجمالي:

إذا حدث فعل شيء بواسطة شيء آخر، فهل السبب هو المؤثر فيه أو المؤثر هو الله تعالى؟

ذهبت المعتزلة:

إلى وجود نظرية التوليد، وقالوا: إذا حرَّك الإنسان المفتاح؛ لفتح القفل، فالإنسان خالق لحركة اليد، وحركة اليد ولَّدت حركة المفتاح، وحركة المفتاح أحدثت فتح القفل، ولا شيء لله في خلقها.

وكذلك إذا ضرب إنسان إنساناً وحصل الألم، فالضرب أوجده العبد ثم وَلَّدَ حدوث الألم في المضروب، وكذلك الانكسار، وكل مسبَّبٍ يحصل بالسَّبب.

ويعتقد أهل الحق: أنَّ الضرب والألم والانكسار كل ذلك مخلوق لله تعالى، لا صنع للعبد في خلقه؛ لأنَّ الله تعالى يخلق المسببات عند وجود السبب لا به.

ص: والمَقْتُـولُ مَيِّتٌ بأجَلِهِ، والمَـوتُ قَائِمٌ بالمَيِّتِ، مَخْلُوقٌ لله تَعَالى لا صُنْعَ للعَبْدِ فِيهِ تَخْلِيقاً ولا اكْتِسَاباً، والأجَلُ وَاحِدٌ.

الأجلُ واحد

ش: شرح المفردات

المقتول: من حصل فيه القتل.

بأجله: الأجل: هو الوقت المحدَّد للموت.

قائم بالميت: أي غير واقع منه.

الشرح الإجمالي:

ذهب أهل الحق إلى أنَّ الأجل واحدٌ لا يتأخر ولا يتقدم، ولا عبرة لاختلاف أسباب الموت.

وأن القتيل مات بأجله المحدد له، ولولا القاتل؛ لجاز أن يموت في الوقت نفسه وأنّ الله هو الذي خلق فيه الموت لا القاتل.

واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وبقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وبقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وغيرها من الأدلة.

وذهب الكعبي[1] من المعتزلة:

إلى أنّ للقتيل أجلين: أحدهما القتل، والثاني الموت، وأن القاتل قد قطع عليه أجله، ولولا قتله إياه لعاش إلى الأجل الثاني -وهو الموت- وأن القاتل هو الذي خلق الموت في القتيل؛ لأنَّهُ وقع منه باختياره.

واستدل:

١- بالنصوص الواردة في أن بعض الطاعات تزيد في العمر، مثل قوله تعالى -حكاية عن نوح عليه الصلاة والسلام-: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٣-٤].

ومثل قوله ﷺ: «مَنْ أحبَّ أنْ يُبْسَطَ عَلَيه في رزقِهِ ويُنَسَّأ لَهُ في أثرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[2].

وكل هذا يدل على أن للإنسان أجلين، وإلا لما احتمل الزيادة والنقصان.

٢- واستدل أيضاً: بأن القاتل لولا أنه قد قطع أجل القتيل؛ لما استحق، عقاباً ولما وجب عليه الضمان؛ لأنَّهُ قد مات بأجله.

فاستحقاقه العقاب والضمان يدلُّ على أنه قد أماته في غير أجله.

ويجاب عن الدليل الأول:

بأن الزيادة لها احتمالات:

أحدها: أنَّ المراد بالزيادة المجازية، أي يبارك له في عمره، بحيث تظهر له أعمال ونتائج تعدل ما يعمله صاحب العمر المديد، فقد يعمل في العمر البالغ خمسين سنة ما يعمله من عمره مائة سنة.

---

(١) عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي، من بني كعب البلخي الخرساني أبو القاسم، أحد أئمة الاعتزال، كان رأس طائفة منهم تسمى (الكعبية)، وله آراء ومقالات في الكلام، انفرد بها أقام ببغداد مدة طويلة، وتوفي ببلخ سنة (٣١٩هـ - ٩٣١م)، له مؤلفات. انظر الأعلام: ٤/ ١٨٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم: (٢٥٥٧)، ومعنى ينسأ له في أثره أي يؤخر له في أجله؛ لأنَّ الأجل تابع للحياة وفي أثرها.

ثانيها: أن الله كتب أن عمره في اللَّوْح المحفوظ أربعون سنةً، ثم علم أنه سَيَزورُ رَحِمَهُ أو يتصدقَّ فيكون ستين كما هو في أم الكتاب فيؤخر إلى الستين وهو المراد بقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

ثالثها: بقاء ذكره الجميل بعد موته فكأنّه لم يمت، أو أن يترك آثاراً ينتفع بها الناس، فكأنه حيٌّ ينفع الناس، مثل الصدقة الجارية، أو مؤلفات العلم.

ويجاب عن الدليل الثاني:

بأنه استحق العقاب والضمان لا لكونه قد خلق الموت في القتيل، وقطع أجله، بل لكونه كسب خطيئة هو منهي عنها، والإنسان آثم على اكتسابه.

كما أننا نعتقد أن الله تعالى هو الذي خلق الموت في القتيل وأنه لم يتولد من قتل القاتل؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، والألف واللام في الموت للاستغراق، فيشمل كل موت مهما اختلفت أسبابه.

ص: والحَرَامُ رِزْقٌ، وكُلٌّ يَسْتَوفِي رِزْقَ نَفْسِهِ حَلالاً كانَ أَوْ حَرَاماً ولا يُتَصَوَّرُ أَنْ لا يأكُلَ إنْسَانٌ رِزْقَهُ أَوْ يَأكُلَ غَيْرُهُ رِزْقَهُ.

هل الحرام رزق؟

ش: شرح المفردات

الحرام: هو ما أُخِذَ بوجهٍ غير مشروع، كالرشوة والسَّرقة والغصب.

رزق: هو ما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله.

يستوفي: يأخذه كاملاً.

لا يتصور: أي لا تحدث صورته في الذهن.

الشرح الإجمالي:

ذهبت المعتزلة – إلى أن الحرام ليس رزقاً.

وفسروه بتفسيرين:

١. **الأول:** بأنه مملوك يأكله المالك – وعلى هذا فالحرام ليس مملوكاً فليس رزقاً.
٢. **الثاني:** بأنه ما لا يمنع الانتفاع به، والحرام يمنع الانتفاع به فلا يكون رزقاً، **وقد ذهبوا هذا المذهب للأمرين الآتيين:**

- **أولاً**– إنَّ الرزق يضاف إلى الله تعالى، حيث لا رازق إلا الله، والحرام قبيح فلا يكون رزقاً؛ حتى لا ينسب القبح إليه تعالى.
- **ثانياً**– إنَّ العبد يستحقُّ الذم والعقاب على أكله، والرزق مسند إليه تعالى، فلو كان الحرام رزقاً؛ لما استحق مرتكبه الذم والعقاب؛ لأَنَّهُ مستند إليه تعالى.

وذهب أهل الحق:

إلى أن الرزق يكون حلالاً وحراماً؛ لأنَّهم فسَّروه: بأنه اسم لما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان فيأكله.

وأجابوا عن تفسير المعتزلة للرزق بما يأتي:

١- بأنه يلزم على التفسير الأول: أن الحيوان ليس مرزوقاً؛ لأنَّهُ ليس مالكاً لما يأكله، وأنَّ ما يأكله ليس رزقاً، والحال أنه مرزوق وما يأكله رزق.

٢- ويلزم على التفسيرين:

أن من عاش طول حياته ومات ولم يأكل إلا من الحرام لم يرزقه الله أصلاً ،وذلك باطل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فالحيوان ومن عاش في أكل الحرام داخلان في عموم هذه الآية، وهما مرزوقان بلا شك.

ويجاب عن تعليلهم بما يأتي:

١- أنه لا يقبح فعل أي شيء بالنسبة لله تعالى؛ لأنَّهُ هو الفاعل المختار ويفعل ما يشاء، والحسن والقبيح بالإضافة إلى الفاعل لا الخالق؛ لذا لا يضر نسبة رزق الحرام إليه تعالى.

٢- وأما استحقاق فاعله الذم والعقاب؛ فلأنَّه أساء في مباشرته باختياره ولهذه الإساءة يذم ويعاقب لا لكون الرزق حراماً.

ص: والله تَعالى يُضِّلُ مَنْ يَشَاء ويَهْدِي مَنْ يَشَاء.

ش: شرح المفردات

يضل: أي يخلق الضَّلالة.

من يشاء: من يريد.

ويهدي: أي يخلق الاهتداء.

والهداية لها معنيان:

١- بيان طريق الحق - وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

٢- بمعنى خلق الاهتداء والوصول إلى الحق، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

الشرح الإجمالي:

إن الله سبحانه وتعالى يخلق الضلالة في الإنسان بعد قصده لسببها وتوجهه إليها، ويخلق الاهتداء في الإنسان بعد قصده لسببه وتوجهه إليه.

وزعمت المعتزلة:

أن الله تعالى يهدي من يشاء بالمعنى الأول فقط؛ لأنَّ العبد خالق لأفعاله عندهم وهذا مردود لوجهين:

الوجه الأول: إن الهداية بهذا المعنى حاصلة للكافر والمسلم، فلا داعي لتعليقها بمشيئة الله تعالى.

والوجه الثاني: أنه قد وردت نصوص منافية لهذا المعنى، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

مع أنه هَدَاهُم ودعا لهم بالهداية بقوله ﷺ: «اللهمَّ اهدِ قومي» ولو كانت الهداية بالمعنى الذي ترونه؛ لما استلزم الدعاء لهم؛ لأَنَّهُ قد حصلت الدلالة منه فلا حاجة إلى طلبها من الله تعالى.

وقد علق الإضلال والهداية على مشيئته؛ لأَنَّهُ تعالى فعَّال لما يريد فلو لم يرد خلقهما في العبد لما وجدا كما هو شأن بقية الأفعال إذ أنه تقع بإرادته لا بإكراه أو سهو أو نحوهما.

ص: وَمَا هُو الأَصْلَحُ لِلعَبْدِ: فَلَيْسَ بِواجِبٍ عَلَى الله تَعَالَى.

فعل الأصلح للعبد

ش: المفردات

الأصلح: هو الأحسن للعبد.

ليس بواجب: أي ليس ملزماً بفعله ولا مذموماً على تركه.

الشرح الإجمالي:

ذهب أهل الحق إلى أنه تعالى لا يجبُ عليه شيءٌ من الأشياء؛ لأنَّ الوجوب حكم من الأحكام؛ والحكم لا يثبت إلا بالشرع، ولا حكم على الله تعالى حيث لا حاكم عليه فلا يجب عليه شيء؛ لأنَّهُ لو وجب عليه شيء؛ لاستحق بتركه الذم، وإن استحق الذم؛ لزم كونه تعالى ناقصاً لذاته مستكملاً بفعله وهو محال.

وذهبت المعتزلة:

إلى وجوب اللطف من الله للعبد كالثواب على الطاعة، والعقاب على الكبائر قبل التوبة، ويجب عليه أن يفعل الأصلح لعباده في الدنيا وأن لا يفعل القبيح عقلاً.

واستدلوا على ذلك:

بأن ترك الأصلح بُخلٌ وسفهٌ، وهما محالان عليه تعالى.

ويجاب على ذلك:

أنه لو كان كذلك؛ لما خلق الفقير الكافر المعذَّب في الدنيا والآخرة ولما كان له على عباده مِنَّة إذا فعل معهم الحسن؛ لأنَّهُ قد فعل الواجب عليه.

ولما كان امتنانه على النبي محمد ﷺ أكثر من امتنانه على أبي جهل؛ لأنَّهُ قد فعل لكل منهما ما هو أصلح له.

ولو كان فعل الأصلح واجباً؛ لما كان لسؤال التوفيق وكشف الضر وطلب البسط والرخاء فائدة؛ لأَنَّهُ ترك ما هو مفسدة لكل واحد يجب عليه تركها.

وأما ما ذهبوا إليه - من أنَّ عدم فعل الأصلح بخلٌ وسفه - فنقول: إن منع ما يكون حقاً للمانع محضٌ عدل وحكمة، ولا سيما قد ثبت كرمه وحكمته وعلمه بالعواقب.

ثم نسألهم ما المراد بالواجب؟

فإنْ كان الواجب الشَّرعي لزم أن يستحق الله الذم والعقاب على تركه وهو ظاهر البطلان.

وإن كان الواجب العقلي يلزم عدم تخلُّفه عنه تعالى والواقع أنه يتخلف.

ثم ماذا يقولون في ثلاثة أخوة:

١. أحدهم مات صغيراً دون البلوغ، فدخل الجنة.

٢. والثاني مات كبيراً كافراً، فدخل النار.

٣. والثالث مات كبيراً صالحاً، فدخل الجنَّة في المراتب العالية.

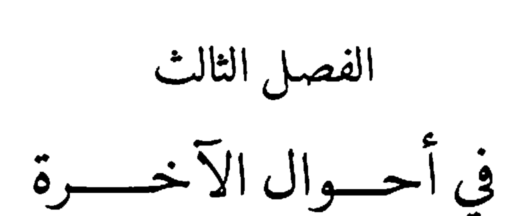
وبإمكانهم جميعاً أن يقيموا الحجة عليه تعالى بأنه لم يفعل الأصلح لهم.

أما الصغير فإنَّه يحتج على الله تعالى، ويقول: لو بقيت إلى ما بعد البلوغ؛ لنلت مرتبة أخي البالغ الصالح، فموتي صغيراً ليس من الأصلح لي.

وأما الكبير الصَّالح: فيمكنه أن يحتج ويقول: لو مت صغيراً؛ لدخلت الجنَّة بدون تحملي مشقة التكاليف الشرعية.

وأما الكبير الكافر فيقول: كان الأصلح لي أن أموت صغيراً؛ حتى أدخل الجنة.

وعلى كل حال فإنَّ الله لم يفعل الأصلح لكل واحد من الثلاثة.



الفصل الثالث

في أحـــوال الآخـــرة

ويتضمــن:

١- سؤال القبر وعذابه ونعيمه.

٢- البعث.

٣- الوزن والميزان.

٤- إعطاء كتب الأعمال.

٥- سؤال الحشر.

٦- الحوض.

٧- الصراط.

٨- الجنة والنار.

٩- الكبيرة لا تخلد المسلم في النار.

١٠- مغفرة الذنوب ما عدا الشرك.

١١- الشفاعة.

١٢- عدم تخليد المؤمنين في النار.



ص: وعَـذابُ القَـبْرِ لِلْكَافِرِينَ ولبَعْضِ عُصَاةِ المُؤْمِنـينَ، وتَنْعِيمُ أَهْلِ الطّاعَةِ فِي القَبر بِمَا يَعْلَمُهُ الله وَيُرِيدُهُ.
وسُؤالُ مُنْكَرٍ ونكيرٍ: ثابِتٌ بالدَّلائِلِ السَّمْعِيَّةِ.

القبر وسؤاله

ش: المفردات

عذاب القبر: ليس المراد به الحفرة التي يدفن فيها الميت فقط، بل المراد أي مكان يحل فيه بعد الموت سواء الأرض أم الهواء أم البحار أم بطون الحيوانات أم غيرها.

ولبعض عصاة المؤمنين: أتى بلفظ البعض هنا ولم يأت بها مع الكافرين؛ لأنَّ قسما من عصاة المؤمنين لم يرد الله تعذيبهم.

منكر ونكير: هما ملكان يسألان العبد في القبر، سمّيا بذلك لإتيانهما الميت بهيئة منكرة، وقيل: هما للكافر والفاسق، ومبشر وبشير للمؤمن الصالح.

الدلائل السمعية: هي المنقولة عن الكتاب والسنة.

الشرح الإجمالي:

هذه المسألة مشتملة على بحثين:

١- سؤال القبر

٢- عذاب القبر ونعيمه.

الأول: سؤال القبر:

ثبت في السنة: أنَّ العبد يُسأل في قبره عن ربه، وعن نبيه، وعن دينه، ويمكننا أن نستدل على ثبوته عقلاً ونقلاً.

أما عقلاً:

فَلأَنَّه من الممكنات لا من المستحيلات، وقد أَخْبَرَ به الصادق المؤيد بالمعجزة، ثم إننا نؤمن بما يراه النائم في منامه؛ إذ قد يكون من جملته: أن يُسأَلَ، وأن يجيبَ، وأن يمتحن، وغير ذلك في الرؤيا، مما يدل على إمكانه في القبر للميت.

وأما نقلاً:

فمن ذلك ما رواه البراء بن عازب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾»[1].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، »[2].

ومن ذلك ما روي عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا وضع العبد في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير، فيقعدانه فيقولان له: من ربك؟ فإن كان مؤمناً قال: الله ربي.

فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ -يعني محمداً ﷺ- فيقول: هو رسول الله.

فيقولان له: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت.

فعند ذلك ينادي مناد من السماء: أن صدق العبد.

وإن كان منافقاً أو كافراً فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ها ها لا أدري كنت أقول كما يقول الناس.

فيقولان له: ما كنت تقول في محمد ﷺ؟ فيقول: لا أدري كنت أقول كما يقول الناس.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير سورة الأنبياء، رقم: (٤٤٢٢).

(٢) مسند أحمد بن حنبل برقم: (٤٥٤)، والترمذي: ٤/ ٥٥٣، برقم: (٢٣٠٨).

فيقولان له: لا دريت ولا تليت. وينادي مناد من السماء: أن كذب العبد»[1].

الثاني: عذاب القبر ونعيمه:

ثبت عذاب القبر ونعيمه بالكتاب والسنة.

أما الكتاب:

١- فقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۞ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

وجه الاستدلال بها:

أنه لما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ دلَّ على أنَّ عَرْضَهم على النار غُدوًّا وعشيًّا هو في القبر؛ إذ أنه لو لم يُحْمَل على ذلك كان تكراراً، فقد قال ابن عباس ﷺ تعرض أرواحهم على النار غدواً وعشياً[2].

وقال ابن مسعود ﷺ (إنَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي أجْوَافِ طُيُورٍ سُودٍ يَرَوْنَ مَنَازِلَهُمْ غُدْوَةً وعَشِيَّةً)[3].

٢- قوله تعالى في قوم نوح: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وجه الاستدلال بها:

أن الفاء في (فأُدخلوا) للترتيب والتعقيب بدون تراخٍ، وهذا يدلُّ على أنهم أدخلوا النار عقب غرقهم مباشرة، وذلك لا يكون إلا في القبر.

ومن الآيات الدالة على وجود التعذيب قبل يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

---

(١) وبمعنى هذه الرواية رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، رقم: (١٢٧٣).

(٢) الغدو أول النهار، والعشي هو آخر النهار.

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٨٢.

وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨].

أما السنة:

فقوله ﷺ «القبرُ إمّا روضةٌ من رياضِ الجنَّةِ أو حُفرَة من حُفَرِ النار»(١).

وقوله ﷺ «استنزهوا من البولِ فإنَّ عامةَ عذابِ القبرِ منهُ»(٢).

وبما روى البخاري عن ابن عباس ﷺ أنَّ النبي ﷺ مرَّ بقبرين فقال: «إنهما يُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير، ثم قال: بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة»(٣).

وقد وردت أحاديث كثيرة في التعوذ من عذاب القبر.

وقد أنكر بعض المعتزلة سؤال القبر وعذابه:

واحتجوا على ذلك بما يأتي:

١ - بقوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١١].

وجه الاستدلال بها:

أنهم اعترفوا بإماتتين وإحيائين، فلو أُحْيِيَ الميت في القبر للسؤال والعذاب؛ لكانت ثلاث إماتات وثلاثة إحياءات وليستا باثنين.

---

(١) سنن الترمذي، صفة القيامة والرقاق والورع، رقم: (٢٤٦٠).

(٢) الدار قطني: ١/ ١٢٦.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم: (٢١٣).

ويجاب عن هذا من وجهين:

الأول: إنَّ المراد بالموتتين الأولى عند انخرام أجلهم في الدنيا، والثانية في القبر بعد السؤال، وأن الإحيائين الأول في القبر للسؤال والثاني في المحشر[1].

الثاني: إن إثبات الاثنين لا يدلُّ على نفي الزائد عنهما؛ إذ لا يوجد أي حصر في الآية فالموتتان في الدنيا والقبر وكذا الإحياء، وتركوا حياة الآخرة لأنهم يشاهدونها فالاعتراف على ما قبلها[2].

٢- قالوا: إنَّ الميت جماد لا روح فيه ولا إدراك، فتعذيبه محالٌ ونراه ونشاهده أياماً لا يتحرَّكُ ولا يضطرب، فلو عُذِّبَ لاضطرب وتحرك.

ويجاب عن هذا بما يأتي:

١- إن الإنسان له روح يفعل ويتحرك بها، وهذه أثر من آثار ضخ الدم في الأوردة والشرايين وهي التي يفقدها الميت إذا مات.

وله حياة مدركة يحسُّ بها الآلام والأفراح، وهي التي يفقدها النائم والمخدَّر والمغْمى عليه، فإذا أُدخل الإنسان القبر عادت عليه حياة الإدراك، فأخذ يتنعم ويتلذذ ويتألم، كالنّائم حينما يرى رؤيا، ولم تعد إليه روح الحركة التي تحتاج إلى الغذاء والتنفس وغيره.

والعذاب والنَّعيم يحسُّ بهما الميت بتلك لا بهذه.

٢- ما دامت الآخرة تختلف اختلافاً كثيراً عن الدنيا، فلا مانع من أن يجعل الله في أجزاء الميت وذراته نوعاً من الحياة الخاصة؛ ليدرك ذلك الجزء أثر العذاب أو النعيم وهذا لا يستلزم حركته واضطرابه، وقد سبق أنَّ القرآن بيَّنَ أنَّ الكافر عند النَّزع يُضْرَبُ على وجهه ودُبُره، ونحن لا نرى ذلك ونؤمن به دون شَك.

---

(١) نثر اللآلي: ص٢٣٩.

(٢) شرح رمضان: ص٢٣٤.

٣- إنَّ رسول الله ﷺ كلَّم المشركين بعدما ألقاهم في قليب بدر، وقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، فسمع عمر قول النبي ﷺ. فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنّى يجيبوا وقد جيفوا؟. قال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» رواه مسلم[1]، وهذا يدل على أن لهم حياة خاصة يسمعون ويحسون بها.

٤- نرى النائم أمامنا وهو في رؤيا يُعذَّبُ بها أو يُنَعَّمُ، ومع ذلك فإنَّا لا نشاهد آثارها عليه، وما دام هذا ممكناً فلا مانع من حصول ذلك مع الميت، ولو لم نشاهد ذلك.

٥- عدم رؤيتنا لآثار التعذيب والتنعيم على الميِّت لا يتنافى مع وقوعه عليه؛ إذ كان جبريل يأتي النَّبي ﷺ فيكلمه ويخاطبه، ولم يره الصحابة الحاضرون.

هل هناك سؤال للصبيان والأنبياء؟

في ذلك قولان: أحدهما: أنها يسألان، والثاني: عدم سؤالهما، وهو الأصح؛ إذ الصِّبيان غير مكلفين، وليس من المستساغ أن يُسأل النبي عن نفسه إذ من جملة سؤال القبر عن النَّبي؛ ولأنَّهم معصومون.

هل يعفى أحد من سؤال القبر وعذابه؟

نعم يُعفى من ذلك الشهداء.

لما روى النسائي أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله ما بالُ المؤمنين يُفتنونَ في قبورهم إلا الشهيد؟ فقال ﷺ: «كفى ببارقِة السيوف على رأسِهِ فِتنةً»[2].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم: (٢٨٧٤).

(٢) النسائي، كتاب الجنائز، باب الشهيد، رقم: (٢٠٥٣).

وكذا يُعْفى المرابط يوماً وليلة في سبيل الله تعالى، ومن مات يوم الجمعة وليلتها، ومن داوم على قراءة سورة الملك في حياته كلَّ ليلة، والمَبْطُونُ، والميتُ زمنَ الطاعون، والصدِّيقُ، والقارئُ قل هو الله أحد في مرض موته[١]، وجميع أصناف الشهداء[٢].

ألَّف الإمام السيوطي رسالةً جمَع فيها الأحاديث الواردة في أنواع الشهداء، فأبلغهم إلى خمسين صنفاً تقريباً.

(١) سنن النسائي، كتاب الجنائز، باب الشهيد، رقم:(٢٠٥٤) ذكر فيه (الطاعون، والبطن، والغريقُ والنُّفَسَاُء شهادة).

(٢) انظرهم في حاشية الباجوري على الجوهرة: ص١٠٣ - ١٠٤.

ص: والبَعْثُ حَقٌّ، والوَزْنُ حَقٌّ، والكتابُ حَقٌّ، والسُؤالُ حَقٌّ، والحَوْضُ حَقٌّ، والصِّرَاطُ حَقٌّ، والجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، وهُمَا مَخْلُوقَتَان الآنَ بَاقِيتَانِ لاَ يَفْنَيانِ ولاَ يَفْنَى نَعِيمُهَا.

أحوال القيامة

ش: المفردات

البعث: هو إحياء المخلوقين في الآخرة، وذلك بجمع أجزائهم وردِّ أرواحها إليها.

حق: أي ثابتٌ وواقعٌ.

الوزن: وزن الأعمال الحسنة والسيئة.

والكتاب: هو الذي تسجَّلُ فيه أعمال الإنسان من خيرٍ وشرٍّ.

الحوض: حوضٌ فيه ماءٌ يكون في المحشر، وهو الكوثر.

الصراط: هو جسر ممدود على ظهر جهنم.

الجنة: هي دار النعيم، مأخوذ من جنَّ أي ستر؛ لأنَّها تَسْتُرُ من فيها؛ لكثافة أشجارها.

النار: هي دار العذاب.

الشرح الإجمالي:

هذا الموضوع يبحث عن أحوال يوم القيامة بعد انتهاء أمد الدنيا، وحلول النفخة الثانية.

إذ يبعث الله الخلائق جميعاً، ويحشرون على صعيد واحد، ويوضع الميزان، وتعطى كتب الأعمال، ويحاسب الناس على أعمالهم، فمنهم مَنْ مصيره إلى الجنة، ومنهم مَنْ مصيره إلى النار، فيخلَّد الكافر، ويعذَّبُ العاصي على قدر معصيته؛ لذا فإنا سنبحث هنا عن هذه المسائل كل واحدة على انفرادها.

المسألة الأولى: البعث:

أنكر البعض البعث والحشر مطلقاً، وهذا كفرٌ لا شكَّ فيه، كما أنكر بعض الفلاسفة المسلمين حشر الأجسام، وادعى أنَّ الحشر للأرواح وهذا أيضاً كفر؛ لأنَّهُ يتنافى مع النصوص الآتية.

وشبهتهم في ذلك هي ما يأتي:

أما من ينكر البعث مطلقاً فإنَّهم يعتقدون أنَّ الإنسان إذا مات فني وصار عظاماً نخرة فإنه لا يعاد، وقد نطق القرآن في كثير من الآيات معبراً عن إنكارهم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١-١٢]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [يس: ٦٦-٦٨].

وأما الفلاسفة: فإنَّهم قالوا: لا تحشر الأجساد، بل الأرواح فقط، إذ أنها إذا ماتت صارت معدومة، وإعادة المعدوم بعينه محال.

ويجاب عن ذلك:

بأنَّ القادر الذي تمكن من أن يُنشئَ الإنسان من نطفة قادِرٌ على الإعادة؛ إذ من المألوف أنَّ إعادة الشيء بعد نقضه أيسر من إنشائه أولاً، ثم إنَّ إعادة المعدوم الذي لم يوجد يستحيل إطلاق الإعادة عليه؛ إذ لا يقال لما لم يوجد: إنَّه مُعَادٌ، أما المعدوم بعد الوجود فلا استحالة في إعادته، فإعادة بناء الدار بعد هدمه أيسرُ من تأسيسه مجدداً؛ إذ إعادة المعدوم يمكن الاستعانة ببعض أنقاضه، أما بناؤه مجدداً ففيه عناء، إذ يحتاج إلى تحضير وتهيئة وجمع المواد لإنشائه.

وقد جاء القرآن الكريم ناطقاً بآيات عديدة ترد على المنكرين.

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، والضمير في يحييها يعود إلى العظام في الآية السابقة.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

فقوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ يدلُّ على حشر الأجسام؛ لأنَّ القبور تدفن فيها الأجسام لا الأرواح.

وإلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على إعادة الأجسام.

ومن السُّنة:

ما روت عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يومَ القيامَةِ حُفاةً عراةً غُرْلاً – يعني بلا ختان على الخِلقَةِ الأصليّةِ – قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضُهم إلى بعض؟

فقال: يا عائشةُ الأمرُ أشدُّ من أنْ ينظرَ بعضُهمْ إلى بعضٍ»[١].

ففي كل هذا دلالة واضحة على البعث، وعلى حشر الأجسام مع الأرواح إذ الحُفْيُ ،والعُريُ، وبقاء القلفة، وإحياء العظام، من لوازم الجسم.

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم: (٢٨٥٩).

ثم إنَّ الجسم ما دام قد اتصف بكونه ممكناً يستوي وجوده وعدمه، فلا مانع من إيجاده بعد العدم كما لا مانع من إعدامه بعد الوجود.

واستدلوا على استحالة إعادة المعدوم:

بقولهم: لو أكل إنسان إنساناً آخر بحيث صار الثاني جزءاً من الأول، فأجزاء الثاني إما أن تُعادَ فيهما فهو محال؛ لاستحالة الجزء الواحد في آنٍ واحدٍ معاداً في شخصين متباينين[1]، وإما أن يعاد في أحدهما فيكون الآخر غير معاد بجميع أجزائه.

ويجاب عن هذا:

إنَّ المعاد هي الأجزاء الأصلية في الإنسان وهي العناصر التي خلق منها، أما ما يأكل الإنسان منه، فإنما هو الزوائد عليها وهي لا يلزم إعادتها؛ إذ أن الجسم هنا سيعاد بأجزائه الأصلية وتتغير هيئته عن الدنيا؛ إذ ورد أن أهل الجنة مُرد، وأن الكافر يتضخم جِسْمُه في النار؛ لزيادة ألم العذاب فيه.

المسألة الثانية: الوزن:

هو تقدير الأعمال بميزان، والميزان ما يُعرفُ به مقادير الأفعال.

ومع أنه قد ورد عن ابن عباس أنه قال: (تُوزَنُ الحَسَنَاتُ والسَيِّئَاتُ في مِيزَان له لِسان وَكَفَّتَانِ تُوضَعُ فِيهِ أعمالُهُم...الخ)[2]. فإنَّا غيرُ مكلَّفين بمعرفة كيفيته.

---

(١) انظر شرح التفتازاني: ص١٨٧.

(٢) وتمام الأثر: فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة، فيوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته، ثم يأخذ عمله فيوضع في الجنة عند منزلة، فيقال له: الحق بعملك فيأتي الجنة فيعرفها به، وأما الكافر فيؤتى بعمله على أقبح صورة فيوضع في كفة الميزان فيخف والباطل خفيف، ثم يرفع فيلقى في النار فيقال له: الحق بعملك فيأتي منزلته في النار فيعرفها به.

انظر: البيهقي، شعب الإيمان، فصل: وإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، دار الكتب العلمية، ط١، سنة ١٤١٠هـ، تحقيق: محمد السعيد زغلول: ١/ ٢٦٠.

وقد وردت آيات كثيرة تدل على وجوده:

منها قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣] وغير ذلك من الآيات.

وهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص، من ذلك ما رواه أنس قال: (سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «أنا فاعل» قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: «اطلبني أول ما تطلبني على الصراط»، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «فاطلبني عند الميزان»، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان، قال:«فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطي هذه الثلاث المواطن»)[١].

وقد أنكر المعتزلة الميزان، وقالوا:

١- إنَّ الأعمال أعراض لا يمكن إعادتها؛ لأنها منقضية[٢].

٢- و إنْ فُرِضَ إعادتها لا يمكن وزنها؛ لعدم اتصافها بالخِفَّة والثقل.

٣- إنها معلومة لله تعالى، ومن العبث وزنها.

ويمكن أن يجاب عن ذلك:

١- يمكن أن نقول: إن الموزون هو الكتب التي فيها الأعمال، لا نفس الأعمال، والكتب توصف بالخفة والثقل.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب: شأن الصراط، رقم:(٢٤٣٣).

(٢) لا غرابة بعد أن أوجد العلم الحديث بعض المقاييس التي يعرف بها درجة أو كمية الأشياء غير المجسمة من ذلك مقاييس الطاقة الكهربائية، حيث تعرف بها الوحدات المستهلكة ومقاييس الحرارة والبرودة والرطوبة ونحو ذلك.

٢- ليس بمتعذر على الله تعالى أن يجعل من الأعمال ما يتصف بالخفة والثقل، أليس قد صحَّ أن الموت سَيؤتى به يوم القيامة على صورة كبش فيذبح بين الجنة والنار؟ وأيضاً قد ورد بأن الأعمال قد تخلق بشكل أجسام ولها ثقل، فتحمل على الظهر، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ [الأنعام: ٣١].

٣- إن وزن الأعمال مع علم الله بها لا يعدُّ عبثاً، إذ قد تقتضي الحكمة ذلك،[١] وعدم اطلاعنا على الحكمة لا يوجب العبث[٢]، ثم إن طبيعة الإنسان مجبولة على تحكيم الأسباب والمسببات فاقتضت حكمة الله أن يوقف الإنسان بنفسه على أعماله التي عملها في الدنيا، وليرى انعكاسها عليه كما يرى الزارع ثمار زرعه بحيث يحصل له يقين بما يجازى به ما لا يحصل له فيما لو قيل له: إن الله علم أعمالك في الدنيا وهذا جزاؤك عليها يوم القيامة، وهذه هي الحكمة بعينها حينما يُنْطِقُ الله الجوارح؛ لتشهد على صاحبها ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١].

وقد أَوَلَ المعتزلة الآيات السابقة بأنَّ المراد بالميزان العدل في كل شيء.

ونحن نقول: إنَّ هذا التأويل بعيد جداً بعد أن اطلعنا على ما تقدم من حديث أنس وأثر ابن عباس ﷺ.

هل توزن أعمال الكافرين؟

في المسألة قولان:

الأول: لا توزن؛ لأنها تُحبَطُ كيف ما كانت؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥].

الثاني: الأصحُّ أنها توزن، وأن المراد في الآية: لا نقيم لهم وزناً معتبراً أو نافعاً.

---

(١) لعل من الحكمة تعريف العباد مقادير أعمالهم؛ إذ لو دخلوا الدارين قبله ربما ظنَّ الجميع أن أعماله تستحق منزلة أعلى، وربما ظنَّ العاصي أنَّ عذابه أكثر من ذنبه، أو ليعرف الإنسان المقبول من عمله من المردود أو غير ذلك.

(٢) انظر التفتازاني: ص١٨٤ - ١٨٥.

المسألة الثالثة: الكتاب:

هو الصحيفة[1] التي دَوَّنَت فيها الملائكة أعمال الإنسان في الدنيا من خير أو شر، يُدفع لكل إنسان كتابَه فيقرؤه بنفسه إذ هناك يقرأ المتعلم والأمي.

فالمؤمن: يُعطى بيمينه؛ لأنَّ كتابه مليء بالطيبات التي خصت بها اليد اليمنى.

والكافر: يأخذ بشماله ومن خَلْفِ ظَهْره؛ لأَنَّهُ مليءٌ بالخبيثات والسيئات التي من شأنها أن تُستَعْمَلَ لها اليد اليسرى وتُدفع له من خلف؛ لأَنَّهُ لا يستحق المواجهة.

والدليل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٧-١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٥].

---

(١) الصحيفة بمثابة الوثيقة التي تدفعها المدرسة إلى الطالب بعد امتحانه في نهاية السنة الدراسية؛ ليعرف نتيجة سعيه واجتهاده، فإما أن تكون الفوز، أو الرسوب، أو الإكمال.

وقد سُئل ابن عباس عن كيفية إعطاء الناس كتبهم يوم القيامة، فقال: المؤمنُ يُعطى كتابه بيمينه وهو صحيفةَ أثبتت فيها حسناته وسيئاته، يقرأ سيأته في باطنها وحسناته في ظاهرها فيجد فيها: عملتَ كذا، وكذا وصنعت كذا وكذا. وقلت كذا وكذا في سنة كذا وكذا في شهر كذا وكذا في يوم كذا وكذا، في ساعة كذا وكذا، في مكان كذا وكذا، فإذا انتهى إلى أسفلها قيل له: غَفَرَ الله لك، فاقرأ ما في ظهرها فيقرأ حسناته فيسرُّه ما يَرى ويسفر لونه عند ذلك.

ويعطى الكافر كتابه بشماله ويقرأ حسناته في باطنها، وسيئاته في ظاهرهما، فإذا انتهى إلى آخره قيل: هذه حسناتك قد رُدَّت عليك اقرأ ما في ظهرها فيُرى فيها سيئاته قد حفظت عليه كل صغيرة وكبيرة، فيسوؤه ذلك ويسود وجهه، وتزرق عيناه، ويقول عند ذلك: يا ليتني لم أوت كتابيه. نثر اللآلي: ص ٢٥٤.

المسألة الرابعة: السؤال:

المراد بالسؤال هو محاسبة الله عباده في المحشر، وهذا قد ثبت بالأدلة القطعية من الكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين.

أما الكتاب: فقد وردت آيات كثيرة تدلُّ على وقوعه لا محالة إلا من شاء الله فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وإلى غير ذلك.

وأما السُّنة: فهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص:

منها قوله ﷺ: «لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسأَل عن أربعٍ: عن عمرهِ فيما أفناهُ، وعنْ جسدِهِ فيما أبلاهُ، وعنِ علمهِ فيما عملَ بهِ، وعِن مالهِ منْ أينَ اكتسبَهُ وفيما أنفقَهُ»[(١)].

ومنها ما أخرجه الشيخان: عن ابن عمر ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله يدني المؤمنَ حتى يَضعَ كَنَفَهُ عليهِ ويستَرَهُ من الناسِ ويُقَرِّرَهُ بذنوبهِ ويقولُ لهُ: أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ فيقولُ: ربِّ أعرفُ، حتى إذا قرّرَهُ بذنوبه ورأى في نفسِهِ أنهُ قد هلك قال: إني قد سترتها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرُها لك اليومَ، ثمَّ يُعطى كِتابَ حسناتِهِ، وأما الكفّارُ والمنافقونَ فيقولُ الأشهادُ: هؤلاءِ الذينَ كذبوا على ربّهم ألا لعنةُ الله على الظالمين»[(٢)].

إلى غير ذلك من الأحاديث[(٣)].

---

(١) معجم الطبراني الأوسط: ٥/ ٧٤ رقم: (٤٧١٠).

(٢) متفق عليه يلاحظ مشكاة المصابيح: ٣/ ٦٢.

(٣) من ذلك ما روته عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، =

المسألة الخامسة: الحوض:

الذي يبدو من اختلاف الروايات في مكان الحوض هل هو في الموقف أو في الجنة؟ إنَّ هناك حوضين.

- أحدهما: في الموقف.
- والثاني: في الجنة.

والدليل على وجوده قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وأَصْل الكوثر: الخير الكثير، وقد أطلق على الحوض الخاص برسول الله ﷺ.

وقوله ﷺ فيه: «حوضي مسيرةُ شَهرٍ، وَزواياهُ سواءٌ، وماؤُهُ أبيضُ من اللَّبنِ، وريحُهُ أطيبُ من المسكِ، وكِيزانُهُ أكثرُ من نجومِ السَّماءِ، مَنْ شَرِبَ منهُ فلا يظمأُ أبدا»[1]، وتناول الشرب منه خاص بالمؤمنين دون غيرهم.

المسألة السادسة: الصراط:

هو الجسر الممدود على ظهر جهنم، أدقُّ من الشَّعرة، وأحَدُّ من السيف، يعبره أهل الجنة، وتزلُّ به أقدام أهل النار.

قال تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ «أن أناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تُضارُّون في القمر ليلةَ البدر ليس دونهُ سَحابٌ؟ -إلى أن قال-: وَيَضرِبُ اللهُ جسْرَ جَهَنَّمَ فأكون أنا وأمتي أولَ مَنْ يَجيزُ، ودعاءُ الرُّسَلِ يومئذٍ اللهمَّ سلّمْ سَلّمْ، وبهِ كلاليبُ مثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ، أمَا رَأيتم شَوْكَ السَّعْدانِ؟[2]،

= قلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: (إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب فقد هلك) متفق عليه، انظر المصدر السابق.

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، رقم: (٢٢٩٢).

(٢) نبت ذو شوك عظيم.

قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فَإنها مثلُ شوكِ السَّعْدانِ غَيْرَ أنها لا يَعلمُ قَدْرَ عِظَمها إلا الله جلَّ جلالُهُ، فَتخطَفُ النَّاسَ بأعمالِهِمْ منهم المُوبقُ بعَمَلِهِ ومنهم المُخَردِلُ ثمَّ ينجو»[1].

وقد أنكره بعض المعتزلة؛ إذ قالوا: إنه بهذه الصفة لا يمكن العبور عليه، وإن أمكن ففيه تعذيب للمؤمنين.

وقد أوَّلوا الآية بأنَّ المراد: فاهدوهم إلى الطريق الذي يوصل إلى النار.

ويجاب عن هذا:

بأن الله يجعل عبوره سهلاً على المؤمنين، إذ منهم من يعبره كالبرق الخاطف، ومنهم كالرِّيح المرسلة، ومنهم كالجواد، ومنهم من تسرح رجلاه في النار وتتعلق به يداه، ومنهم من يراه كالوادي الواسع.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، أي النار، فورودها بالنسبة للمؤمنين مرورهم على الصراط فوقها، وأما ما أولوا به الآية فبعيد إذ أن النار هناك أمامهم، فلا حاجة لهم إلى من يهديهم إلى طريقها.

المسألة السابعة: الجنة والنار:

في هذه المسألة نقطتان:

- **إحداهما:** هل تفنى الجنَّة والنَّار وأهلها أو يبقون؟
- **ثانيها:** هل هما مخلوقتان الآن، أو تخلقان يوم القيامة؟

النقطة الأولى:

الجنَّة: هي دار النعيم يدخلها المؤمنون، ويخلدون فيها أبداً ليس فيها حرٌّ ولا بردٌ ولا مرضٌ ولا حاجةٌ ولا موتٌ، وهي لا تفنى ولا يفنى أهلها قال تعالى -في حق المؤمنين-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢]، وقال تعالى:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب فضل السجود، رقم: (٧٧٣)، ومعنى المخردل أي المقطع أي تارة تعود وتارة ترفع حتى يصل في نهايتها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]، وغير ذلك من الآيات الدَّالة على بقاء الجنة وخلود أهلها.

والنَّار: هي دار العقاب يدخلها الكافرون، ويخلدون فيها أبداً قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البينة: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ومن ذلك ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صارَ أهلُ الجنّةِ وأهل النار جيءَ بالموت حتّى يُجْعَلَ بينَ الجنةِ والنار، ثمَّ يُذبَحُ، ثمّ يُنادي مُنادٍ يا أهلَ الجنةِ لا موتَ، ويا أهل النار لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنّةِ فرحاً إلى فرحهِم ويزدادُ أهلُ النّار حُزناً إلى حزنهمْ»[١]، أما عصاة المؤمنين فإنهم يدخلون النار ويعذبون فيها على قدر معصيتهم ثم يخرجون منها إلى الجنة.

فقد روي أنه ﷺ قال: «يَخرُجُ من النار من كانَ في قلبهِ مثقالُ ذرة من الإيمانِ»[٢].

وقد أخرج الطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أناسا من أمتي يُعذّبونَ بذُنوبهم فيكونونَ في النار ما شاءَ الله أنْ يكونوا ثمَّ يعيّرهم أهلُ الشِّركِ فيقولون ما نرى ما كُنتمْ فيه من تصديقِكُم نَفعَكُمْ فلا يَبقى مُوحدٌ إلا أخرجَهُ اللهُ منَ النار» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾[٣].

وقد أنكر جماعة كون الجنة والنار حِسِّيَّين وادَّعَوا بأنَّ المراد بالجنة الواردة بالأدلة ما فيه ارتياح تطوف فيه النفس والروح، والمراد بالنار ما فيه تعب وإزعاج تعانيه النفس والروح.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: ١٠/١٩٨، رقم: (٥٩٩٣).

(٢) سنن الترمذي، صفة جهنم، رقم: (٢٥٩٨).

(٣) يلاحظ بمعناه تفسير ابن كثير: ٤/١٥٢ - ١٥٣، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، برقم:١١٢٠٧، والطبراني في الأوسط، برقم:٥١٤٦ عن جابر بن عبد الله.

ويجاب عن هذا:

بأنَّه مخالف لظاهر النصوص الشَّرعية، وأنه منافٍ للمعاد الجسماني، وقد ثبت فيما مضى إعادة الجسم والروح معاً، ثم إنه قد ورد في ألفاظ الآيات ما يدل على أن الجنة والنار محسوستان من ذلك قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-١٦]، وقوله أيضاً: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٤]، وقوله في حق أهل النار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٦٥]، فنضجان الجلود لا يكون إلا بالنار الحسية.

وغير ذلك من الأدلة.

وقد أنكرت الجهمية[1]، استمرار الجنة والنار وبقاءهما:

قالوا: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، واستمتع أهل الجنة بقدر أعمالهم وأهل النار أذاقهم الله العذاب بقدر أعمالهم وكفرهم، أفنى الله الجنة والنار وأهليهما.

واحتجوا لذلك بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] ولا يكون آخراً إلا إذا فني أهل الجنة وأهل النار؛ ليبقى آخراً.

٢- بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا

---

(١) الجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان الراسبي، وكنيته أبو محرز، ويعرف بالترمذي والسمرقندي، كان كاتباً للحارث بن سريج عظيم الأزد بخراسان، والذي خرج على الدولة الأموية في أواخر أيامها، فقتله سليم بن أحوز المازني سنة(١٢٨هـ)، بأمر من والي خراسان نصر بن سيار، الفرق بين الفرق: ص١٢٨.

﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٨]، فالاستثناء في الآيتين من الخلود، وهذا يدل على أن بعض من يدخل الجنة لا يخلَّد إذ قال إلا ما شاء ربك.

٣- إن الإحراق بالنار ينفي الرطوبة والبنية، وهما شرط الحياة، فبقاء الحياة مع الاحتراق خروج عن العقل.

ويجاب على ذلك:

بأن هذا الإدعاء مخالف لما تقدم من الآيات والأحاديث الدالة على بقاء الجنة والنار وأهلها.

وعن الآية الأولى: بأنَّ المراد بالآخر بالنسبة للبقاء في الدنيا.

وعن الآية الثانية: بأن الاستثناء يكون فيها من قوله سُعِدوا وشقوا، لا من الخلود، أي أن أهل الشقاوة مخلَّدون في النار إلا من شاء الله أن لا يخلده كعصاة المؤمنين وأنَّ أهل السَّعادة هم في الجنة إلا من شاء الله تعذيبه منهم لفترة فإنَّه يعذب ويخرج[1].

وعن الدليل الثالث: أنه ما دامت حياتهم بخلق الله، فإنَّه قادر على أن يخلقهم بدون رطوبة وبدون بنية تفنيها النار.

النقطة الثانية:

ذهب أهل الحق إلى: أنَّ الجنة والنَّار مخلوقتان وهما موجودتان الآن وذهب أكثر المعتزلة إلى أنها يخلقان يوم القيامة.

واستدلَّ الأولون بما يأتي:

١- بقصة سيدنا آدم وحواء؛ حيث اسكنهما الله الجنة وأخرجهما منها، وهذا دليل على أنَّ الجنة موجودة الآن.

---

(١) والتعبير بما في الآية التي هي لغير العاقل، ولم يأت بمن التي هي للعاقل؛ لملاحظة العدد لا الأشخاص، والعدد غير عاقل.

٢- ظاهر الآيات الدالة على إعدادها وتهيئتها، مثل قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ قد أتى بالفعل بلفظ الماضي.

٣- ويمكن الاستدلال على وجودها بقصة حبيب النجار حينما قتله قومه؛ إذ قال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۞ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ٢٥-٢٧]، إذ قيل له: ادخل الجنة بعد قتله وهذا دليل على وجودها.

٤- هناك حديث يدل على أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة، وهو ما رواه عبد الله بن مسعود مرفوعاً أنه قد سئل عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحُهُم في جوف طَير خُضرٍ لها قناديلٌ معلّقةٌ بالعرشِ تَسرَحُ في الجنةِ حيثُ شاءتْ ثم تأوي إلى تلك القناديل... الحديث[1].

واستدل الآخرون بما يأتي:

١- أن الله وصف أَكْل الجنَّة بأنه دائم بقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ فلو كانت موجودة؛ للزم هلاك أكلها إذ يقول تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ وهلاكه يتنافى مع الدوام المذكور في الآية السابقة، إذن فهي ليست موجودة الآن.

ويمكن أن يجاب عن هذا:

بأنه لا تنافي بين الآيتين لما يأتي:

أ- إنَّ المراد بدوام الأكل عدم انقطاعه بالكلية بأن يذهب ويخلفه غيره، أما دوام أكل بعينه فلا يعقل، وإلا لما سمي أكلاً، وهذا لا ينافي شموله بالهلاك إذ كل أكل يهلك ولو لحظة.

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، رقم:(١٨٨٧).

ب- إن هلاك الشيء لا يستلزم فناءه، بل قد يُطلق على الشيء إذا خرج عن حد الانتفاع به: إنه هالك، ولو كان موجوداً كدار خربة يقال لها: هالكة، ولا يقال: فانية، وقد يكون هلاك أكل أهل الجنة من هذا القبيل.

ج- يمكن أن يُراد بالهلاك الإمكان الذاتي، أي كل شيء قابل للهلاك ولو لم يهلك فعلاً، فهو بمنزلة العدم إلا الله تعالى.

واستدلوا أيضاً:

٢- بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

وجه استدلالهم بها:

أنه تعالى قال: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ وهو مستقبل فيكون المعنى نجعلها في الآخرة.

ويجاب عن ذلك:

بأنَّ (نجعل) فعلٌ مضارعٌ يحتمل الحال والاستمرار والاستقبال، وما دام هذا الاحتمال موجوداً، فلا يجوز حمله على المستقبل فقط.

ويمكن أن يُفَسَّر بمعنى التمليك والتخصيص لا الخلق.

٣- وقد أجابوا عن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ بأن المراد بها التعبير بالماضي عن المستقبل أي (تُعَدُّ) وعبر به لتحقق الوقوع، مثل: (نفخ في الصور) أي ينفخ.

ويرد على هذا بأنَّ حمله على الماضي أولى من العدول به عن ظاهره، ما دام أنَّ قصة آدم تدل على ذلك.

أين مكان الجنة؟

الأكثرون على أنَّ مكانها الآن فوق السماوات السبع وتحت العرش وذلك بإشارة قوله ﷺ: «في الجنةِ مائةُ درجةٍ ما بينَ كلّ درجتينِ كما بينَ السّماءِ والأرضِ والفردوسُ

أعلاها درجة ومنها تفَجّرُ أنهارُ الجنّةِ الأربعةُ ومِنْ فوقِها يكونُ العرشُ فإذا سألتمُ اللهَ فسَلُوهُ الفردَوْس»[١].

وقيل في السماء الرابعة وقيل غير ذلك.

أما النَّار فتحت الأرضين السبع، والأَولى القول بأن محلَّها بمكان لا يعلمه إلا الله[٢].

(١) سنن الترمذي، صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، رقم: (٢٥٣١).

(٢) لاحظ في جميع ذلك نثر اللآلي: ص٦٩ - ٧٧ و ٢٧٥ - ٢٧٧، شرح رمضان: ص ٣٣٣ - ٣٣٦.

ص: وَالْكَبِيرةُ لاَ تُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الإيْمَانِ، ولا تُدْخِلُهُ فِي الكُفْرِ.

بحث الكبيرة

الخلاف مع الخوارج ومع المعتزلة:

ش: المفردات

الكبيرة[1]: يراد بها عند الإطلاق: الكفر، إذ لا ذنب أكبر منه.

الكبيرة: بالجملة المراد بها المعصية دون الكفر.

لا تخرج المؤمن: أي لا تجعله متخلياً عن الإيمان ولا يوصف بالكفر.

الشرح الإجمالي:

اختلف المسلمون في مرتكب الكبيرة غير أهل الكفر هل هو مؤمن، أو كافر، أو منزلة بين المنزلتين؟

فذهب أهل الحق:

إلى أنَّه مؤمن غيرُ خارج بعملها عن الإيمان، ولا داخل في الكفر، إلا أن يكون قد عملها مستحلاً لها أو مستخِفًّا في مشروعية النَّهي عنها، أو ترك الواجب مستخفاً في مشروعية الأمر به، فإنه مرتد وكافر.

---

(١) اختلف في الكبيرة، فقيل: كل ما كان في فعله مفسدة، وقيل: كل ما توعد عليه الشارع، وقيل: إنَّ كل معصية كبيرة بالنسبة للأقل منها ضرراً وصغيرة بالنسبة للأكثر منها ضرراً، ومن الكبائر: الكفر: وهو أعظمها، وقتل النفس بغير حق، وقذف المحصنة، والزنا، والفرار يوم الزحف، والسحر، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، والصغيرة في الحرم، والسرقة، وشرب الخمر، وأكل الربا.

واستدلوا على مذهبهم بما يأتي:

١- قالوا: إنَّ حقيقة الإيمان: هو التصديق القلبي، فإذا عمل المؤمن المعصية وقلبه لا يزال مصدِّقاً فإنه يبقى متصفاً به[١].

٢- بإطلاق لفظ الإيمان على من عمل الكبائر والذنوب، منها قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، والقصاص لا يكتب إلا على قاتل النفس المحرَّمة عمداً.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، والتوبة لا تكون إلا عن معصية.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [الحجرات: ٩]، والاقتتال بين المسلمين من الكبائر ومع ذلك سماهم بالمؤمنين.

ومنها قوله ﷺ: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دَخَل الجنةَ، فقالَ أبوُ ذَرّ: وإنْ زَنى وإنْ سرقَ؟ قال رسولُ الله ﷺ: وإنْ زَنَىَ وَإنْ سرقَ. ثمَّ قالَ: وإنْ زنى وَإن سرقَ؟ قالَ: وَإنْ زَنَىَ وإنْ سَرَقَ علىَ رَغْمِ أنْفِ أبي ذَرٍّ»[٢].

٣- ومن ذلك إجماع الأمة من عصر النبي ﷺ إلى يومنا هذا على الصلاة على من مات من أهل القبلة ولو لم يتب، فلو كان كافراً؛ لما جازت الصلاة عليه والاستغفار له[٣].

---

(١) فإن قيل: على هذا يلزم أن من تلفظ بالكفر أو عمل عملًا يكفره كأنْ سجد لصنم، أو ألقى المصحف في القاذورات، أو نحو ذلك، لا يلزم تكفيره إلا أن يبدو لنا إنكاره القلبي ورجوعه عن الاقرار.
قلنا: إن عَمَله أو تلفظه هذا أَمارةٌ من إمارات الإنكار، ولهذا يحكم بكفره.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار، رقم: (٩٤).

(٣) أخرج الطبراني في الكبير بمعناه وهو قوله ﷺ: (صلوا على من قال لا إله إلا الله وصلوا وراء من قال لا إله إلا الله) ١٢/ ٣٤٢.

وذهبت الخوارج[1]:

إلى أنه كافرٌ؛ إذ لا واسطة بين الكفر والإيمان، وأن مرتكب الكبيرة أطلق عليه الكفر في ظواهر النصوص وأن الفاسق أريد به الكافر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، أي من لم يعمل بحكم الله.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، فقد سمى الكفر فسقاً في هذه الآية.

وقد جعله أيضاً مقابلاً للإيمان بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. إذ جعل تارك الحج كافراً، ومن ذلك قوله ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر»[2].

واحتجوا: بأنَّ العذاب هو من خصائص الكافرين فإن عُذِّبَ مرتكِبُ الكبيرة فإنّما لكفره بارتكابها لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٥-١٦]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، وإلى غير ذلك من النصوص الدالة على كفر مرتكب الكبيرة.

---

(١) اسم لفرقة سياسية دينية خرجت عن الناس أو عن الحق أو عن طاعة سيدنا علي كرم الله وجهه وهم يدعون أن سبب التسمية بذلك مأخوذ من الخروج في سبيل الله ويسمون بالحرورية نسبة إلى (حروراء) قرية بظاهر الكوفة اجتمعوا فيها بعد خروجهم من جيش علي في معركة صفين.
ويسمون (المُحَكمة) لأنهم لم يرتضوا بالتحكيم وقالوا لا حكم إلا لله ويسمون (بالشراة) جمع شار لأنهم يقولون شرينا أنفسنا لدين الله ويسمون (بالمارقة) لأنهم مرقوا عن جماعة المسلمين.

(٢) المعجم الأوسط: ٣/ ٣٤٣، رقم: (٣٣٤٨).

ويجاب عن ذلك:

بأنَّ الكفر في الآية الأولى يكون إذا استحل الحكم بغير ما أنزل الله، وهذا لا خلاف في كفره، وكذا يحمل حديث ترك الصلاة وآية الحج[1]، وأنَّ المراد بالفسق في الثانية وفي الثالثة الكفر؛ لأَنَّهُ من أعظَم الفسق.

وعن الخلود في آية القتل بأن المراد به المكث الطويل لا البقاء إلى الأبد؛ ولذا لم يقل أبداً كما قال في عذاب الكافرين.

إذن فلا بدَّ من العدول عن ظواهر هذه النصوص؛ لتتفق مع الإجماع ومع النصوص التي تدل على أن مرتكب الكبيرة مؤمن.

وذهبت المعتزلة:

إلى أنه يكون فاسقاً لا مؤمناً ولا كافراً، بل منزلة بين المنزلتين.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- قالوا: اتفق الكلُّ على تسمية مرتكب الكبيرة فاسقاً، واختلفوا في هل أنه مؤمن وهو مذهب أهل السنة، أو كافر وهو مذهب الخوارج، فأخذنا بالمتفق عليه وتركنا المختلف فيه، وقلنا: هو فاسق وليس بمؤمن ولا كافر.

ويجاب عن هذا:

بأن الأمة قد أجمعت على وجود نوعين: كافر ومؤمن، فإحداث نوع ثالث فيه خروج عن هذا الإجماع.

٢- قالوا: إنه ليس بمؤمن؛ إذ قد جعل الله الفسق مقابلاً للإيمان، بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾ وأن النبي ﷺ قد نفى الإيمان عن مرتكب الكبيرة، فقال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[2]، وقوله ﷺ: «لا إيمان لمنْ لا أمانةَ لهُ»[3].

---

(١) أو أنه من باب الترهيب والتخويف.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن، رقم: (٢٦٢٥).

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ١٩ / ٣٧٦، رقم: (١٢٣٨٣).

وليس هو بكافر؛ لأنَّ الأمة كانوا يصلُّون عليه، ويدفنونه مع المسلمين، ولا يقتلونه، ويجرون عليه أحكام المرتد، فهو إذن ما بين الكفر والإيمان.

ويجاب عن الآية:

بأنَّ المراد بالفسق هنا الكفر؛ لأنَّهُ أعظم الفسق؛ لذا جعل مقابل الإيمان، وعن الحديث الأول بأنَّ المراد نفي الإيمان عنه حال وقوعه في الزنى إذ لو اتصف بالإيمان وأيقن بأنَّ الله سيغضب عليه، ويعاقبه لما ارتكب هذا المنكر.

وعن الحديث الثاني: بأنه قد انتفى عنه الإيمان الكامل أي لا إيمان كاملاً، أو من باب الترهيب والتغليظ بدليل حديث أبي ذر السابق إذ قد نص على أن الزاني والسارق يدخلان الجنة.

ص: والله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَـاءُ، وَيَجُوزُ العِقَابُ عَلَى الصَّغِيرَةِ والعَفْوُ عَنِ الكَبِيرةِ إذا لمْ تكنْ عن اسْتِحلالٍ، والاسْتحْلالُ كُفْرٌ.

العفو عن المذنبين

ش: المفردات

الشِّرك: هو أن يُجْعَل مع الله إلهاً آخر.

والمراد هنا الكفر بأنواعه الآتية وهي:

١- الكافر – من لا إيمان له.

٢- المنافق – من أَظهر الإيمان وأَضمر الكفر.

٣- المرتد – من كفر بعد إيمانه.

٤- المشرك – من يقول بإلهين فأكثر.

٥- الكتابي – هو من دان بدين غير الإسلام.

٦- الدهري – هو من قال بقدم الدهر وأَسند الحوادث إليه.

٧- الزنديق – من اعترف بالنبوة وقال بقدم الدهر[1]. وأَسند الحوادث إليه.

٨- الملحد – هو من أنكر وجود الله.

الاستحلال – هو اعتقاد حل المحرم وإباحة الفرض.

الشرح الإجمالي:

أجمع المسلمون على أن جريمة الكفر إذا مات الإنسان عليها لا تغفر له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية، وعللوا ذلك بما يأتي:

(١) يلاحظ شرح رمضان: ص٢٤٤.

١- إنَّ الكفر نهاية في الجناية لا تحتمل الإباحة ورفع الحرمة أصلاً ،فلا تحتمل العفو ورفع الغرامة.

٢- إن الكافر يعتقد أن كفره حقٌّ فلا يطلب العفو عنه.

٣- إن الكافر ينوي البقاء على كفره ولو بقي أبداً، فلا بد أن يلقى جزاء مشبهاً لنيته إذ الجزاء من جنس العمل.

أما ما دون الكفر من الذنوب[1]، فقد اختلف المسلمون في العفو عنها إلى مذهبين:

الأول: مذهب أهل الحق:

قالوا: يجوز أن يغفر الله لمن يشاء ما عمله من الذنوب الصغائر والكبائر ولو لم يَتُب فاعلها.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وكل ذنب دون الكفر داخل في احتمال المغفرة والعفو، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

---

(١) الذنوب على ثلاثة أوجه:

ذنب فيما بين العبد وبين الله تعالى: كالزنى، واللواطة، والخمر، فهذا داخل في رجاء العفو أو التوبة.

ذنب فيما بين العبد وبين الأعمال: كأَنْ يترك الصلاة والصيام والزكاة والحج، فهذا لا بدَّ من التوبة وقضاء ما بذمته منها.

ذنب بين العبد وبين عباد الله: كالغصبِ والسَّرقة والغيبة، فلا بدَّ لصحة التوبة من استرضاء أهل هذه الحقوق، وقد سئل الإمام علي رضي الله عنه عن التوبة، فقال:

هي اسم يقع على ست معان:

١. على الماضي من الذنوب – الندامة.
٢. ولتضييع الفرائض.
٣. وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية.
٤. وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية.
٥. والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.
٦. ورد المظالم لأهلها.

شرح رمضان: ص٣٤٥ – ٣٤٦.

والثاني: مذهب المعتزلة:

قالوا: إن الله يغفر الصغائر أو الكبائر المقرونة بالتوبة، ولا يغفر الكبائر بدون توبة العبد.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١ - بالآيات والأحاديث الواردة في عذاب العصاة، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الإنفطار: ١٤] وغيرهما من النصوص.

ويجاب عن هذا:

بأن هذه ونحوها تدلُّ على وقوع العذاب لا وجوب وقوعه، ومع ذلك فيمكن تخصيص عمومها بمن عفى الله عنه واقتصارها على من لم يرد الله العفو عنه.

٢ - واستدلوا أيضاً: بأن في هذا فسح مجال لأهل الموبقات؛ إذ القول بهذا إقرار محض له على الاستمرار في الذنب، وهذا أمر يتنافى مع آيات الزجر.

ويجاب عن هذا:

بأنَّ جواز العفو لا يستلزم وقوعه لا محالة، إذ أنَّ الغالب وقوع التعذيب، وأن العفو محضُ احتمال فضل الله وكرمه، فلا يؤدي ذلك إلى التمادي والاستمرار على المعصية.

وما دام العفو عن المعصية محضُ فضل الله تعالى فيجوز أن يعذِّبَ على الصغيرة ويعفو عن الكبيرة، إذ يقول الله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وإحصاء الصغيرة ليس إلا للسؤال عليها.

وقد ذهب بعض المعتزلة:

إلى أنه إذا اجتنب الكبيرة لم يجز تعذيبه على الصغيرة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، والسيئات هنا يراد بها الصغائر؛ لأنها جعلت مقابل الكبائر.

ويجاب عن هذا:

بأنَّ المراد بالكبائر هنا الكفر بأنواعه[1]، إذ الكافر إذا أسلم غُفِرَ له جميع ذنوبه؛ لأنَّ الإسلام يجب ما قبله، وهذا إذا لم يكن مرتكبها مستحلاً لفعلها.

أما المستحل لفعل المعاصي أو ترك الفرائض فإنْ ثبتت الفرضية أو التحريم بالدليل القطعي[2] وأنكر ذلك فهو كافرٌ، وإن بدليل ظني فهو فاسق.

---

(١) وقد جاء بلفظ الجمع لأن الكفر أنواع أو لأنه أراد أفراد الكفر الموجودة في أفراد الكافرين.

(٢) هو ما ورد بنص القرآن أو بالسنة المتواترة أو المشهورة المستفيضة.

ص: والشَّفَاعَةُ ثابِتةٌ للرُسُلِ والأَخْيَارِ في حَقِّ أهْلِ الكَبَائِر.



الشفاعة

ش: المفردات

الشفاعة: هي التوسط بين اثنين.

الأخيار: هم الأنبياء والعلماء والصالحون.

الشرح الإجمالي:

أي أنَّه قد ثبت بالأخبار المستفيضة أنَّ الله سيأذن لأهل الخير من الأنبياء والصالحين في التوسط لأهل الكبائر من المسلمين؛ لإنقاذهم من العقاب يوم القيامة.

وفي هذا اختلف العلماء إلى مذهبين:

أولاً- مذهب أهل الحق:

قالوا: بأن الشَّفاعة ثابتة يوم القيامة.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩]، واستغفار النبي ﷺ للمؤمنين شفاعة لهم.

٢- بقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٣- وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وهي تدل على وجود الشفاعة لغير الكافرين وإلا لما كان لنفيها عنهم معنى في مقام ذمهم وتقبيح حالهم.

٤- وقوله ﷺ «شَفَاعَتِي لأهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أمَّتِي»[١].

---

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم: (٢٤٣٥).

ثانياً- مذهب المعتزلة والخوارج:

قالوا: لا توجد شفاعة في العفو عن المعاصي؛ لأنَّ الكبائر لا تفيد فيها الشفاعة بل لا بدَّ من توبة فاعلها، والصغائر يجب على الله العفو عنها إن اجتنبت الكبائر فلا موجب للشفاعة، وأما عند الخوارج فإنَّه كافر كما تقدم.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

٢- وبقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

ويجاب عن الآية الأولى:

أنها نزلت في حق اليهود وهم كفار؛ إذ قالوا: نحن أبناء إبراهيم وأحباؤه فلا نعذَّبَ لأجله، وعن الثانية: بأنَّ المراد بالظالمين الكافرون؛ لأنَّ الظلم إذا أطلق أريد به الكفر؛ لأَنَّهُ الكامل عند الإطلاق.

وقد أولوا الآيات التي استدل بها أهل الحق بأن المراد بها الشفاعة لزيادة الثواب.

ونقول: هذا مخالف للنصوص الدالة على الشفاعة، إذ أنها دالة على العفو عن المعصية لا لزيادة الثواب.

ص: وَأَهْلُ الكَبَائِرِ مِنَ المُؤمِنِينَ لاَ يُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ.

الشرح:

تقدم أنَّ عقيدة أهل السنة والجماعة: أنَّ مرتكب الكبيرة هو مؤمنٌ، وعلى هذا الأساس فإنَّه إن أدخل النارَ؛ ليعذَّب على قدر ذنوبه فلا بدَّ من أن يخرج إلى الجنة.

والدليل على ذلك:

ما جاء من النصوص الدالة على تخليد المؤمن في الجنة أو دخوله الجنة أو مجازات أهل الخير بالخير.

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[1].

ولا شك أن الإيمان من جملة عمل الخير فلا بدَّ من أن يرى ثوابه، ولا يمكن ذلك مع تخليده في النار.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ٧٢]، ومن عمل الكبيرة فهو من جملة المؤمنين فلا بدَّ من أن يدخل الجنة بموجب وعده تعالى.

ثم إن تخليد المؤمن في النار زيادة في جزائه إذ الخلود أعظم عقاب وحينئذ لم يبق فرق بين الكافر والمؤمن العاصي في العذاب، وهذا لا يعقل.

---

(١) الخير يطلق على معان منها:

على المال كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، أي مالاً.

على الإيمان كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، أي إيماناً.

على الأفضل كقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، أي أفضل.

على العافية كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾، أي بعافية.

على الأجر كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أي أجر.

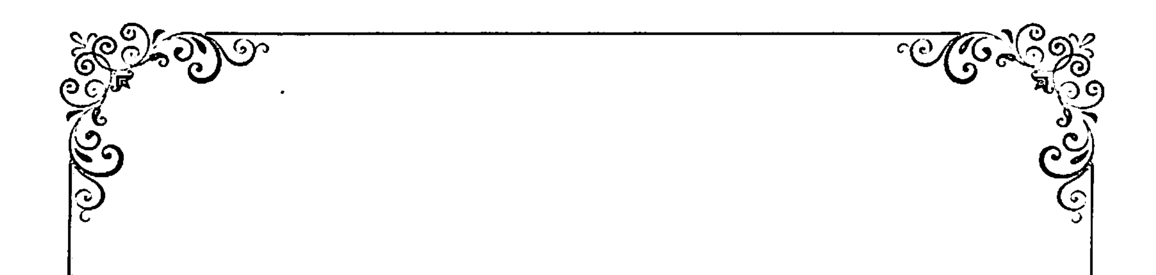
شرح رمضان: ص ٢٥٣.

أما المعتزلة والخوارج:

فإنَّهم يقولون: إنَّ من يدخل في النار إما كافر أو صاحب كبيرة مات على غير توبة، وكلاهما من أهل الخلود في النار.

أما الكافر فبالإجماع:

وأما صاحب الكبيرة فلما تقدم من أدلتهم أنه غير مؤمن وقد تقدم ردنا عليهم فيما سبق.



الفصل الرابع

الإيمـــــــان

ويتضمن أربعة مباحث:

١. المبحث الأول: تفسير الإيمان.

٢. المبحث الثاني: هل يزيد وينقص؟

٣. المبحث الثالث: هل الإسلام والإيمان واحد؟

٤. المبحث الرابع: خاتمة الإنسان في الدنيا.



ص: والإيمانُ: هُوَ التَّصْدِيقُ بِمَا جَاء بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِ الله تَعَالَى، والإِقْرَارُ بِهِ. أَمَّا الأَعْمَالُ فَهِيَ تَتَزَايَدُ فِي نَفْسِها، والإيمانُ لا يزيدُ ولا ينقُصُ، والإيمانُ والإسلامُ واحِـدٌ، وإذا وُجِدَ مِنْ العَبْدِ التَّصدِيقُ والإقـرارُ صَحَّ لَهُ أَنْ يَقولَ: أَنَا مُؤمنٌ حَقّاً، ولا ينبغي أَنْ يَقْولَ: أَنا مُؤمنٌ إنْ شَاء الله تعالى.

الإيمان والإسلام

ش: المفردات

الإيمان في اللغة: التصديق والإذعان.

الإسلام في اللغة: الانقياد والخضوع.

الشرح الإجمالي:

في هذا الموضوع ثلاثة أبحاث هي:

١- هل يكفي إذعان القلب بدون الإقرار باللسان؟

٢- هل الأعمال لها أثر في زيادة الإيمان ونقصانه؟

٣- هل الإسلام هو نفس الإيمان أو غيره؟.

المبحث الأول

﴿ ما هو الإيمان ﴾

١- ذهب جمهور المحققين إلى أنه هو التصديق بالجنان[1].

أما الإقرار باللسان: فهو شرط لإجراء الأحكام في الدنيا، إذ هو دالٌّ على إيمانه فقط.

ويترتب على هذا: أنَّ من آمن بقلبه ولم يقر بلسانه فإنَّه مؤمنٌ عند الله تعالى ويعامل معاملة الكافر في أحكام الدنيا، ومن أقرَّ بلسانه ولم يؤمن بقلبه فهو كافر عند الله وتجري عليه أحكام المسلم في الدنيا – وهو المنافق.

وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي، والإمام أبو حنيفة، والمحققون من الأشاعرة كالقاضي والأستاذ.

٢- ذهب بعض العلماء إلى أنه التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، وهو رأي أكثر المحققين واختاره فخر الإسلام البزدوي، والإمام السرخسي، وبه قال الاشعري، وهو الحق.

٣- وذهب الآخرون إلى أنَّه تصديق في الجنان، وإقرار باللسان، والعمل بالأركان، وهؤلاء اختلفوا:

فالمعتزلة والخوارج قالوا: الأعمال ركن أساسي في الإيمان؛ لأنَّ عندهم من ترك ركناً من أركان الإسلام أو عمل كبيرة فهو كافرٌ أو ليس بمؤمن.

أما جمهور المتكلمين والمحدثين والفقهاء ونقل عن الشافعي أيضاً: فإنَّهم اعتبروا الأعمال ركناً للإيمان الكامل لا لأصل الإيمان، فعلى هذا أنَّ من ترك العمل فإيمانه ناقص ومن عمل فإيمانه كامل.

---

(١) انظر شرح النسفية للتفتازاني: ص٢٠٤.

أي تصديق النبي ﷺ بالقلب بكل ما أخبر عنه من عند الله، كالملائكة والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر، وما إلى ذلك.

الأدلـة:

استدل أصحاب الرأي الأول بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وهذا يدل على أن الإيمان موضعه القلب.

٢- بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فلو كان الإقرار ركناً للإيمان؛ لأصبح المكرَه المنكر بلسانه كافراً ولا قائل به.

٣- بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

٤- بقوله علية الصلاة والسلام: «يَا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثبِّت قَلبي على دينِكَ»[١].

٥- وأنَّ النبي ﷺ قد أنكر على أسامة حينما قتل من قال: لا إله إلا الله، وظنَّ أنه قالها خوفاً فقال له ﷺ: (هلا شققتَ عن قلبه؟)[٢].

واستدل أصحاب الرأي الثاني:

بأنَّ النبي ﷺ وأصحابه كانوا لا يقبلون إسلام أحد ما لم يقر بلسانه وينطق بالشهادة، ولو علموا أنه مؤمن بها في قلبه.

ويمكن أن يجاب عن هذا:

بأنهم كانوا يشترطون الإقرار باللسان؛ لغرض إجراء أحكام الدنيا فقط لا لصحة التصديق فيما بينه وبين الله تعالى.

واستدل أصحاب الرأي الثالث بما يأتي:

أما المعتزلة والخوارج فقد تقدم عنهم أنهم تمسكوا بالنصوص الدالة على تخليد من يعمل بالمعصية في النار أو على كفره وقد تقدم ردهم.

---

(١) سنن الترمذي، في القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم: (٢١٤٠).

(٢) المعجم الكبير: ١٨/ ٢٢٦ رقم: (١٥٢٧٢).

وأما جمهور المتكلمين والمحدثين فقد استدلوا على ذلك: بأنَّ الأعمال لها أثر في زيادة الإيمان ونقصانه، وليس ذلك إلا لكونها ركناً تكميلياً له، وكما سنذكر من الأدلة الدالة على زيادة الإيمان.

المبحث الثاني

هل الإيمان يزيد وينقص؟

من خلال ما ذكرنا من التعاريف تبيَّن أنَّ في المسألة رأيين:-

الرأي الأول:

أنَّ الإيمان يزيد وينقص، وهو رأي من اعتبر الأعمال ركناً للإيمان الكامل.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].
وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله تعالى: حاكياً قول سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فاطمئنان القلب: هو زيادة في الإيمان والاعتقاد.

واستدلوا أيضاً: بأنَّ هناك فرقاً بين إيمان النبي ﷺ وإيمان آحاد الأمة.

وبقوله ﷺ «لو وُزِنَ إيمانُ أبِي بكرٍ مَعَ إيمانِ الخَلائِقِ لَرَجَحَ إيمانُ أبِي بَكْرٍ»(١).

الرأي الثاني:

هو أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص – وهو قول من لم يجعل الأعمال من ضمن الإيمان، إذ قالوا: إنَّ التصديق القلبي إذا بلغ حدَّ الجزم والإذعان لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان.

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه، والبيهقي في الشعب بسند صحيح، عن عمر، انظر شعب الإيمان: ١/ ٦٩، رقم: (٣٦)، وكتاب تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، لابن الديبع: ص١٣٤.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- إنَّ الله تعالى قد أطلق الإيمان على من عمل المعاصي في كثير من الآيات، وهذا دليل على أنَّ الأعمال لا أثر لها في الإيمان.

٢- إنَّ الله عطف العمل على الإيمان، والعطفُ دليل المغايرة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف: ١٠٧]، وعلى هذا فالأعمال الصالحة لا تدخل في الإيمان فلا تؤثر عليه زيادة أو نقصاً.

٣- جعل الإيمان شرطاً لقبول العمل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢]، دليل على أن العمل غير الإيمان إذ المشروط لا يدخل في الشرط.

وقد أجابوا عما تقدم من الأدلة الدالة على زيادة الإيمان: بأنَّ المراد زيادة ثمرته وإشراق نور قلب المتَّصف به، فإنَّها تزداد في الطاعة وتنقص بالمعصية.

ويمكن أنْ يُجابَ عن هذه الأدلة من قبل من يقول: (بأنَّ الإيمان يزيد وينقص).

إننا إذ نقول: بأن الأعمال تزيد في الإيمان، فإنَّا لا نعني أن الأعمال هي جزء أساسي من الإيمان وبزوالها يزول، بل إنَّه جزء تكميلي فلا تقوم هذه الأدلة حجة علينا، بل على من ينفي الإيمان عمن قَصَّرَ فيها.

والحقُّ أنَّ الإيمان يقوى بقدر ما ينكشف للمسلم من آيات ربه العظمى وما يطَّلع عليه من عجائب خلقه، وتدبير كونه، وإحداث بعض الأمور التي لا يدرك وقوعها الإنسان.

وأنه يضعف بقدر ما ابتعد المسلم عن ذلك قال ﷺ: « إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ، كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ؛ فاسألوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ »[1].

(١) كنز العمال: ١/ ٤٥٨، رقم: (١٣١٣).

المبحث الثالث

﴿هل الإسلام والإيمان شيء واحد؟﴾

اختلف العلماء في ذلك إلى رأيين:

الرأي الأول:

إنَّ الإسلام والإيمان واحدٌ إذ الإسلام الخضوع والانقياد بقبول الأحكام والإذعان لها، والإيمان لا يراد به سوى ذلك، فهما وإن اختلفا من حيث المفهوم فهما مُتَّحدان من حيث الماصدق.

واستدلوا على ذلك:

بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦] وبأنَّه لا يقبل من أحد أن يكون مؤمناً وهو ليس بمسلم أو أن يكون مسلماً وليس بمؤمن.

الرأي الثاني:

هو أن الإيمان والإسلام متغايران.

واستدلوا على ذلك:

بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فقد نفى عنهم الإيمان، وأثبت لهم الإسلام، وعلى هذا فهما متغايران.

واستدلوا أيضاً بحديث جبريل حينما سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته...الخ ثم سأله عن الإسلام فقال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً

رسول الله وتقيم الصلاة...الخ»[1]. فلو لم يكونا مختلفين؛ لما سأل عن كل واحد منهما على الانفراد.

أما الرواية التي جاءت بأنه حينما سأله عن الإيمان قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة...الخ»[2] فإنما هو لبيان آثار الإيمان لا لبيان ماهيته.

ويمكن أن يجاب عن الآية:

بأنَّ الإسلام الثابت للأعراب هو الإسلام اللغوي: وهو الانقياد الظاهري. والإيمان المنفي عنهم: هو الإيمان الحقيقي الذي يساوي الإسلام بمعنى الانقياد الباطني.

ولا يخفى ما في هذا الجواب من التأويل البعيد، والذي أراه: أنَّ الإسلام والإيمان ليسا مترادفين، بل هما متغايران من حيث المعنى، وبينهما العموم والخصوص الوجهي من حيث الماصدق.

إذ يصدقان على مثل أبي بكر الصديق ﷺ، وينفرد الإسلام عن الإيمان في مثل أُبي بن سلول، وينفرد الإيمان عن الإسلام في مثل أبي طالب، وبعد أن يحصل التصديق والإقرار من الشخص حكم عليه بالإيمان والإسلام.

لذا ينبغي أن يقول: أنا مؤمن حقاً، ولا يعلِّق ذلك على مشيئة الله، بأن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله؛ لأَنَّهُ لو قصد التعليق، فهو كفر؛ إذ لا يمكن الاطلاع على مشيئة الله فيصبح تعليقاً للإيمان على شيء مجهول، وإذا أراد أن يقول ذلك تبركاً فليس بكفر، والأولى تركه.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم: (٥٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، رقم: (٥٣).

ص: والسَّعِيدُ قَدْ يشقى والشَّقيُّ قَدْ يَسْعَدُ، وَالتَّغْيِيرُ يكُونُ عَلَىَ الشَّقَاوَةِ والسَّعَادَةِ دون الإسعاد و الإشقاء، وَهُمَا مِنْ صفَاتِ الله تَعَالى، ولا تَغييرَ عَلى الله تَعَالى ولا عَلى صِفَاتِهِ.

خاتمة الإنسان

ش: المفردات

السعيد: هو مَن لازَمَ الإيمان والطاعة.

والشقي: هو مَنْ لازَمَ الكفر أو المعصية.

الإسعاد والإشقاء: صفتا تكوين لله تعالى.

الشقاوة والسعادة: صفتان للإنسان السعيد أو الشقي.

الشرح الإجمالي:

هذا الموضوع في الحقيقة من أبحاث القضاء والقدر، وقد تقدم الكلام على ذلك في بحث أفعال العباد وفي بحث تعلق الهداية والإضلال بمشيئة الله تعالى.

ولربما يبدو للقارئ وجود تنافٍ بين هذا الموضوع وبين ما ذكر سابقاً؛ لذا نوضِّح أن أمر القضاء والقدر هنا يعود إلى نفس ما ذكرناه في البحثين آنفي الذكر.

وقد جاء هذا البحث استنباطاً من حديث الرسول ﷺ حيث يقول فيه: «إنَّ أحَدَكُمْ يجمعُ خلقهُ في بطنِ أمهِ أربعينَ يوماً نطفةً، ثمُ يكونُ علقةً مثلَ ذلكِ، ثمّ يكونُ مضغةً مثلَ ذلكِ، ثم يرسل الملكُ فينفخُ فيهِ الروحَ، ويؤمرُ بأربع كلماتٍ: بكتب رزقهِ، وَأجلهِ، وَعملهِ، وشقي أو سعيدٍ، فو الذيَ لا إله غيره إنَّ احدكمْ ليعملُ بعملِ أهل الجنةِ حَتى ما يكونُ بينهُ وبينها إلا ذراعٌ فيسبقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعملِ أهل النّار

فيدخلها، وإن أَحَدَكُم ليعملُ بعملِ أَهل النّار حَتى ما يكونُ بينهُ وبينها إلا ذراع فيسبقُ عليهِ الكتابُ فيعمل بعملِ أهل الجنَةِ فَيدخلها»[1].

وفي الحقيقة أنَّ المراد بذلك: أن الإنسان يعمل أعمال الخير والسعادة ظاهراً ونفسه وباطنه ووجهته خلاف ظاهره، فهو يميل إلى الشر وإن كان ظاهره الحسنى، ومَنْ هذا شأنه لا بد أن يظهر ما في سريرته على ظاهره فينعكس أمره.

وقد يُرى الإنسان يعمل أعمال الشرِّ والسوء، وسريرته تكره ذلك، وتميل إلى الخير والعمل الصالح، ويتمنى أن يوفق للسيطرة على نزعات نفسه، فلا بدَّ أن ينعكس شأنه ويوفق للتوبة والعمل الصالح، فينعكس أمره، ومصداق هذا قوله ﷺ في رواية يرويها مسلم: «إنَّ الرّجلَ لَيعملُ عَمَلَ أهلِ الجنةِ فِيَما يبدوُ للناسِ وَهْوَ مِنْ أهلِ النَّارِ، وإنّ الرجلَ لَيعملُ عَمَلَ أهل النار فِيَما يبدوُ للناسِ وَهو مِنْ أهلِ الجنةِ»[2].

فقوله ﷺ: (فيما يبدو للناس) دليل على أنه يعمل خلاف ما في سريرته، ثم إنَّ سنة الله في الإسعاد والإشقاء جرت أن يخلق الله الإسعاد والإشقاء مطابقاً لتوجه الإنسان وقصده في مباشرة أسباب الإسعاد والإشقاء، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فمن اتجه إلى أسباب الخير يَسَّرَ الله لهُ طريق الخير، ومن اتجه إلى أسباب الشَّر يَسَّرَ الله له طريق الشر.

---

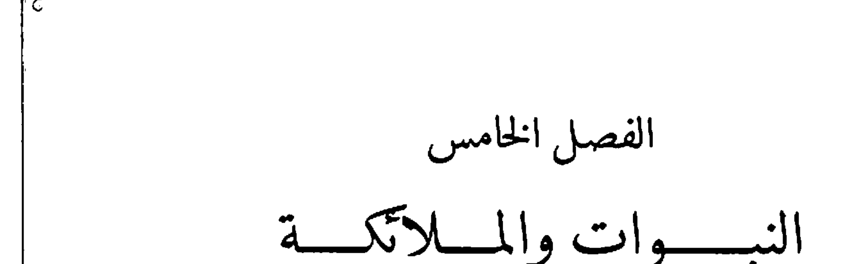
(١) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم: (٢٦٤٣).

(٢) المصدر السابق، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم: (١١٢).

ويؤيد هذا قوله ﷺ: «ما منكُمْ مِنْ نفسٍ إلا وقدْ علم منزلها مِنْ الجنةِ والنَّارِ، قالوا: يا رسولُ الله فَلِمَ نَعْملُ أفلاَ نتكلُ؟ قال: لا اعملُوا فكل ميسرٌ لِمَا خُلق لهُ، ثمّ قَرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]»[1].

(١) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم: (٢٦٤٧).





الفصل الخامس

النبـــوات والمـــلائكـــة

ويتضمن:

١ - تعريف النبي والرسول.

٢ - الحكمة من إرسال الرسل.

٣- هل يكون غير بشر وهل يكون امرأة؟

٤ - مهمة الرسل.

٥ - معجزات الرسل وكرامات الأولياء.

٦ - عددهم ومن هو أولهم وآخرهم؟

٧- ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقهم.

٨- بيان أفضلهم.

٩ - وجود الملائكة.

١٠ - إنزال الكتب على الأنبياء.

١١ - معجزة الإسراء والمعراج.



ص: وفِي إرسَالِ الرُّسُلِ حِكْمَةٌ، فَقَدْ أرسَلَ الله تعالى رُسُلاً مِنَ البَشَرِ إلَى البشَرِ مُبشِّرِينَ ومُنذرينَ مُبيِّنين للنّاسِ مَا يَحْتاجُونَ إليْهِ مِنْ أمُورِ الدُّنيَا والدِّين وأيَّدَهمْ بالمعجزَات الناقضات لِلعادَةِ.

وأولُ الأنبيَاء آدمُ وآخرهم مُحمدٌ عَليهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وَقَدْ وَرَدَ بَيَانُ عَدَدِهمْ فِيْ بَعْضِ الأَحَادِيْثِ، وَالأَوْلَى أَنْ لا يُقْتَصَرَ عَلى العَدَد فِي التَّسمِيَةِ، فَقْد قالَ الله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وَلا يُؤْمَنُ فِي ذِكْرِ العَدَدِ أَنْ يَدْخُلَ فِيْهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، أَوْ يَخْرُجَ مِنهمُ مَنْ هُو فِيْهِم.

وَكُلُّهُمْ كَانُوْا مُبَلِّغِيْنَ عَنْ اللهِ تَعَالى، صَادقِيْنَ نَاصِحِيْنَ.

وأَفْضَلُ الأَنبِياء مُحَمَّدٌ ﷺ.

النبوات

ش: المفردات

الرسل: جمعٌ مفرده رسول من الرسالة: وهي سفارة بين الله وخلقه، وقد ذكرنا تعريف الرسول والنبي في بحث الخبر الصادق.

حكمة: أي مصلحة وفائدة.

البشر: مأخوذ من البشارة والسرور، سُمِّيَ الإنسان به؛ لأَنَّهُ إذا سُرَّ ظهر ذلك على بشرته؛ أو لأَنَّهُ مكشوف البشرة دون سائر الحيوانات.

مبشرين: أهل الطاعة بالثواب والجنة.

ومنذرين: أهل المعصية بالعقاب والنار.

من أمور الدنيا: كالمبايعات، والمناكحات، والعقوبات، وسائر المعاملات الدنيوية.

أمور الدين: هي العبادات باتباع الأوامر واجتناب المناهي، والتسليم للقضاء والقدر.

المعجزة: الأمر الخارق للعادة.

الشرح الإجمالي:

تمهيد:

إن الله تعالى قد خلق الإنسان، ومنحه التكريم على سائر المخلوقات، وميَّزه بالعقل؛ ليقدر ذلك، وليعلم أنه الأصل في هذه المخلوقات، وخلق دارين الدنيا والآخرة، وجعل الأولى، دار إعداد وتهيئة وعمل فجعل لها نهاية، وجعل الثانية دار جزاء لما أعد في الأولى، فجعلها بدون نهاية؛ إذ هي المكان المعد لهذا البشر.

ولقاء ما منح الله العقل للإنسان جعله محلّاً للتكليف والاختبار في هذه الحياة، ولا بدَّ لهذا المكلف من أن يعرف المكلف به؛ لتنظيم حياته الأولى، ولتنفيذ ما جُعل وسيلة لنجاحه في الآخرة، وهذه الوسيلة على نوعين:

نوع يمكن للعقل أن يستقلَّ به كالإيمان بوجود الخالق، وكونه واحداً قادراً عليماً، وكالعلم بنفع الصدق وضر الكذب، ووجود يوم آخر لجزاء المحسن على إحسانه والمسيء بإساءته.

ونوع لا يستقل بمعرفته كأوقات الصلاة، وعدد الركعات، ووجود الجنة والنار، وتنظيم بعض المعاملات الدنيوية.

لأجل ذلك، اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل ما بين فترة وأخرى رسلاً يبينون للناس ذلك، ويؤيدون العقل فيما أدركه من النوع السابق من خير ونفع.

وعلى هذا الأساس فإنَّ الماتن-رحمه الله- قد ضَمَّنَ نصَّه ثمانية بحوث من أمور النبوات هي:

١- لماذا أرسل الرسل؟

٢- هل يمكن أن يكون الرسول من غير نوع البشر؟ وهل يكون غير رجل؟

٣- ما هي المهمة التي أُرسلَ هؤلاء الرسل من أجلها؟

٤- ما هي العلامة التي يستدل بها على صحة إرسال الرسول؟

٥- من هو أول الأنبياء ومن هو آخرهم؟

٦- هل للأنبياء والمرسلين عدد معين؟

٧- ما هو الواجب عقلاً في حقهم؟

٨- من هو أفضل الأنبياء؟

المبحث الأول

الحكمة من إرسال الرسل

بيَّنا أن الحكمة في إرسالهم: هي تبليغ الناس مما لا مجال للعقل في الاستقلال بمعرفته؛ حتى لا تقام الحجة على الله تعالى إذا أراد أن يحاسب الناس يوم القيامة؛ إذ لا يكلف الإنسان بما لا معرفة له به ويؤاخذ على تركه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرا: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

المبحث الثاني

﴿هل يكون النَّبيُّ من غير البشر؟ وهل يكون غير رجل؟﴾

لا يمكن أن يكون الرسول إلا بشراً؛ وذلك لأنَّهُ لو كان من الملائكة أو من الجنِّ لما أمكن للبشر رؤيته، والالتقاء به إلا أن يتشكل بهيئة البشر؛ إذ لا طاقة للإنس على رؤية الجنِّ أو الملك إلا عن طريق خرق العادة، بينما يمكن للملك والجنِّ رؤية البشر، وهذه هي الحكمة في إرساله من البشر.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]. وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

كما لا يكون النَّبيُّ امرأة؛ وذلك لضعف عقلها، ودينها، وبنيتها؛ ولأنَّ مبنى حالها الستر وملازمة المنزل، وكل ذلك أمور تتنافى مع الرسالة، التي مبنى حالها على رجاحة العقل وقوة الدين والبنية، والاختلاط بالناس.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣].

المبحث الثالث

بيان المهمة التي جاء من أجلها الرسل

هي كما قال تعالى: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي مبشرين من أطاع أوامر الله بالجنة ومنذرين من عصاه بالنار أو الهلاك.

ومنظمين لهم حياتهم: الاجتماعية، والاقتصادية، والصحية، والأخلاقية، والعسكرية، أما الأمور الدنيوية التي تعود إلى العادات والأعراف ولا ضرر فيها فإن الرسالة لا دخل لها بها.

وذلك كما وقع لرسول الله ﷺ حينما مر برجل يؤبِّرُ (أي يلقح النخل) فقال لو تركتموه فتركوه فصار شيصاً، وبعد معرفته ﷺ بفساده قال: «أَنْتُمْ أعلَمُ بأمرِ دُنْيَاكُمْ»، رواه مسلم[1].

وكما وقع له في غزوة بدر، حينما نزل بها فقال له الحباب: يا رسول الله أهذا منزل أنزله الله ليس لنا أن نتقدم أو نتأخر، أو الرأي والمكيدة؟ فقال: بل الرأي والمكيدة.

فبين له أن النزول على الماء أفضل، فعدل عن الرأي السابق ونزل على الماء كما أراد الحباب[2].

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، رقم: (٢٣٦٣).

(٢) الطبقات الكبرى: ٣/ ٥٦٧.

المبحث الرابع

البرهان على صحة رسالة الرسول

الرسول مبعوث الله تعالى، ولا يَسَعُنا أن نصدق إنساناً إذا ادعى أنه مرسل من قبل الله إلا أن يقع على يديه ما يدلُّ على صدقه، شريطة أن يكون ما يوقعه لا يمكن حصوله عادةً وهو ما يسمَّى (بالمعجزة)

وهي أمر خارق للعادة[1] يظهر على يد من ادعى النبوَّة عندما يتحدى، وقد وقعت المعجزات على يد المرسلين قبل رسولنا محمد ﷺ، من ذلك ما وقع لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام من قلب العصى ثعباناً، وانفجار الماء من الحجر، وانفلاق البحر، وغيرها من الآيات، وما وقع لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من إبراء الأكمه[2] والأبرص، وإحياء الموتى، وما وقع له أيضاً من نطْقِهِ في المهد.

وكما وقع لسيدنا داود من تليين الحديد بدون نار، وما وقع لسيدنا سليمان من تسخير الجنِّ والرياح حين كانت تنقل البساط إلى أي مكان يريد بمثابة الطائرة النفاثة في عصرنا هذا؛ إذ كان يسير في اليوم مسافة شهرين، وكل ذلك ذكره القرآن الكريم لا مجال لإنكاره.

وأما رسولنا محمد ﷺ فقد وقعت له المعجزات الكثيرة: منها ما نطق بها القرآن الكريم: كحادثة الإسراء والمعراج، وحادثة شق القمر، وحادثة رميه كفا من حصى على أعين المشركين في غزوة بدر.

---

(١) والعادة تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، فقد يكون الشيء خارقاً للعادة في زمان دون آخر أو في مكان دون آخر، فالمراد بكونه خارقاً للعادة في ذلك الزمان والمكان.

(٢) الأكمه الذي ولد أعمى، فإنَّ معالجته غير متوقعة البرئ، أما من يعمى بعد الولادة فمن الجائز إبراء عينيه من العمى.

ومنها ما وردت به السنَّة النبوية مما قد بلغ حدَّ التواتر: كنبع الماء من تحت أصابعه الشريفة، وسماع كلام الحصى وتسبيحه، وكلام زند الشاة المسمومة، وكحنين الجذع، وما إلى ذلك مما لا يسعنا سردها في هذا المقام، وفي مقدمة معجزاته ﷺ القرآن الكريم إذ أنه اشتمل على جانبين من الإعجاز.

- أحدهما عام: يعترف به جميع الناس.
- وثانيهما خاص: يُقَيِّمُهُ فصحاء العرب وبلغاؤهم.

أما الأول:

فوجوه إعجازه أمور عديدة:

منها استمراره وبقاؤه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وفي تشريعاته الشاملة الدقيقة الصالحة لكل زمان ومكان بخلاف معجزات سائر الأنبياء.

ومنها تحدُّثُه عن أخبار من سبق مع أمية الرَّسول ﷺ ،وعدم تعلمه، ولا اتصاله بمن يعرفها، ومنها الإخبار عن أمور مستقبلية، وقد وقع أكثرها.

وأما الثاني:

فهو ما انطوى عليه القرآن من بديع النظم الذي أدهش البلغاء والفصحاء منذ ظهوره، وإلى أن تقوم الساعة حيث لم يكن منسجماً مع النثر بأساليبه وطريقه ولا مع الشعر في بحوره وأعاريضه، بلاغة سامية وأسلوب غريب.

وأكبر دليل على عجز البلغاء عن الإتيان بسورة منه، أنهم لو تمكنوا من مقارعته باللسان لما اضطروا إلى مقارعته بالسلاح والسنان.

المبحث الخامس

من هو أول الأنبياء ومن هو آخرهم؟

مما لا شك فيه أنَّ أوّلَ نبيٍّ ظَهَرَ على وجه هذه البسيطة هو سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام.

إذ هو أبو البشر، وقد وردت آيات عديدة في سورة البقرة والأعراف وغيرها تدلُّ على تكليفه وذريته بالأمر والنهي وليس النبوة والرسالة إلا ذلك.

وأما آخرهم فهو سيدنا محمد ﷺ فهو خاتم النبيين وآخر المرسلين، ومن ادعى النبوة أو الرسالة بعده أو اعتقد أنه سيبعث نبي غيره فهو كافر.

أما نزول عيسى فإنه سينزل بشريعة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ «مَثَلي ومثلُ الأنبياءِ مِنْ قَبلِي كَمثلِ رَجلٍ بنى بيتاً فأحسَنهُ فأجْمَلَهُ إلا موضِعَ لبنةِ منْ زَاويتهِ فَجَعَلِ النّاسُ يَطوفُونَ بِهِ وَيَعجَبُونَ لَهُ وَيَقولونَ هلاَ وُضِعَتْ هذِهِ اللبِنةُ؟ فَأَنَا اللبنةُ وأنا خاتمُ النَّبيينَ» متفق عليه[1]. فإن قيل: إن هذه النصوص تدل على كونه خاتم الأنبياء وليس خاتماً للمرسلين فالجواب إنه إذا كان خاتم الأنبياء لزم أن يكون خاتم المرسلين إذ كل رسول لا بد أن يكون نبياً.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، رقم: (٢٢٨٦)، انظر مشكاة المصابيح: ٣/ ١٢٤.

المبحث السادس

هل ورد عدد في الأنبياء والمرسلين؟

حَدَّدَ بعض العلماء عدد الأنبياء بمائة وأربعة وعشرين ألف نبي، يخرج منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً.

والأَوْلى أن لا يقتصر على ذكر عدد منهم، والحديث الذي ورد في العدد يتنافى مع صريح الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقد ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين منهم[١].

---

(١) وهم آدم، إدريس، نوح، هود: صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، أيوب، ذو الكفل، موسى، هارون، سليمان، داود، إلياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، عيسى، محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، وأولوا العزم منهم خمسة (وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد).

المبحث السابع

﴿ما يجب وما يستحيلّ وما يجوز في حقهم﴾

يجب في حق الرسل عقلاً ما يأتي:

أولاً- الصدق:

إذ لو لم يصدقوا للزم الكذب في كلامه تعالى، فهم معصومون عن الكذب خصوصاً فيما يتعلق بالشرائع والأحكام ،فقد أجمعت الأمة على امتناع كذبهم عمداً، أما سهواً فكذلك ما عدا الإمام الباقلاني.

ثانياً- الأمانة:

إذ لو خانوا بفعل محرَّمٍ أو مكروهٍ؛ لانقلب المحرم أو المكروه واجباً، أو مندوباً وهما مما أمر الله بهما، والله لا يأمر بفعل المحرم والمكروه.

ثالثاً- العصمة من وقوع الذنب:

أَجمع العلماء على امتناع وقوع الكفر منهم قبل البعثة وبعدها، وكذا أَجمعوا على عدم تعمد وقوع الكبيرة من غير الكفر منهم بعد البعثة، أما الصغيرة فجوز الجمهور وقوعها إلا ما يدل على خِسَّةٍ في مقامهم الكَّريم، كسرقة شيء أقل من النصاب.

وقد خالف الجبائي وأتباعه بذلك، حيث منعوا وقوع الصغيرة منهم، هذا كلَّه بعد الوحي، أما قبله فالجمهور على عدم امتناعها منهم إذ لا دليل على المنع.

والمعتزلة منعوا وقوعها؛ لأنها تستلزم نفرة من الناس عنهم فتفوت مصلحة إرسالهم.

والحق مَنعُ ما فيه خسة أو يوجب نفرة الناس عنهم كالزنى، والكذب، والخيانة.

وعلى هذا الأساس فإنَّ جميع ما ورد عن الأنبياء فيما ظاهره معنى المعصية والذنب فإنه يُصْرَفُ عن ظاهره ويؤول[1].

أو أنه من باب المفضول ذنباً بالنسبة للأفضل، ومن هذا القبيل قول الإمام الجنيد: (حسناتُ الأبرار سَيِّئاتُ المقربين)، أو أنه وقع قبل البعثة على رأي من يجوز ذلك.

رابعاً- النباهة والفطنة وكمال العقل.

إذ هي من مستلزمات أداء الرسالة التي كُلِّفَ بها، ولو كان الرسول ناقصاً في عقله مع تكليفه بالرسالة؛ لكان ذلك متنافياً مع مبدأ الرسالة، إذ هي أعفت ناقص العقل من التكاليف، فكيف يكون الرسول مكلفاً بأداء الرسالة؟

---

(١) فمثلًا قد ورد عن سيدنا آدم قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ فيراد هنا بالعصيان مطلق المخالفة؛ إذ نهي آدم وزوجه أن يأكلا من الشجرة ليس للتحريم، بل لمصلحتهما أو أن ذلك قبل بعثه رسولاً، أو أن الله أراد أن يكون الأمر كذلك؛ ليتعلم أبناؤه طريقة التوبة والرجوع إلى الله بعد المعصية، كما رجع أبوهم وتاب واستغفر؛ ليفرق بينه وبين إبليس الذي أمره بالسجود لآدم فعصى وأصر على عصيانه؛ ليكون من باب المقارنة بين آدم وإبليس؛ ولنعتبر بهما؛ ولنختار أفضلهما قدوة لنا.
وقد ورد أيضاً في حق محمد ﷺ ما يدل على الذنب مثل قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ومثل ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فهذا يحمل على تركه الأولى والأفضل إذ أن النبي إذا ترك الأولى كان بمثابة الذنب وليس بذنب.
وأما قتل موسى للقبطي، فله محامل منها: أنه قبل البعثة، ومنها: أنه كان من الأعداء المحاربين، ومنها: أنه لم يكن قتله عمداً إذ غاية ما هنالك أنه وكزه بيده فمات، وأما ما وقع من أخوة يوسف، فالجمهور على أنهم ليسوا أنبياء، وأما ما يقال عن سيدنا داود: بأنه خطب زوجة وزيره وأمره أن يذهب إلى القتال؛ ليقتل ثم يتزوجها، وكان له تسع وتسعون زوجة قبلها، فإنه من أكاذيب اليهود، وما ورد من دخول الخصمين عليه وادعائهما بأنَّ لأحدهما تسعا وتسعين نعجة وللآخر نعجة فإنهما قد اصطنعا هذا التخاصم، إذ أنهما أتيا قاصدين اغتياله كسائر أنبياء بني إسرائيل، ودخلا عليه في غير أوقات الحكم، ولذلك لم يدخلا من الباب خشية من حراسه، بل تسورا المحراب، ولما أحسَّ بهما اصطنعا هذا العذر؛ تخلصا من العقاب، فاستغفاره وسجوده؛ لأنه ظن بهما أنهما قتلة، فتظاهرا بخلاف ذلك وليس من ذنب.

ويستحيل في حقهم أضداد ما تقدم من الصفات الأربع؛ لأنها نقائص في حقهم ومكانتهم والهدف من إرسالهم.

ويجوز في حقهم كل ما هو من العوارض البشرية: كالأكل، والشرب، والنكاح، والبيع، والشراء، والمرض، وما إلى ذلك.

المبحث الثامن

من هو أفضلهم؟

أفضلهم هو سيدنا محمد ﷺ بالإجماع؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وإذا كانت هذه الأمة خير أمة فرسولها يكون خير الرسل من باب أولى، ولولا أفضليته؛ لما صارت أمته أفضل الأمم، وقد ورد بذلك قوله ﷺ «أَنَا سَيِّد ولَدِ آدَمَ ولا فَخْرَ»[1]، والمراد بولد آدم الجنس البشري، فيشمل آدم أيضاً.

وأما ما ورد من قوله ﷺ «لا تخيِّروني على موسى»[2] فهو من باب التواضع؛ وليعلم أمته عدم التفرقة بين الأنبياء في الإيمان بهم فقط.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، رقم: (٣٦١٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الاشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي، رقم: (٢٢٨٠).

ص: والملائِكَةُ عبَادُ الله تَعَالى، عامِلونَ بأَمْرِهِ، لا يُوصَفُونَ بذُكُورةٍ ولا أُنوثَةٍ.

من المغيباتِ الملائكة

ش: المفردات

الملائكة: جمعٌ مفردَه مَلَكٌ.

الملك: مأخوذ من الألوكة وهي الرسالة؛ لأنّهم وسائط بين الله وبين الناس، وهم رسل الله إليهم أو كالرسل[1].

الملك: عَرَّفهُ أكثر المتكلمين بأنه: جسم لطيف قادر على التشكل بأشكال مختلفة، وعرفه الحكماء: بأنه جوهر مجرد مخالف للنفوس الناطقة في الحقيقة[2].

الشرح الإجمالي:

يجب الإيمانَّ بأنَّ لله ملائكةً هم أكثر خلق الله تعالى وهم لا يتناسلون؛ لذلك لا يجوز وصفهم بالذكورة والأنوثة كما وصفهم مشركو قريش، ولا يجوز اعتبارهم بنات الله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل هم عباده، ولا تجتمع الولادة والعبودية قطعاً قال تعالى:

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، أي يعجزون.

وقال أيضاً في النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) شرح رمضان: ص٢٨٥.

(٢) شرح رمضان: ص٢٨٥.

والملائكة على نوعين:

نوع واجبهم الاستغراق في عبادة الله وتقديسه وليسوا مكلفين بخدمة البشر، ولم يؤمروا بالسجود لآدم وهم العلِّيون أو العالون أو المقربون.

ونوع واجبهم خدمة الإنسان وما تتطلبه حالته، فمنهم موكل بالوحي، ومنهم يقبض الأرواح، ومنهم من يسوق السحاب، ومنهم من يصنع الثمار، ومنهم من هو موكل بالشمس، ومنهم بالقمر، ومنهم حفظة للإنسان، ومنهم كتبة، ومنهم حفظة الجنة، ومنهم حفظة النار، ولا مجال لإنكار وجودهم إذ إنكارهم كفر باتفاق المسلمين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٢٦].

والاستدلال على وجودهم من وجهين:

الوجه الأول: الاستدلال العقلي:

غاية ما يقوله منكر وجود الملائكة: أننا لا ندركهم بالحواس الخمسة؛ لأَنَّهُ لا يؤمن إلا بالمحسوسات والماديات.

والجواب: عن هذا أنه لا يلزم توقف الإيمان بوجود الشيء على إحساسه إذ كل محسوس موجود، وليس كلُّ موجودٍ محسوساً.

فجاذبية الأرض موجودة نؤمن بها ولا نحسها، والطاقة الكهربائية نؤمن بوجودها في الأسلاك ولا نحسها، وبعض الجراثيم يؤمن الطب بوجودها ولا يدركها المجهر والعقل نؤمن بوجوده ولا نحسه، بل غاية الأمر أننا نرى أثر الجاذبية وأثر الطاقة في المصباح وغيره من الآلات الكهربائية، وأثر المرض وآثار العقل، ثم إن وجودهم من الأمور الممكنة التي جوزها العقل ولا يعدها من المستحيلات.

الوجه الثاني: الاستدلال النقلي:

من الكتاب قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ويقول الرسول ﷺ في الإيمان: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء خيره وشره»[1].

وقد وردت آيات وأحاديث تنطق بالملائكة سواء في بيان وجودهم أو ذكر أشكالهم، أو ذكر أعمالهم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم: (٥٠)، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، رقم: (١٠).

ص: ولله كُتُب أنزلَها عَلَى أَنبِيَائه بَيَّنَ فيها أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَوَعْدهُ وَوَعِيدَهُ.

الإيمان بالكتب

ش: المفردات

الكتب: جمعٌ مفرده كتاب، بمعنى مكتوب فيه.

الوعد: يكون حقيقة في الخير.

الوعيد: يكون حقيقة في الشر.

وقد يعبر بأحدهما مكان الآخر مجازاً مع وجود القرينة فتقول: وعدني بالسِّجن، وأوعدني بألف دينار.

الشرح الإجمالي:

مما يجب أن نؤمن به والذي هو ركن من أركان الإيمان: هو الإيمان بأنَّ الله تعالى أنزل أربعة كتب فيها: كلامه، أمره ونهيه، ووعده ووعيده، والإخبار عن الماضي وعن أمور تقع في المستقبل.

كما أنه أنزل مائة صحيفة

أما الكتب الأربعة فهي:

١ - التوراة: أُنزلت على سيدنا موسى عليه السلام وقد وردت عدة آيات تدل عليها منها قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٢- الزبور: أُنزل على سيدنا داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٣- الإنجيل: أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [المائدة: ٤٦].

٤- القرآن الكريم: الذي هو أفضلها؛ لأنَّ أسلوبه إعجازي وقراءته أفضل وأنفع ولكونه نسخ ما قبله من الكتب، وهو الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ وهو أفضل الأنبياء.

أما الصحف فهي مائة:

- ٥٠ أنزلت على شيث عليه السلام.
- ٣٠ أخنوخ - إدريس.
- ١٠ أنزلت على إبراهيم عليه السلام.
- ١٠ أُنزلت على موسى عليه السلام.

كما ورد في حديث يرويه أبو ذر رضي الله عنه[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[الأعلى:١٨-١٩].

(١) صحيح ابن حبان: ٢/ ٧٦، برقم (٣٦١).

ص: والمِعْرَاجُ لِرَسُـولِ الله ﷺ في اليَقْظَةِ بِشَـخْصِهِ إلى السَّـمَواتِ ثُمَّ إلى مَا شَاء الله مِنَ العُلَى حَقٌّ.

معجزة الإسراء والمعراج

ش: المفردات

المعراج: هو آلة العروج كالسُّلم والدرج، والمراد به هنا: ما صعد به ﷺ من بيت المقدس حيث الصخرة المعروفة إلى السماوات، ولا يعرف كيفيته أو ماهيته.

اليقظة: ضد النوم.

بشخصه: بجسمه.

والإسراء: هو السير ليلاً، يقال: سرى وأسرى أي سار ليلاً.

الشرح الإجمالي:

معجزة الإسراء ثابتة في نص القرآن الكريم لا مجال لإنكارها ومنكرها كافر؛ إذ قد أنكر نصاً صريحاً من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

أما المعراج فقد ورد بالحديث المشهور الذي يرويه البخاري ومسلم، وحيث إنه لم يرد نصٌّ صريحٌ في القرآن أو السنة المتواترة ،فإنَّ منكرَهُ لا يحكم عليه بالكفر، بل بالابتداع.

وأما الاستدلال على المعراج بقوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ فليس بسليم إذ يمكن أن يراد به جبريل عليه السلام دنا من الرسول ﷺ، كما أنه يحتمل أن الرسول دنا من الله دنو رتبة ورفعة لا مكان.

ولا مجال لذي عقل سليم أن يُنكر الإسراءَ والمعراج؛ لاستغرابه أن يرحل هذه الرحلة المحتوية على كثير من الأفعال والأقوال والتنقلات مع وجود البعد الشاسع بين الأرض والسماء وبين السماوات، والمدة قصيرة جداً.

إذ قد نطق القرآن بأنَّ عرش بلقيس قد نقله آصف بن برخيا من اليمن إلى فلسطين برمشة العين.

كما أن ضوء الشمس يمتد بعد بروزها على الأرض بكل ثانية مائة وستة وثمانين ألف ميل، وأنّ قطرها مسافتُه تزيد على حجم الأرض بما ينوف على مائة وستين مرة ويتكامل شروقه وغروبه بثلاث دقائق.

وعلى الرغم من كونها معجزة فإنَّ العلم الحديث جاء مؤيداً لمثل هذه الحادثة.

إذ قد صعد رواد الفضاء إلى سطح القمر بواسطة السُّفن الفضائية، كما أنَّ الأقمار الصناعية تدور حول الأرض بسرعة فائقة، ودقيقة جداً.

هل عُرِجَ يقظةً وبجسمه أو رؤيا، أو بروحه؟

لم يحصل خلاف بين العلماء في ثبوت الإسراء والمعراج على اختلاف في قوة الدليل بينهما.

إلا أنهم اختلفوا في أنه هل عرجَ به يقظة أو رؤيا، أو بروحه فقط؟.

فجمهور المسلمين على أنه يقظة وبجسمه وروحه.

وأقوى دليل على ذلك أنه لو كان رؤيا أو بروحه؛ لما أدى إلى استغراب مشركي قريش وتكذيبهم له؛ لأنَّ الرؤيا وعروج الرُّوح أمر مقبول لديهم يمكن أن يقع من أي إنسان، فلولا أنه كان بروحه وجسمه لما كذَّبوه، ولما طلبوا منه أن يَصِفَ بيتَ المقدس، ولما سألوه عن القافلة القادمة من الشام.

وقد زعم بعضهم أنه رؤيا، ومنهم من قال بروحه.

واستدلوا على ذلك:

١- بما روي عن معاوية ﷺ أنه سُئِلَ عن المعراج فقال: كانت رؤيا صالحة.

٢- وبما روي عن عائشة ﵂ أنها قالت: ما فقد جسد محمد ﷺ ليلة المعراج.

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

أما حديث معاوية فعلى فرض صحته لم يرفعه فهو موقوفٌ، وقد يكون اجتهاداً منه، وهو لا يقاوم الأدلة الدالة على أنه يقظة.

وأما ما ورد عن عائشة فإنَّه ضعيف؛ إذ أنَّ المعراج كان قبل الهجرة بخمس سنوات في مكة وهي لم تكن يومئذ زوجته، وكان عمرها آنذاك ثلاث سنوات لا يمكنها ضبط الحادثة لترويها، كما يحتمل أن يراد أن جسمه لم يفارق روحه، بل عرج مع روحه.

وأما الرؤيا في الآية فيمكن أن يُراد بها الرؤيا بالعين، كما سبق أن ذكرنا ذلك في آخر بحث رؤية الله تعالى.

ص: وَكَرامَاتُ الأَولياءِ حَقٌّ

فَيُظهِـرُ الكرَامَةَ عـلى طَريق نَقْضِ العَادةِ للوليِّ: مِنْ قَطْعِ المَسَـافةِ البعيدةِ في المُدَّةِ القَليلَةَ، وظهورِ الطَّعَامِ والشَّرابِ واللِّباسِ عِنْد الحَاجَةِ، والمشْيِ عَلى المَاء، والطيران في الهَوَاء، وَكلاَمِ الجمادِ والعَجماء، وغير ذَلِكَ مَن الأشْيَاءِ.

وَيكونُ ذَلكَ مُعجزَةً للرَّسُـول الذي ظَهَـرتْ هذِهِ الكَرَامةُ لواحدٍ مِنْ أمَّتهِ؛ لأنَّــه يظهَرُ بِهَـا أَنَّهُ وَلِيٌّ، وَلَنْ يكُـونَ وَلياً إلا أن يكـونَ مُحِقـاً في ديانِتِه، وديانتُه الإقرارُ والتَّصْديقُ بِرِسَالةِ رَسُولِهِ.

كرامات الأولياء

ش: المفردات

الكرامات: جمع كرامة، بمعنى التكريم أو الإكرام، وهي وقوع أمرٍ خارق للعادة من صالح، وليس معه دعوى الرسالة.

الأولياء: جمع ولي، وهو: العارف بالله تعالى المواظب على الطاعات، المجتنب للمناهي، والمعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات.

نقض العادة: أي خارق لقانون السببية في الكون.

الجماد: الذي لا حياة له.

العجماء: الحي الذي لا ينطق ويشمل جميع الحيوانات.

الشرح الإجمالي:

إن لله عباداً اعتصموا بدينه وأخلصوا له وأنابوا إليه، توجهوا إلى الخير، وأعرضوا عن الشر؛ فأحبهم الله، وأعلى مكانتهم، ولبّى طلباتهم، وأكرمهم الحسنى

في الدنيا والآخرة فأمدَّهُم بعونٍ منه، وأجرى على أيديهم خوارق العادات، مبرهنين للناس أحقية دينهم وصدق أقوالهم، وصحة عبادتهم؛ فأيَّدَ الله بهم دينه، وغرس الإيمان في قلوب الناس ببركة أخلاقهم ونور اهتدائهم.

وأعلى مقام الكرامة هي الاستقامة على العمل الصالح؛ إذ عادة النفس تسبب لصاحبها الانحراف والعزوف عن الخير، فالسيطرة على نزواتها وإحكام زمامها في الاستمرار على العمل الصالح أعلى كرامةً من الله إلى عبده.

خوارق العادات تنقسم إلى أربعة أقسام:

١ – **معجزة**: أمر خارق للعادة تقع ممن يدعي النبوة قبل ختم الرسالة، وتقع هذه من الأنبياء فقط، وقد أسلفنا الكلام عليها.

٢– **كرامة**: أمر خارق للعادة يظهر على يَدِ رجلٍ صالحٍ بدون دعوى النُّبُوَّة، وهذه تكون للأولياء.

٣– **استدراج**: أمر خارق للعادة يظهر على يد من لا يؤمن ولا يعمل صالحاً، وقد تكون إهانة كما وقع لمسيلمة الكذاب؛ إذ أُتي إليه بأعور؛ لأجل أن تبصر عينه كما فعل رسول الله ﷺ، فلما مد يده إلى عينيه عورت الأخرى، فصار أعمى.

وأُتي به إلى بئرٍ مالحةٍ؛ ليجعلها عذبة فبصق بها فغار ماؤها.

وكإمداد الله الكافرين بالمال والصحة والنعيم في الدنيا، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

٤ – **معونة**: إذا ظهر أمر غير مألوف عادةً على يد عوام المسلمين.

والفرق بينها وبين السحر:

إنَّ السحر أمور وهمية لا حقيقة لها، بل هي قوانين وممارسة أعمال تخيل للرائي حقيقة شيء وهو ليس كذلك، والكرامة أمر حقيقي لا وهمي خارق للعادة.

وكرامات الأولياء:

لم يخالف فيها ولم ينكرها إلا المعتزلة ومن نحى نحوهم، وذلك بحجة اختلاطها بالمعجزة وعندئذ لا يتميز النبي من غيره.

والجواب على ذلك: أن من تظهر الكرامة على يديه لم يدع النبوة، ولو ادعاها بعد ختم الرسالة لحكمنا بكفره فضلاً عن ولايته.

ثم – كما بيَّن الماتن –: أنَّ كرامة الولي معجزة لنبيه؛ إذ يفهم الناس بعد وقوعها منه أنَّ دين هذا النبي حق، ولولا ذلك لما أَمده بهذه الكرامة، ولا شك أنها تقوِّي إيمان الرائي أو السامع بذلك الدين الذي يدين به هذا الشخص.

ويستدل على ثبوتها:

أولاً– بالكتاب:

١. أكرم الله سيدتنا مريم بإعطائها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

٢. كما وقع لها أيضاً حين جاءها المخاض، أنْ جرى لها بالماء وادي سرياً، وتساقط الرطب من الجذع، ولم تكن النخلة مثمرة آنذاك.

٣. وكما في قصة أصحاب الكهف؛ إذ عاشوا السنين الطويلة نائمين وبدون طعام وشراب، ولم تأكل أجسادهم الأرض.

٤. طلب سيدنا سليمان إحضار عرش ملكة اليمن بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس فأتاه به أحد وزرائه الصالحين وهو (آصف بن برخيا) قبل ارتداد طرف سيدنا سليمان ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠].

ثانيا- بالسنة:

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر لأصحابه قصةً فقال«بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت: لم أخلق لهذا خلقت للحراثة، فقال النبي ﷺ: آمنت أنا وأبو بكر وعمر وأخذ الذئب شاة فتبعها الراعي، فقال الذئب: من لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري. قال: آمنت به أنا وأبو بكر وعمر»[1].

وقصة الصخرة التي نزلت على باب الغار الذي دخله ثلاثة أشخاص، وتحركها بدون محرك.

ثالثاً- من المأثور:

١- سيدنا عمر ﷺ يخطب يوم الجمعة على منبر المدينة، وجيش المسلمين بقيادة سارية ﷺ يقاتل في نهاوند، وأراد العدو الاستيلاء على الجبل؛ ليسيطر على المسلمين، فكشف الله ذلك لسيدنا عمر فرآه من على المنبر، فقال في أثناء خطبته: يا سارية الجَبَلَ الجَبَلَ[2]، فسمع سارية صوتَ الخليفة فاستولى على الجبل قبل وصول العدو إليه، فهاتان كرامتان: واحدة لسيدنا عمر وهي الرؤية من مكان بعيد،والثانية لسيدنا سارية وهي السماع من مكان بعيد[3].

٢- نِيلُ مصر له عادة يتعطل عن الجريان مرة في السنة إلا أن تلقى به جارية من أجمل الجواري.

وحدث ذلك في عهد سيدنا عمر ﷺ حيث كان الوالي سيدنا عمرو بن العاص ﷺ فأخبرَ عمرَ بذلك فكتب إليه عمرُ كتاباً:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب استعمال البقر للحراثة، رقم: (٢١٩٩).

(٢) منصوب على الاغراء، أي الْزَمْ الجبل، يُلاحظ صحة الأثر في كشف الخفاء للعجلون: ٢ / ٣٨٠.

(٣) لم يبق مجال للذين لا يصدقون بهذا بعد أن أظهر العِلْمُ آلة الفاكس واللاسلكي وآلة الرائي (التلفزيونات) وأثبت أنَّ الاصوات والصور لا تفنى من الفضاء، بل تبقى إلا أنها تحتاج إلى ما ترى به أو تسمع، كما لا يبقى ريب لمن ينكر تسجيل الملكين رقيب وعتيد أعمال وأقوال الإنسان بعد أن ظهرت الأشرطة الصوتية.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى نيل مصر من عبد الله عمر بن الخطاب أما بعد:

«أيها النيل إن كنت تجري بنفسك فلا حاجة بنا إليك، وإن كنت تجري بأمر الله فاجر على اسم الله».

وأمر أن يلقيها في النيل فجرى من ذلك اليوم ولم يتوقف قط[1].

٣- لما طلب الروم من سيدنا خالد ﷺ شُرْبَ السُّمِّ تحدياً منهم؛ لصحة دينه، تناوله وقال: بسم الله الذي لا يضُرُّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، وشربه ولم يضره[2].

٤- كان بين يدي سلمان وأبي الدرداء -ﷺ- قصعة فَسَبَّحَت وسَمِعا تسبيحها[3].

ومن الكرامات:

إطلاع بعض الصالحين على بعض الأسرار والمغيبات، ولعل من يُنكرُ الكرامات يحتج على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠]، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

وقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فالجواب عن هذا من وجهين:

الوجه الأول: أنَّ الألف واللام في الغيب للاستغراق والسلب، إذا تقدم على العموم أفاد سلب العموم، أي لا يعلم كل الغيب إلا هو، ومفهومه أن البعض يمكن

---

(١) انظر الطبقات للسبكي: ٢ / ٣٢٦.

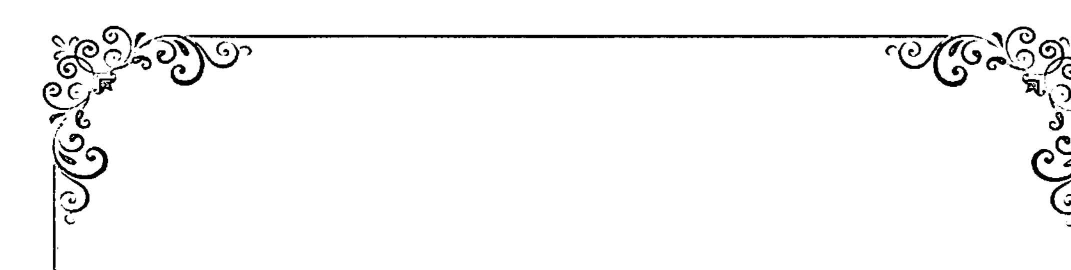
(٢) مشكاة المصابيح: ٦/ ٥٣.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي: ٦/ ٦٣.

أن يعلمه غير الله، ثم الآية الثانية قد استثنى منها فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٧] وهذا يدل على جواز إطلاع الله بعض عباده على ما غاب عن الحواس.

الوجه الثاني: أنه يسمى غيباً ما دام غير معلوم للشخص، وهو من اختصاص الله تعالى؛ إذ هو يعلم الغيب بذاته وبدون رفع الموانع، أما بعد رفع الحواجز والموانع فلا يسمى غيباً[1]، ولا نعني بالكرامة إلا رفع الحاجز والمانع؛ لتفعل الحاسَّة فعلها فالأمور التي خلف الجدار غيب عني فإذا رفع الجدار خرجت عن كونها غيباً، ومع ذلك فقدرة الله تعالى أعظم مما نراه محالاً عادة، والأمثلة على وجود الكرامة كثيرة جداً لا يسعها مقامنا هذا.

(١) إلا من باب المجاز المرسل باعتبار ما كان.



الفصل السادس

الخــلافــة والإمــامــة

ويتضمن:

١- فضل الخلفاء الراشدين ومن هو الأحق بالخلافة.

٢- لا بد للمسلمين من وجود إمام ظاهر.

٣- شروط الإمام.

٤- واجبات الإمام.



ص: وَأَفْضَـلُ البَشَرِ بَعْدَ نَبِيِّنَا: أَبُو بَكرٍ الصِّديقُ، ثمَّ عُمَرُ الفَارُوقُ، ثمَّ عُثْمَانُ ذُو النُّورَين، ثمَّ عَلِيٌّ المُرتَضَى -رضي الله عَنْهمْ-.
وخلافَتُهم عَلَى هذا التَّرْتيب، والخِلافَةُ ثَلاثُونَ سَنَةً، ثمَّ بَعدها مُلْكٌ وأمَارَةٌ.

التفضيل بين الخلفاء الراشدين

ش: المفردات

بعد نبينا: الأَوْلى أن يقولَ بعد الأنبياء؛ لأنَّ أبا بكر ليس أفضل من الأنبياء[1].

الصديق: المبالغ في الصدق.

الفاروق: الذي فَرَّقَ بين الحق والباطل.

ذو النورين: لقب به عثمان ؓ؛ لأَنَّهُ تزوَّج بنتي رسول الله ﷺ؛ أو لأَنَّهُ كان يختم القرآن مرتين في اليوم والليلة؛ أو لأنَّ الجنة تبرق له برقتين.

المرتضى: الذي ارتضاه رسول الله ﷺ في أمر الدنيا والدين.

الخلافة: النيابة عن رسول الله ﷺ في إقامة الدين والدولة.

الشرح الإجمالي:

في هذا الموضوع مبحثان:

أحدهما: أيُّ الخلفاء الأربعة أفضل؟

ثانيهما: أيُّهم أحقُّ بالخلافة؟

لذلك سنتكلم عن كل مبحث على انفراد.

---

(١) وإن أراد في الزمن يكون أبو بكر أفضل من عيسى، وليس كذلك.

أولاً- من هو أفضلهم؟

مما لا شك فيه أنَّ مقياس التفاضل عند الله تعالى لا يكون مبنيّاً على شرف الآباء والأحساب؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتقوى هي الأساس في تقدم مكانة الإنسان وتأخرها، وعلى هذا فقد أجمع المسلمون – ما عدا من لا يعتدُّ بخلافه – على أن أبا بكر الصديق هو أفضل الصحابة كافة، ثم يليه بالفضل عمر بن الخطاب، ثم يليه عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب ثم بقية الصحابة[(١)]. ونحن سنتكلم عن بعض مناقب كل واحد منهم على الانفراد ذاكرين أدلة تفضيله على من بعده.

أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ:

اسمه: عبد الله أو عتيق، سمي به لعتاقة وجهه – أي حُسْنِه، وقيل: هو لقبٌ له، وليس اسماً.

كنيته : أبو بكر.

لقبه : الصديق.

اسم أبيه : عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد، بن تيم بن مرة بن كعب، وتيم أخو كلاب بن مرة بن كعب، فأبو بكر رضي الله عنه يلتقي برسول الله ﷺ بجده السادس.

كنية أبيه: أبو قحافة.

وفاته: ليلة الثلاثاء (٢٢-جمادى الآخرة - سنة «١٣هـ»).

---

(١) يقال: إنه يليهم في المرتبة بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان.

نثر اللآلي: ص٦٦٨.

عمره: ٦٣ سنة.

دُفن إلى جانب رسول الله ﷺ.

إسلامه: كان أوّل الرجال البالغين دخولاً في الإسلام.

مدة توليه الخلافة: سنتان وثلاثة أشهر وعشرون يوماً[١].

الاستدلال على أفضليته:

١- ثناء الله عليه في القرآن الكريم، إذ كان الثاني مع رسول الله ﷺ؛ إذ يقول: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وهل هناك شرفٌ أعلى وأفضل ممن كان أحد اثنين، أحدُهما رسول الله ﷺ

٢- وقال تعالى في حقه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١].

٣- إن امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك — كأنها تقول الموت — قال ﷺ: «إن لم تجديني فأتي أبا بكر»[٢].

٤- ويقول ﷺ: «إنَّ أَمَنَّ النَّاس عليَّ في صحبتِهِ ومالِهِ أبو بكر، لو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر ولكن أُخُوَّة الإسلام، لا يَبقيَنَّ في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر»[٣].

٥- روي عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، أنه قال لأبي بكر ﷺ: «أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار» رواه الترمذي[٤].

---

(١) انظر هذا في نثر اللآلي: ص١٤٩ - ١٥٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ (لو كنت متخذاً خليلًا)، رقم: (٣٤٥٩).

(٣) المصدر السابق، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم: (٣٦٩١).

(٤) سنن الترمذي، في المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- كليهما، رقم: (٣٦٧٠).

٦- عن محمد بن الحنفية – وهو ابن الإمام علي ﷺ – أنه قال: (قلت لأبي: أي الناس خَيرٌ بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان، قلت ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين)[١].

٧- تضحيته أمام رسول الله ﷺ وانفاق جميع أمواله في سبيل الدعوة الإسلامية.

٨- إعتاق عدد من الأرقاء المسلمين وإنقاذهم من التعذيب[٢].

٩- وقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلا؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنَّهُ أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله -عز وجل- صاحبكم خليلاً» يعني نفسه[٣]، وفي هذا كفاية لمن لديه إنصاف أن يعرف أفضلية الصديق ﷺ.

الفاروق عمر بن الخطاب أمير المؤمنين[٤]:

اسمه : عمر.

لقبه : الفاروق.

كنيته : أبو حفص.

اسم أبيه : الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب وهو الجدُّ السابع لرسول الله ﷺ.

وفاته: توفي شهيداً في يوم الأربعاء (٢٥-ذي الحجة سنة ٢٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلًا)، رقم: (٣٤٦٨).

(٢) وهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة والنهدية وبنتها، وأمُّ عميس، وزنيرة، وأمة بني المؤمل اشتراهم الصديق، وأعتقهم ابتغاء لوجه الله تعالى.

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ، رقم: (٢٣٨٣).

(٤) لقب بذلك؛ لأنهَّم أول الأمر كانوا يخاطبونه بخليفة خليفة رسول الله، ثم عدلوا إلى أمير المؤمنين؛ لأنها أخصر، وهكذا استمرت في الخلفاء الباقين.

عمره : ٦٣ سنة.

قاتله: أبو لؤلؤة المجوسي، غلام المغيرة بن شعبة[١].

دفن إلى جانب رسول الله ﷺ وأبي بكر.

إسلامه : في السنة السادسة من البعثة.

مدة خلافته : عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام.

الخليفة عمر رضي الله عنه يأتي بالدرجة الثانية في الفضل بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ويستدل على فضله بما يأتي:

١- بحديث محمد بن الحنفية السابق.

٢- ما رواه أبو جحيفة السوائي قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: (ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها؟ أبو بكر رضي الله عنه، ثم قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد أبي بكر رضي الله عنه؟ عمر)[٢].

٣- لأنَّ الله أعزَّ به الإسلام والمسلمين؛ إذ يقول رسول الله ﷺ «اللهمَّ أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب»[٣]، ويقول أيضاً: «ما زلنا أعزَّة منذُ أسْلَمَ عُمَر»[٤].

٤- قوله ﷺ: (لو كان بعدي نبيٌّ، لكان عمر)[٥].

٥- أظهر المسلمون دعوتهم من السرِّ بها بعد إسلامه.

٦- إنَّهُ صهر المصطفى ﷺ؛ إذ زوَّجَهُ بنتهُ حَفْصَة رضي الله عنها.

---

(١) حيث كمن له في الغلس بزاوية من زوايا المسجد بعد أن أعدَّ له خنجراً مسموماً مشحوذاً، فلما خرج رضي الله عنه ليوقظ الناس للصلاة وكان يأمر بتسوية الصفوف قبل الصلاة فدنا منه، فضربه بذلك الخنجر ثلاث أو ست ضربات في كتفه وفي خاصرته.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٢/ ٢٢٠، رقم: (٨٧١).

(٣) صحيح ابن حبان: ١٥/ ٣٠٦، رقم: (٦٨٨٢).

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم: (٣٦٥٠).

(٥) سنن الترمذي، في المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم: (٣٦٨٦).

عثمان بن عفان الأموي:

اسمه :عثمان.

لقبه :ذو النورين، وقد ذكرنا سبب تلقيبه بذلك.

اسم أبيه : عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وهو الجد الثالث لرسول الله ﷺ. ويلتقي عثمان من جهة الأم وهي أروى بنت أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، بالجد الأول لرسول الله ﷺ. فهو ابن بنت عمة النبي ﷺ.

وفاته: توفي شهيداً في يوم الجمعة صبيحة عيد الأضحى سنة ٣٥ هـ.

دفن في البقيع وقبره ظاهر معروف.

مدة خلافته : إحدى عشر سنة، وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً.

عمره : ثمانون سنة.

إسلامه: قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم.

اتفق علماء السنة على أنَّ عثمان بن عفان يأتي بالدرجة الثالثة في التفضيل بعد الأنبياء، ولكنهم اختلفوا في أفضليته على سيدنا علي بن أبي طالب.

فذهب جمهورهم إلى أنه أفضل من علي ﷺ وبعضهم فضَّلَ علياً عليه، منهم أهل الكوفة وسفيان الثوري، وقد صحَّ رجوعه في آخر عمره، ونقل أيضاً عن الإمام مالك إلا أن غير واحد من العلماء قال برجوعه عن ذلك، ونقل عنه أيضاً التوقف في التفضيل وهو ما ذهب إليه إمام الحرمين[1].

وقد نقل عن بعض أئمة السلف أنه قال: من قَدَّم علياً في الأفضلية على عثمان فقد ازدرى بالمهاجرين والأنصار؛ لأنَّهم قدَّموه باختيارهم واتفاقهم[2].

---

(١) يلاحظ نثر اللآلي: ص١٦٣.

(٢) يلاحظ نثر اللآلي: ص١٦٥.

ومما يستدل به على أفضلية عثمان هو:

١- ما أخرجه الترمذي عن طلحة، وابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لكلِّ نبيٍّ رفيق في الجنة، ورفيقي فيها عثمان»[(١)].

٢- عن ابن عمر ﷺ قال: «كنا في زمن النبي ﷺ لا نعْدلُ بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبَّي ﷺ لا نفاضل بينهم»[(٢)].

٣- ومن ذلك تجهيزه جيش العُسْرة في غزوة تبوك، فقد جهز المسلمين بمائة بعير، وقيل: بألف بعير بأقتابها وأحلاسها وبألف دينار؛ حتى قال النبي ﷺ: «ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد هذه – مرتين – وقال: اللهمَّ ارضَ عن عثمان، فإنّي عنه راضٍ»[(٣)].

٤- توسعته للمسجد النبَّوي مرتين.

٥- ومنها مبايعة الرسول ﷺ في بيعة الرضوان تحت الشجرة في صلح الحديبية، حيث بايعه المسلمون على قتال من يصدهم عن البيت الحرام، وكان عثمان قد أرسل إلى أهل مكة؛ ليفاوضهم فضرب الرسول ﷺ يده اليمنى على شماله، وقال: هذه بيعة عثمان؛ لثقته الجسيمة به أنه في مقدمة المبايعين[(٤)].

٦- هجرته إلى الحبشة مع زوجته رقية مرتين، والثالثة إلى المدينة المنورة.

٧- تَزَوجه من بنتي النبي ﷺ رقية وأم كلثوم، وقال النبي ﷺ بعد وفاة الثانية: «لَو كانتْ عِنْدي ثَالِثَة لَزَوَّجْتكَهَا»[(٥)]، ولم يعرف أنَّ أحداً تزوج بنتي رسول غيره.

---

(١) سنن ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل عثمان ﷺ، رقم: (١٠٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي ﷺ، رقم: (٣٤٩٤).

(٣) انظر مشكاة المصابيح: ٣/ ٢٣٦.

(٤) انظر المصدر السابق: ٣/ ٢٣٦.

(٥) ولربما يقولون: إنهما قد زوجهما من قبله لابني أبي لهب، وهما لم يفضلا بذلك، فزواجُه منهما لا يدلُّ على فضله؟ فنقول: إن زواجهما من ابني أبي لهب كان مجرَّد عَقْدٍ لا دخول معه، وكان قبل البعثة، =

علي بن أبي طالب:

اسمه : علي.

أبوه : عبد مناف بن عبد المطلب، جَدُّ رسول الله ﷺ، فهو يلتقي برسول الله ﷺ بجده الأول.

كنيته : أبو الحسن.

ألقابه : لقب بالكرار وبحيدر وبأبي تراب.

كنية أبيه : أبو طالب؛ لأنَّ طالباً أكبر أولاده.

وفاته: توفي شهيداً ليلة الجمعة (٢١ رمضان المبارك سنة ٤٠ هـ).

قاتله :عبد الرحمن بن ملجم قَتَلهُ ليلاً، عندما خرج لصلاة الصبح.

عمره : ٦٣ سنة.

مدة خلافته : أربع سنين وعشرة أشهر.

إسلامه : كان أوَّل الصبيان إسلاماً.

أفضليةُ الإمام علي تأتي بالدرجة الرابعة بعد الخلفاء، وهذا ما اتفق عليه السلف، ولا بد من أن نحسن الظنَّ بهم إذ أنهم لو لم يعرفوا ذلك؛ لما اتفقوا عليه.

ولم يخالف في ذلك إلا الشِّيعة حيث اعتقدوا أنَّ علياً أفضل من الثلاثة؛ لأنَّهُ ابن عمِّ الرسول ﷺ وتمسَّكوا ببعض الأحاديث التي وردت في فضله.

واستدلوا بها على أفضليته على جميع الصحابة بأدلَّةٍ سنذكرها ونناقشها في بحث إمامتهم، فهو الأفضل بعد الثلاثة من سائر الصحابة الآخرين.

ومما يستدلُّ على أفضليته على بقية الصحابة ما يأتي:

١ - إنَّهُ زوَّجه رسول الله ﷺ بنته فاطمة الزهراء.

= ولما بقيا مُصِرِّين على الكُفر فارقهما منهما. جامع الأحاديث للسيوطي: ٣٣/ ١٩١، رقم: (٣٦٠٤١).

٢- ومنها أنه ابن عَمِّه، وممن شهد له بكثرة العلم.

٣- ومنها أنه فدى رسول الله ﷺ ليلة الهجرة، ونام مكانه في الفراش حتى الصبح.

٤- ومنها أنه أبو الحسنين: وهما ريحانتا رسول الله ﷺ، وسيدا شباب أهل الجنة.

٥- قوله ﷺ: في حقه: «مَنْ كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ، اللهمَّ والِ مَنْ والاهُ وعادِ مَنْ عاداهُ»[1].

٦- وقوله ﷺ «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه ليس نبي بعدي»[2].

٧- وقوله أيضاً: في الحديث الصحيح «من سبَّ علياً فقد سبني»[3].

٨- نشأته في بيت المصطفى ﷺ ومؤاخاته له.

ثانياً- بيان من هو أحق بالخلافة:

ما دام أن أفضليتهم جرت على هذا الترتيب، فإنَّ خلافتهم كانت أيضاً على هذا الترتيب.

فأولى الناس بالخلافة هو أبو بكر الصديق ﷺ وهو ما أجمع عليه المسلمون ما عدا بعض الفرق[4]، إذ أنهم يعتقدون أنَّ الأولى بالخلافة هو سيدنا علي ﷺ.

---

(١) صحيح ابن حبان: ١٥/ ٣٧٥، رقم: (٦٩٣١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، رقم: (٤١٥٤).

(٣) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٣٠، رقم: (٤٦١٥).

(٤) الامامية: هم الذين يؤمنون بخلافة الاثني عشر إماماً، وهم علي بن أبي طالب، ثم ابنه الحسن، ثم أخوه الحسين، ثم ابنه علي زين العابدين، ثم ابنه محمد الباقر، ثم ابنه جعفر الصادق، ثم ابنه موسى الكاظم، ثم ابنه علي الرضى، ثم ابنه محمد الجواد، ثم ابنه علي الهادي، ثم ابنه الحسن العسكري، ثم ابنه محمد القائم المنتظر المهدي.

أما الزيدية المنسوبون إلى زيد بن علي بن زين العابدين فإنهم يؤمنون بأفضلية علي على الثلاثة إلا أنهم يقرُّون ويعترفون بإمامتهم باعتبار أنه يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

ولكلٍ أدلة نذكرها:

أولاً- أدلة القائلين بأولوية أبي بكر:

١- ما تقدم من الامتيازات الفضلى التي وصفه ﷺ بها.

٢- تقديم الرسول ﷺ له؛ ليصلي بالناس في مرض موته، وفي هذا إشارة إلى أنه أحق الناس بإمامة الدِّين، فإمامة الدُّنيا من باب أولى.

٣- ما روت عائشة ﵂ - كما في صحيح مسلم - أنّ النبّي ﷺ قال لها في مرضه:

«ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ، أَبَاكِ، وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَاباً، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»[(١)].

٤- إجماع الصحابة المهاجرين والأنصار على مبايعته على الخلافة ومنهم علي كرم الله وجهه على رؤوس الأشهاد بعد توقف كان منه، ظاناً أنه الأولى بهذا الأمر؛ لقرابته من رسول الله ﷺ ثم اتضح له الحق، ولولا ذلك لما اتفقوا على بيعته ولنازَعَهُ عليٌّ كما نازع معاوية.

٥- من نص كتاب سيدنا علي إلى سيدنا معاوية ﵁ حيث قال: (إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار.

فإن أجمعوا على رجلٍ وسموه إماماً كان ذلك لله رضاً، فإنْ خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه فإنْ أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى)[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم: (٢٣٨٧).

(٢) انظر نهج البلاغة، طبع بيروت: ص٤٤٦.

وعندما ثقل المرض بأبي بكر ﷺ دعا لفيفاً من الصحابة[١]، يشاورهم في أمر الخلافةِ والعهدِ بها لعمر، فأيدوه بذلك ثم أمر عثمان أن يكتب ما يأتي:

(بسم الله الرحمن الرحيم – هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي فيها الفاجر، ويصدق فيها الكاذب، إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإنْ يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يجر ويبدل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردت ولكل امرئ ما اكتسب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٢].

ومع هذا فإن الصحيفة قد أُقِرَّت من جميع الصحابة وحتى من سيدنا علي حيث قال لما عرضت عليه –: وافقت على من فيها وإن كان عمر[٣]، ثم إنه لو لم يكن الخليفة حقاً، وأنه مغتصِبٌ لها من الإمام علي وأنه مخالف للنص؛ لما جاز لعلي أن يزوِّجَه بنته أم كلثوم من زوجته فاطمة؛ إذ هو خصمٌ من ناحيةٍ، ومخالفٌ لنصٍّ من نصوص رسول الله ﷺ من ناحية أخرى.

وقول الشيعة: إنه تزوجها منه قسراً يتنافى مع شجاعة علي وغيرته، وثلب له لا يليق مع مكانته وقدره.

ثم لما طعن عمر ﷺ تركَ الخلافة شورى بين ستة[٤]، هم عثمان، وعلي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص ﷺ ثم فَوَّضَ الخمسةُ الأمرَ إلى عبد الرحمن بن عوف ورضوا بما يحكم به ويختاره فاختار سيدنا عثمان، وجرت له البيعة فانقاد له الجميع فأصبح إجماعاً.

---

(١) منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير وعدد من المهاجرين والأنصار.

(٢) يلاحظ نثر اللآلي: ص١٥٨.

(٣) يلاحظ التفتازاني: ص٢٣١.

(٤) ترك الأمر شورى بين هؤلاء الستة يقوم مقام انتخاب الجمهور إذ أنهم يمثلون جميع المسلمين آنذاك فهو بمثابة مجلس الأمة أو مجلس النواب.

وهناك حديث آخر يشير إلى خلافته:

وهو ما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لعثمان: «يا عُثْمَانُ إنَّ الله مُقمِّصُكَ قَميصاً فَإنْ أرَادَكَ المنَافِقونَ عَلَى خَلعِهِ فلاَ تَخلعْهُ حَتى تلْقَاني»[1].

ولا شك أن المراد بالقميص هنا الخلافة بدليل توصيته بعدم خلعه إن طلب ذلك المنافقون.

ثم بعد أن استشهد ترك الأمر مهملاً، فاجتمع كبراء الصحابة من المهاجرين والأنصار فالتمسوا من سيدنا علي قبولها؛ لأَنَّهُ أحق بها دون غيره وقد أقسموا عليه فبايع له الحاضرون منهم.

أدلة القائلين بأحقية الإمام علي بالخلافة:

١- ذهبت الامامية إلى القول: بأنَّ من أصول الدين الإيمان بالنَّص والتعيين، أي لا بد من الاعتقاد بأن النبي ﷺ قد نصَّ على إمامة علي وقد عيَّنه للخلافة بعده.

واستدلوا على ذلك:

أ- إن الرسول ﷺ لما عاد من حجة الوداع في (١٨ ذي الحجة) وصل إلى مكان يقال له: (غدير خم) فقال عنده في عليٍّ: «مَنْ كنتُ مَولاهُ فَعَلي مَولاهُ، اللّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالاهُ وعَادِ مَنْ عَادَاهُ»[2].

ويجاب عن هذا:

بأنه على فرض صحَّةِ ورودِه فليس فيه ما يصرح أو يشير إلى أنه أولى بالخلافة من غيره، فلفظ المولى لا يجئ بمعنى الأولى هذا من ناحية.

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٠٦، رقم: (٤٥٤٤).

(٢) صحيح ابن حبان: ١٥/ ٣٧٥، رقم: (٦٩٣١).

ومن ناحية أخرى أنه قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» أي في حياته ﷺ وبعد وفاته، فلو كان فيه دلالة على الخلافة؛ للزم تولِّيْهِ الأمر مع النبِّي في حياته؛ لأنَّهُ مشارِكٌ له في الولاية.

وعلى فرض دلالة ذلك على الأولوية فلا يلزم حَمْلها على أولوية التصـرف، بل على الأولوية في المحبَّةِ والنُّصرة والتَّعظيم، وهذا لا نخالف فيه، ولو أراد النبِّي ﷺ بذلك التصـرف والخلافة؛ لقال: اللهم والِ من كان في تصرفه، وعاد من لم يكن كذلك[1].

وليس في الحديث إلا ما يشير إلى جلالة قدره وعظيم منزلته، وما الذي يمنعه ﷺ إن أراد بذلك الخلافة – أن يصـرح في ذلك المجتمع بخلافته بنص واضح وصريح لا يقبل التأويل؟

ب- قوله ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه ليس نبي بعدي»[2].

وجه استدلالهم بذلك: أنَّ موسى كان يستخلف هارون وما دام أن علياً بمنزلة هارون فإنه الخليفة بعده.

والجواب على هذا بعد تسليم صحته:

إنَّ موسى كان يستخلِفُ هارون في حياته لا بعد موته، فلو كان ذلك يلزم مثله في علي؛ ليكون خليفة الرسول بعد موته؛ لأنَّهُ يستخلفه في حياته استخلاف موسى لهارون؛ للزم أحقيَّةَ عبد الله بن أم مكتوم بالخلافة؛ لأنَّهُ كان ﷺ يستخلفه مكانه في بعض الغزوات، ثم إنَّ ذلك لا يدل على الاستخلاف من بعده، كهارون لموسى، إذ أن هارون قد توفي قبل موسى، فبطل وجه الشَّبه الذي يقصدونه.

ج- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

---

(١) يلاحظ نثر اللآلي: ص١٧١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، رقم: (٤١٥٤).

قالوا: إنَّ سائلاً جاء يسأل صدقةً، وعليٌّ راكعٌ، فتصدَّق عليه في ركوعه، فنزلت في حقه هذه الآية.

وقالوا: المراد بالولاية ولاية التَّصرف وهي محصورةٌ بالله ورسوله والذين آمنوا، ويراد بهم علي؛ لأنَّهُ هو الموصوف بالتصدق حالة الركوع.

ويجاب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: إن الآية نزلت في المهاجرين والأنصار جميعاً بدلالة صيغة الجمع، وهي «الذين» وهي الحقيقة في ذلك وإن كانت قد تحمل على المفرد مجازاً، إذ لا يوجد ما يقتضـي صرفها عن ظاهرها.

وأما تفسير ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ فإنه لا يراد به حالة الركوع الحسِّي؛ لأنَّ ذلك قد يؤدي إلى بطلان الصلاة، بل يراد به الخشوع أي وهم خاشعون.

الوجه الثاني: لا يلزم في لفظ الولي أن يراد به ولاية الحكم، بل قد يراد به الناصر والمعين، والزوج والرئيس والآية بعده لا تساعد على حمل الولي هنا على ولاية التصـرف إذ لا يمكن حمل كلمة الأولياء في الثانية[1]، على التصرف؛ لأنَّهُ لم يخطر على بال أحد منهم أن يجعل الخليفة واحداً من اليهود أو النصارى.

الوجه الثالث: إن الحصر في «إنما» يأتي خبراً لمن هو متردد وشاك في الأمر وقت إلقاء الخبر وعندما نزلت الآية لم يكن هناك أي خلاف أو تردد في أمر الخلافة، إذ هو عصر النبوة آنذاك والإمامة نيابة عنها فلا داعي للإتيان بـ«إنما» إن كان المعنى يراد به ما قصدتم؛ إذ لا داعي للحصر ما دام ذهن المخاطب خالياً من ذلك، فلا يراد بذلك إلا النصر والمودة.

٢- وقد يستدلون على كونه أحق بالخلافة بأنَّه ابن عمِّ الرسول ﷺ وهو أقرب أولئك الثلاثة فهو أحقُّ بها وراثة.

---

(١) الآية التي بعدها هي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾.

فيجاب عن ذلك من وجهين:

أولاً- إن الإسلام لا يؤيد كون الإمامة وراثة، بل المسلمون هم الذين يبايعون من أرادوا استخلافه من قريش.

ثانياً- لو كان الأمر مبنياً على الوراثة؛ لكان العباس أولى بها؛ لأَنَّهُ عم الرسول ﷺ فهو أقرب من عليٍّ وأكبرُ سِناً.

٣- ولربما يستدلون بأنه أحق؛ لأَنَّهُ تزوج بنت الرسول ﷺ فاطمة فهو صهره.

ويجاب على هذا: إن كان الأمر مبنياً على المصاهرة فإنَّ عثمان أحق منه ومن أبي بكر بذلك؛ لأَنَّهُ تزوج بنتي الرسول ﷺ.

وبعد هذا:

فإنَّا نقول: إن هذا خلاف لا يخدم مصلحة المسلمين، ولا يُقَدِّمُ المسلمين كون هذا أولى من هذا، بل هو خلاف يؤخِّرهم عن الأهداف السامية التي جاء بها الإسلام وعلى فرض أنَّ علياً أولى من أبي بكر والثلاثة فإنَّا نقول: إن اختيار الثلاثة للإمامة لو كان غير موافق للواقع كما زعمتم أليسوا أنهم قد قدموا خدمة للمسلمين، وقاموا بالخلافة على أتم وجه وأحسنه، وليس المراد من الخلافة إلا ذلك فإثارة هذه الأمور بعد أن مضى ما يزيد على بضعة عشر قرناً ما هو إلا إثارة أحقاد وأضغان لا تخدم الأمة بشيء ولا تقدمها إلى الأمام.

ومع ذلك فإنَّ الإمام علياً قد بايعهم كما قلنا، وقاتل معهم، وصلّى الجُمَعَ والأعياد والجماعة خلفهم، وتزوَّجَ من سبيهم أم محمد بن الحنفية، فلو كانوا غيرَ شرعيين؛ لما جاز له ذلك.

وقد يقال: إنه قد عمل ذلك تقيةً، فنقول: حاشا أبا الحسنين أن يسكت عن الحق؛ إذ ليس ذلك من شأنه، وكيف يُقِرُّ الباطل من لم يطأطئ رأسه يوماً لباطل، ولم يقرَّ خليفة منهم على اجتهاد مخالف للشريعة؟ فاتهامه بذلك طعنٌ في شخصيته الكريمة.

ولو كانت عادته التقية فلماذا لم يستعملها مع معاوية ؓ؟ ولعلهم يقولون: إن الرسول ﷺ قد عهد إليه أن لا يوقع فتنة ولا يسل سيفاً، فإنا نقول: هذا مما لا يتفق مع

سياسة الدولة؛ إذ أن هذا الأمر يؤدي إلى فوضى في الدولة الإسلامية.

ثم إن كانت كذلك فلماذا لم يتمسك به حينما قاتل في واقعة الجمل وصِفِّين؟

وبعد أن ذكرنا ترتيب أولوية الخلافة بالنسبة للخلفاء الأربعة تبيَّن لنا أن مدة الخلافة ثلاثون سنة[1].

إذ يقول النبي ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم بعد ذلك ملك عضوض»[2].

وإذا جمعت مدة الخلفاء أو خلافة الأربعة كما ذكرنا سابقاً بلغت هذه المدة، والله أعلم.

(١) أي الخلافة الكاملة التي لا يشوبها شيء من المخالفة، وإلا فقد أطلق على الأمويين والعباسيين لفظ الخلافة.

(٢) مِلْك بكسر الميم وسكون اللام وقيل بفتح الميم وكسر اللام والعضوض بمعنى عاضا أي يظلم بعضهم بعضا وعبر به؛ لأنَّ من ظلم إنساناً فكأنه عضه، سنن الترمذي في الفتن، برقم (٢٢٢٦).

ص: والمُسْـلمونَ لاَ بُدَّ لهُـمْ مِنْ إمَامٍ يقُـومُ بِتَنْفيذِ أَحْكَامِهم، وإقامَـةِ حُدودِهِمْ، وسَدِّ ثُغُورِهِمْ، وَتَجْهيز جُيُوشِهِمْ، وأخذِ صَدَقَاتهمْ، وقَهْر المتَغَلِّبَةِ وَالمُتَلصِّصَةِ وَقُطَّـاعِ الطَّريـق، وإقامَـة الجُمعِ والأعْيَـادِ، وَقَطْـعِ المُنَازَعَات بـينَ العبادِ، وَتَزْويـجِ الصِّغار والصَّغائر الذين لا أَوْلياء لهُمْ، وقسْـمَةِ الغَنَائِمِ، ثُمَّ ينبَغي أن يَكونَ الإمامُ ظاهراً لا مُختَفياً ولاَ مُنتظراً.

ويكون مِنْ قُريشٍ، ولا يَجوزُ مِنْ غَيرهِمْ ولاَ يختَصُّ ببني هاشم وَأولاد عَليّ ﷺ، ولا يُشْـترطُ أَنْ يكونَ مَعْصوماً وَلا أنْ يكونَ أفضلَ أهلِ زَمَانِهِ، ويشْترَطُ أنْ يكـونَ مِنْ أهل الولاَية الكاملةِ، وسائسـاً قادراً عـلى تنفيذ الأحْكام وحِفْظِ حُدُود الإسْلام وانْصافِ المظْلُومِ مِنْ الظَّالِمِ، ولا يَنْعزِلُ بالفِسقِ والجَوْرِ.

الإمامة أو الرياسة العامة

ش: المفردات

الإمام: هو الخليفة لجميع البلاد الإسلامية.

الثغور: الموضع الذي يخشى منه تسلل الأعداء إلى بلاد المسلمين.

المتغلبة: الذين يستولون على أملاك الناس قهراً.

قطاع الطريق: الذين يقطعون طريق الناس؛ ليأخذوا ما لديهم من المال.

المختفي: الذي يستُر نفسه، ويعزلها عن أنظار الناس خوفاً منهم.

المنتظر: يعني تكون الناس بدون إمام وينتظرون ظهوره.

المعصوم: العصمة أن لا يخلق الله تعالى الذنب في العبد مع بقاء قدرته واختياره عليه.

الولاية الكاملة: هي كونه مسلماً حُرّاً ذَكَراً عاقِلاً.

سائساً: هي حسن التصرف في الأمور، والجدارة بحلها.

الجَوْر: الظلم على العباد.

الشرح الإجمالي:

لا بدَّ للمسلمين من إمام عام؛ ليحفظ لهم مصالحهم ويزجُرَهم عن مضارهم وليحفظ قوانين الشرع ويرعى البلاد والعباد، وليقيم الحدود على المعتدين ويعقد الجمع والأعياد، وينصب القضاة؛ ليقطعوا المنازعة بين الناس، وليكون وليَّ من لا ولي له.

ولا يكون الإمام مختفياً عن أنظار الناس وينتظر ظهوره؛ ليصلح ما فسد، ويلمَّ شعث ما تفرَّق، إذ ذلك منافٍ لمشروعية وجوده.

وقد زعمت الإماميةُ: أنَّ الإمامة قد انتهت إلى محمد القائم المنتظر الملقب بالمهدي، وأنَّه قد اختفى خوفاً من قتل أعدائه، فلا إمام معترف به بعده، وأنه سيظهر ويملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً وظلماً، وعلى هذا الأساس لا يقيمون الجمع والجماعة؛ لأنَّها لا تصِحُّ إلا خلف الإمام المعصوم، ولم يظهر إلى حد الآن[1].

فيجاب عن هذا:

إن هذا كلامٌ باطلٌ؛ لأنَّ اختفاء الإمام يعني عدم وجود إمام، وهو أمرٌ يعطل كثيراً من أمور الدنيا والدِّين، وتمرُّ الأجيال والقرون والناس بدون إمام يقيم لهم العبادة وحدود الدين، وذلك منافٍ للرسالة الإسلامية.

وأيضاً فإنَّ الإمام أحوج ما يكون الناس إليه عند ظهور الظلم وفساد الزمان واختلاف الآراء، فاختفاؤه في ظروف كهذه تَهَرُّبٌ من الواجب الملقى عليه، وهو أمرٌ منافٍ لحكمة الإمامة.

ومما يشترط في الإمام:

أن يكون قريشياً وذلك؛ لما رواه الإمام علي ﷺ عندما اختلف الأنصار والمهاجرون في الإمام عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الأئمة من قريش»[2]، وهو وإن كان خبَرَ واحدٍ إلا

---

(١) ربما يحتج بأن بعض الأحاديث نطقت بالمهدي يظهرُ قبل الدجال، فالجواب على هذا: أنه سيولد في ذلك العصر، لا أنه مختف وسيظهر، وشأن ظهوره كشأن بروز بعض المصلحين من أبناء هذه الأمة.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي وصححاه، وقال ابن حجر -رحمه الله- :حديث حسن، انظر فيض القدير: ٣ / ١٨٩.

أنه لما لم يجد معارضةً من قبل الصحابة، ولم يُنكِر عليه أحدٌ صارَ في حكم المجمع عليه؛ ولما روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر[1] في قريش ما بقي من الناس اثنان»[2]، بيد أنه لا يلزم أن يكون الإمام من بني هاشم، ولا من أولاد علي خاصة؛ لأنَّ الخلفاء الثلاثة ليسوا من بني هاشم، بل هم قريشيون.

وهل يشترط فيه أن يكون معصوما؟

العصمة ليست شرطاً في الخليفة أو الإمام؛ لأنَّ الأمة أجمعت على خلافة أبي بكر وعمر وعثمان مع عدم القطع بعصمتهم، والإمامية القائلون بذلك لا دليل لهم إلا قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، إذ قالوا: الإمامة عهد الأمة لا ينالها الظالم ولا تناله، وغير المعصوم ظالم.

والجواب: إننا لا نسلم أنَّ غير المعصوم ظالم؛ لأنَّ الظالم من ارتكب معصية مسقطة للعدالة مع عدم التوبة والإصلاح[3].

وهل يشترط فيه أن يكون أفضل أهل زمانه؟

الواقع أن أمر الإمامة مناط بالكفاءة والمقدرة والقابلية والسياسة، ولا يشترط أن يكون أفضل أهل عصره علماً وصلاحاً.

بدليل أن عمر ﷺ قد ترك الخلافة بين السِّتة من الصحابة الكرام، ولا شك أن منهم من هو أفضل من بعض.

ما هي الشروط التي يجب حصولها في الإمام؟

يجب أن تتوافر فيه الشروط الآتية وبعكسها يحصل الخلل في نظام الدولة:

١ – أن تكون له ولاية كاملة ويعني بها توافر ما يأتي:

---

(١) المراد بالأمر الخلافة.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، رقم: (١٨١٨).

(٣) انظر التفتازاني: ص٢٣٨.

أ- **الإسلام**: فلا يكون إمام المسلمين كافراً؛ لأنها ولاية، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

ب- **الحرية**: لا يكون الإمام مملوكاً؛ لأنَّهُ عبدٌ مشغولٌ بخدمة مالكه، إضافة إلى النظرة إليه من قبل الناس.

ج- **العقل**: فلا يكون المجنون أو من في عقله خلل إماماً.

د- **البلوغ**: فالصبي يحتاج إلى من يتولاه فضلاً عن توليه لغيره.

هـ- **الذكورية**: فالمرأة لا تكون إماماً على المسلمين؛ لضعف عاطفتها؛ ولنقصان دينها وعقلها.

٢- أن يحسن سياسة الدولة الداخلية والخارجية، ويكون ذا شوكة تمكِّنُهُ من التَّصرف في الدولة.

٣- أن تكون له الكفاءة العلمية، والقدرة والشجاعة؛ لتنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود والعقوبات، وصدَّ المعتدي، والحفاظ على البلاد وحقوقها[١].

هل ينعزل بالفسق والجور؟

اشتُرِط في الإمام ما تقدَّم من الشروط، وليس منها كونه عادلاً وصالحاً ومعصوماً، وإذا كان تنصيبه لا يحتاج إلى هذا الشرط فطروّ الفسق والجور له أثناء توليه الإمامة لا يعزله من ذلك، فقد سارت الأمة وراء الكثير من الأمراء الذين ظهر منهم ذلك، وقبلوا أوامرهم وأقاموا الجمع والأعياد بإذنهم، ولم يخرجوا عليهم، وهذا رأي الحنفية والحنابلة والمالكية، والراجح من مذهب الشافعية.

هل يجوز تعدد الأئمة؟

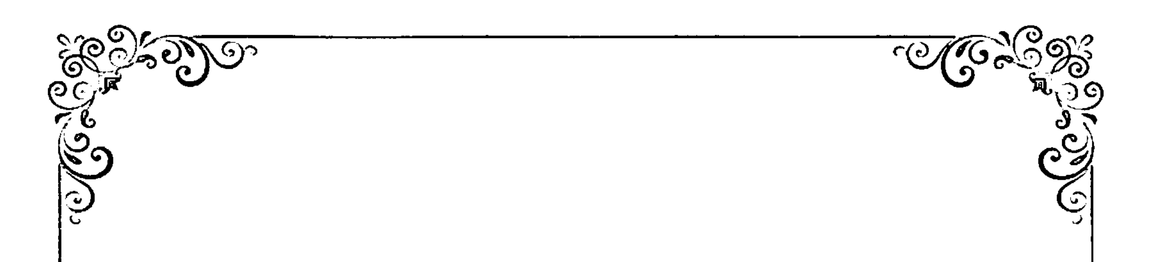
لا يجوز مبايعة أكثر من إمام عام للمسلمين، وإلا فإنَّ ذلك يؤدي إلى شقِّ عصى المسلمين وفرقتهم، وهذا أمر يتنافى مع حكمة نصب الإمام.

(١) يلاحظ شرح المواقف: ج ٣.

إذا تغلب شخص واستولى على السلطة فهل يعتبر إماماً؟

نعم إذا تغلَّب إنسانٌ على السُّلطة والإمامة بدون مبايعة المسلمين، وهو مسلم اعتدَّ به وصحَّ كل شيء يترتب على أمره من أمور الدنيا والدِّين، وكل ما يتوقف على وجوده وإذنه.





الخـــاتمـــة
في ذكر أمور فرعية يتميز بها أهل السنة والجماعة

وتتضمـــن:

١ - جواز الصلاة خلف البر والفاجر وجواز الصلاة عليهما.

٢ - احترام الصحابة وعدم سبهم.

٣- جواز المسح على الخفين.

٤ - حل نبيذ الجرة.

٥ - عدم سقوط التكاليف عن المسلم.

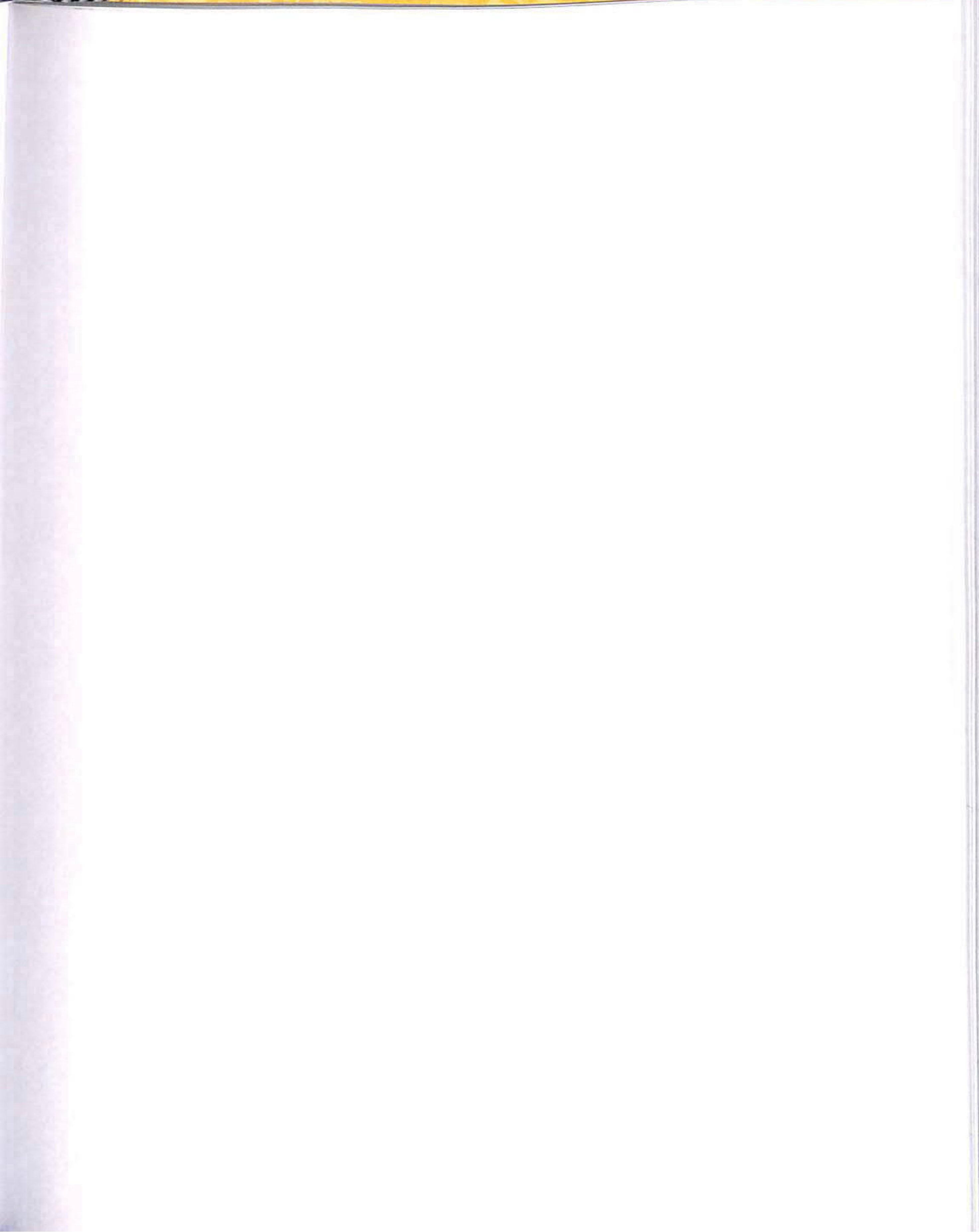
٦ - حمل النصوص على ظواهرها وبيان المفردات.

٧- أمارات الساعة.

٨- المجتهد قد يخطئ وقد يصيب.

٩ - التفضيل بين البشر والملائكة.

١٠ - إنزال الكتب على الأنبياء.



ص: وتَجُوزُ الصَلاةُ خَلفَ كُلِّ بَرٍّ وفَاجرٍ، ونُصَلِّي على كُلِّ برٍّ وفاجر، ونكُفُّ عَنْ ذِكْر الصَّحَابة إلاّ بخَيْر، وَنَشْـهَدُ بالجَنَّة للعشرَةِ الذين بَشَّرهم رسُولُ الله ﷺ بالجَنَّة، ولا نَشْهَدُ بالجنَّة أو النَّار لأحَدٍ بعَيْنه، ونرى المَسْحَ على الخُفَّيْنِ في السَّفَر والحَضَرِ، ولا نُحَرِّمُ نَبيذَ الجَرَّةِ، ولا يَبْلغُ وَلِيٌّ دَرَجَةَ الأنْبيَاء، ولا يَصِلُ العَبْدُ إلى حَيثُ يَسْقُطُ عَنْهُ الأمرُ والنَّهْيُ.

﴿أمور فرعية يتميز بها أهل السنة والجماعة﴾

﴿ ش: المفردات ﴾

بَرّ: اسمُ فاعل من بَرَّ، أصله بَارِرٌ، أسكنت الراء الأولى، وأدغمت في الثانية، وحذف الألف؛ لالتقائها مع الراء المدغمة.

البر: هو الصالح.

الفاجر: هو الفاسق.

النبيذ: هو أن يُنبذ تمر أو زبيب في الماء، فيُجعل في إناء، فيحدث فيه لذة، وذلك بعد ذهاب ثلثيه بالطبخ أو بدون طبخ، ويُشرب قبل غليانه.

الجرة: إناء الخمر، يتخذ من الخزف، أي الطين المشوي.

الشرح الإجمالي:

هذه الأمور والتي بعدها من الأمور الفرعية التي محلها علم الفقه، وليست من باب العقيدة إلا أنه لما بَيّنَ عقيدة أهل السُّنة والجماعة مقارنة بعقائد غيرهم - رأى أن يذكر بعض المسائل الفقهية التي أصبحت من الخواص التي يتميز بها أهل السنة والجماعة؛ لذا سنذكرها فيما يأتي:-

١- تجوز الصلاة خلف الفاجر كما تصح خلف الصالح ما لم يكن مُسْتَحِلّاً لمحرَّم قطعي الدلالة والثبوت، أو علم من الدِّين ضرورة، فعند ذلك يكون كافراً فاجراً فلا تصح خلفه الصلاة.

وكذا خلف المبتدع ما لم تؤد بدعته إلى كفر أو نقص في أركان الصلاة والوضوء وذلك استدلالاً بقوله ﷺ «صَلُّوا خَلفَ كُلِّ بَرٍّ وفاجرٍ وَعَلَى كُلِّ برٍّ وفاجِرٍ»[١]؛ ولأن العلماء صلوا خلف الفسقة.

وإذا ورد نهي بذلك يُحمل على الكراهية لا على عدم الجواز.

كما أننا نصلي على كل ميت مات مسلماً فيما يبدو لنا ولو كان فاسقاً، وذلك لعمل الأمة بذلك؛ حيث كانوا يصلون على تارك الصلاة وعلى الفسقة؛ ولقوله ﷺ «لا تَدَعُوا الصلاة عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ أَهلِ القِبْلة»[٢].

٢- يجبُ الكفَّ عن ذكر الصحابة إلا بما فيه خير وثناء

أما سبُّهم والطعن فيهم والتدخل في نسبة بعضهم إلى الصواب والبعض إلى الخطأ، فحرام قطعاً، ولربما يكون كفراً.

وذلك للأدلة الآتية:-

أ- قوله ﷺ «لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فلوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنفقَ مِثْلَ أحدٍ ما بلَغَ مُدّ أَحدِهِم ولا نصيفَه»[٣].

ب- قوله ﷺ أيضاً: «أكْرِمُوا أَصْحابي فَإِنَّهُمْ خِيَارِكُمْ»[٤].

ج- قوله ﷺ أيضاً: «اللهَ اللهَ فِي أَصْحابي لاَ تَتَخذُوهُمْ غَرضاً مِنْ بَعْدي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ

---

(١) سنن البيهقي الكبرى: ٤/ ١٩، رقم: (٦٦٢٣).

(٢) شعب الإيمان: ٦/ ٥٤٧، رقم: (٩٢٤١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلًا)، رقم: (٣٤٧٠).

(٤) انظر مشكاة المصابيح: ٣/ ٢١٨.

فَبِحُبي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُم فَببغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمِنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَد آذَى الله، وَمَنْ آذَى الله تعالى فَيُوشِكُ مِنْ أَنْ يأخُذَهُ»[1].

أما اتهامهم بالارتداد فإنَّهُ منافٍ لكثير من الآيات والأحاديث التي دلت على رضى الله عنهم، وتبشيرهم بالجنة؛ لأنَّها إخبارٌ من صادق لا تحتمل النَّسخ أو التكذيب.

وإذا ورد من هذا القبيل ما هو منافٍ لنص الآيات الكريمة يكون كفراً كقذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

أما ما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما فما هو إلا مجرَّدُ اجتهادٍ في أمر لا يستدعي أن يكفرهم أحد عليه، وعلى فرض أن معاوية غير مصيب في ذلك فأقصى ما يحكم عليه بالبغي – وهو الخروج على الإمام – والبغي محرَّمٌ وليس بكفر، فلا يوجب اللعنة والطعن فيه.

أما يزيد:

فلم يثبت قطعاً ما يدلُّ على قتله الحسين أو أمره بقتله أو رضاه، وإذا ثبت ذلك فغاية ما ينسب إلى التفسيق لا الكفر وذلك؛ لأَنَّهُ كان يصلي وكان إماماً للمسلمين، وإن كان قتل الحسين كفراً، فالأولى أن يحكم على قاتلي عثمان بالكفر؛ لأَنَّهُ أفضل من الحسين ومع ذلك لم يكفرهم أحد بما فيهم الإمام علي رضي الله عنه.

وعلى فرض كفره فلا داعي لسَبِّه؛ إذ سَبُّ إنسانٍ بعينه لم تجوزه الشريعة، بل يجوز سبُّ الجنس فنقول لعن الله الكافر، ولا تقل لعن الله فلاناً الكافر، ومع ذلك فاللعن إنْ لم يكن فيه إثمٌ فهو خالٍ من الثَّواب فذكر الله أنفع من سب الكافرين.

٣- لا يجوز أن نحكم على شخص بعينه أنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا على وجه العموم[2] والتفاؤل.

---

(١) سنن الترمذي في المناقب، برقم: (٣٨٦٢).

(٢) كأن يقال: المؤمنون المسلمون في الجنة والكافرون في النار.

إلا إذا وردَ نَصٌّ يدلُّ على تبشيرهم بالجنة، أو أخبر بذلك النبي ﷺ فعند ذلك نشهد كما في العشرة المبشرة بالجنة.

إذ يقول النبي ﷺ: «أَبو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وعُمَرُ فِي الجنَّة، وعُثْمانُ فِي الجَنَّةِ، وَعَليٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحةُ فِي الجَنَّةِ، والزُّبَيْرُ فِي الجنَّةِ، وعبْدُ الرحمن بنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّة، وسَعْدُ بنُ أَبي وَقَّاصٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بنُ زَيْد في الجَنَّةِ، وأبو عُبيْدة بنُ الجَراحِ فِي الجَنَّةِ»[١].

وكما ورد أيضاً عنه ﷺ أنه قال لفاطمة ﵂: «أما ترضَين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة»[٢].

وكما ورد أيضاً عنه ﷺ «إنَّ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[٣].

وكما ورد أنه رأى عمرو بن الجموح أنه وطئ الجنة بعرجته، إذ أنه قُتِلَ في معركة أحد فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته»[٤].

٤- إنَّ أهل السنة والجماعة يجوزن المسح على الخفين وذلك رخصة من الله تعالى، وكرهه جماعة من العلماء منهم: علي، وعائشة، وابن عباس، وأبو أيوب، والخوارج، والإمامية، والمجوزون للمسح هم جمهور العلماء، وقد نقل ابن المبارك وابن المنذر الإجماع على ذلك[٥].

---

(١) سنن الترمذي، في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف ﵁، رقم: (٣٧٤٧).

(٢) انظر مشكاة المصابيح: ٣/ ٢٥٤، البخاري باب: الطيب للجمعة، رقم: الحديث: ٣٦٢٤.

(٣) سنن الترمذي، في المناقب باب مناقب الحسن و الحسين -عليهما السلام-، رقم: (٣٧٨١).

(٤) انظر السيرة الحلبية: ٢/ ٢٥٥، صحيح ابن حبان بتحقيق الأرنؤوط: إسناده جيد رقم الحديث: ٧٠٤٢.

(٥) كراهة المسح عند هؤلاء ليس ثابتاً، بل الصحيح النقل عنهم بالجواز وعدم الكراهية. المجموع: ٤٧٨/ ص٢٣٠، روى أبو بكر بن أبي شيبة قال حدثنا عبد الله بن إدريس عن فطر قالَ: قلت لعطاء: إن عكرمة يقول: قال ابن عباس: (سبق الكتاب الخفين)، قال عطاء كذب [أخطأ] عكرمة: أنا رأيت ابن عباس يمسح عليهما، (المشاهد)

وروى أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يمسح على خفيه، الاستذكار لابن عبد البر: (١/ ٢١٨).

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

أ- إنَّ النبي ﷺ خَرَج لحاجته فأتبعه المغيرة بإداوَةٍ فيها ماء، فصبَّ عليه حين فرغ من حاجته، فتوضأ ومسح على الخفين[1].

ب- سُئِلَ سيدنا علي بن أبي طالب ؓ عن المسح على الخفين فقال: «جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيامٍ ولياليهن للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم»[2].

ج- رُويَ عن الإمام علي أنه قال: (لو كان الدِّينُ بالرأي؛ لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه)[3].

د- ويقول الحسن البصري: (أدركت سبعين نفراً من الصحابة يرون المسح على الخفين)[4].

وقد قال أبو حنيفة: ما قلت بالمسح حتى جاءني فيه دليل مثل ضوء الشمس، وقال الكرخي: إني أخاف الكفر على من لا يرى المسح على الخفين[5].

هـ- عن عروة بن المغيرة عن أبيه قال: «كنت مع النبي ﷺ في سفر فأهْوَيْتُ لأنزع خفيه فقال: دعهما فإني ادخلتهما طاهرتين. فمسح عليهما»[6].

واستدل مخالفوا الجمهور:

بعموم قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.

وجه الاستدلال بها عند غير الإمامية هو أن غسل الرجلين جاء عاماً فلا مجال للمسح على الخف.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب المسح على الخفين، رقم: (٢٠٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين، رقم: (٢٧٦).

(٣) انظر مشكاة المصابيح: ١ / ١٦٣.

(٤) يرويه عنه ابن المنذر انظر فتح القدير: ١ / ٩٩.

(٥) التفتازاني: ص٢٤٥.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان، رقم: (٢٠٣).

أما الإمامية فإنَّهم يرون المسح على الرجلين لا على الخفين، وادعوا نسخ الأحاديث الواردة به.

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

١- أما علي وعائشة فقد روي عن شريح بن هاني الحارثي قال: سألت عائشة عن المسح فقالت «ائت علياً - فإنه أعلم بذلك منِّي فاسأله - فأتيت علياً فسألته فقال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن يمسح المقيم يوماً وليلة والمسافر ثلاثاً»[1]، فلو كانت عائشة لا ترى المسح؛ لأنكرت عليه، ولو كان علي لا يقول به؛ لما أجابه.

٢- وأما أبو أيوب فكان لا ينكره، بل يرى أفضلية الغسل ويأمر أصحابه، ويقول: حبب إليَّ الغسل.

٣- وأما عموم الآية فيمكن أن تخصصها السنة بغير لابس الخُفِّ.

٤- أما دعوى النسخ فمردود بما رُوِيَ عن جرير بن عبد الله البجلي «أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل له: تفعل هذا؟ فقال: نعم رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه»[2].

وقد قال جرير: (ما أسلمت إلا بعد نزول المائدة)[3]، وهذا يدل على أن فعل النبي ﷺ متأخر عن آية الوضوء في سورة المائدة، ولا يمكن للمتقدم أن ينسخ المتأخر.

٥- ولا نحرم نبيذ الجرة: مما اتفق عليه المسلمون أنَّ كلَّ شراب يُسْكِرُ فهو حرام، أما النبيذ: وهو ماء ينقع فيه التَّمر حتى يصير حُلْواً ويتأثر بالتمر، فإن اشتدَّ وغَلَى أو شُرِبَ للهوٍ أو لطربٍ فحرام بالإجماع.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ١/ ٢٧٢ رقم: (١٢٠٦) وانظر قول أبي حنيفة في شرح مسند أبي حنيفة، علي القاري: ص٨١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، رقم: (٢٧٢).

(٣) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب المسح على الخفين، رقم: (١٥٤).

ويقدر ذلك بمضي ثلاثة أيام عليه، وإن لم يشتدَّ فقد جوَّزه الحنابلة وأبو حنيفة وأبو يوسف ومالك وحرَّمَهُ الإمام الشافعي ومحمد[1].

واستدل المبيحون:

بما رُوِيَ عن ابن عباس ﷺ أنه يقول: «كان رسول الله ﷺ ينقع له الزبيب فيشربه اليوم والغد وبعد الغد إلى مساء الثالثة، ثم يأمر به فيسقى أو يُهراق»،[2] وغير ذلك من الروايات الدالة على أنه ﷺ كان يشرب نقيع التمر[3].

أما المانعون:

فإنهم قاسوه على الخمر؛ بجامع إطلاق اسم الخمر عليه مجازاً، إذ الخمر حقيقة يُطلق على ما اتخذ من العنب فقط؛ ولما أطلق على النبيذ خمر أخذ حكمه؛[4] ولنهيه ﷺ عن الانتباذ في الجرة، كما رُوي عن أبي سعيد «أنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَى عَنِ الجَرِّ أَنْ يُنْبَذَ فيه»[5].

ويجاب:

أولاً- بالأحاديث السابقة.

ثانياً- إنَّ العلة من تحريم الخمر الحقيقي هو الإسكار، فما دام غيره من الأشربة لا تسكر فلا تحرم، وإن أطلق عليها الاسم مجازاً.

وأما حديث النهي عن الإنتباذ فإنه محمول على ما إذا ترك حتى يسكر، ثم إنه معارض بفعل النبي ﷺ.

---

(١) انظر المغني لابن قدامة: ٩ / ١٧٠، وفتح القدير: ٨ / ١٦٠، والمدونة الكبرى: ٤ / ٤١١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب إباحة النبيذ الذي لم يشتد ولم يصر مسكراً، رقم: (٢٠٠٤).

(٣) أنظر: صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب نقيع التمر ما لم يسكر.

(٤) يلاحظ حاشية البجيرمي على شرح الخطيب: ٤/ ١٥٦.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب النهي عن الانتباذ في المزفت والدباء والحنتم والنقير و بيان أنه منسوخ وأنه اليوم حلال ما لم يَصِرْ مسكراً، رقم: (١٩٩٦).

٦- لا يبلغ العبد من غير الأنبياء مهما بلغ من التقوى والصلاح إلى درجة الأنبياء، إذ النبي معصومٌ عن الذنب، وعن سوء الخاتمة، وغيره ليس كذلك.

ثم إنَّ النبي مكرَّمٌ بمشاهدة الملك بالوحي، ويتَّصِفُ بكل أوصاف الأولياء، وهذا لا مخالف فيه إلا الكرامية، فإنّهم جوزوا كون الولي أفضل من النبي، وهو كفر.

هل الولاية أفضل أو النبوة؟

لا شك أن النبي يجمع بينهما ولكن أيهما الأفضل؟

فذهب جماعة: إلى أن النبوة أفضل من الولاية؛ لأنها عِلْمٌ وتكميل للغير، وهناك أحاديث تدلُّ على فضل العالم على العابد.

وذهب آخرون إلى العكس، وقالوا: إنَّ الولاية معرفة الله، وتقرُّبٌ إليه، وصفاء القلوب.

٧- ومهما بلغ الإنسان من الصلاح والكمال والتقوى لا يمكن أن تسقط عنه التكاليف الشرعية من أوامر ومناه.

وذلك لما ورد من عموم الخطابات الواردة في التكليف؛ ولإجماع المجتهدين على ذلك.

وقد ذهب بعض الإباحيين: إلى أن العبد إذا بلغ غاية المحبة والصفاء سقط عنه الأمر والنهي، ولا يدخل النار بارتكابه المنكرات.

وذهب البعض إلى إسقاط العبادات الظاهرة عنه، وتكون عبادته التفكير فقط، وكل هذا كفر؛ إذ لو جاز ذلك؛ لكان الأنبياء هم أول من تسقط عنهم التكاليف والأمر على العكس، إذ تكاليفهم قد تكون أكثر من الأمة وهم في غاية المحبة والصفاء.

قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

أي استمر على العبادة إلى أنْ يأتيك الموت التي تظهر فيه المغيبات يقيناً.

وأما ما ورد من قوله ﷺ: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»[1]، فإنْ صح الحديث فرضاً فيمكن حمله بأنه لا يقع منه الذنب فلا يضر به، أو أنه يسارع إلى التوبة وعندئذ لا يضره إذ التوبة مكفِّرة له.

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس: ١/ ١٧٠ برقم ٢٤٣٢، والقشيري في الرسالة: ١/ ٤٤، وهو حديث ضعيف.

ص: والنُّصُـوصُ تُحْمَلُ علىَ ظَوَاهِرِهَـا، والعُدُولُ عَنْهَا إلى مَعَـانٍ يدَّعِيهَا أهْلُ البَاطن: إلحادٌ وكُفْرٌ، وردُّ النُّصُوصِ كُفْرٌ، واسْتِحْلالُ المعصيةِ كُفْرٌ، إذا ثَبَتَ كَوْنها مَعْصِيةً بدليلٍ قَطْعِي، والاسْـتهَانَةُ بها كُفْرٌ، والاسْتِهْزَاءُ علىَ الشَرِيعَةِ كُفْـرٌ، واليَأسُ كُفْرٌ، والأمْنُ مِـنْ مَكْرِ اللهِ تَعَالَى كُفْـرٌ، وَتَصْديقُ الكاهِنِ بِما يُخْبِرُ بِهِ عَنِ الغَيْبِ كُفْرٌ.

أمور ارتكابها يؤدي إلى الكفر

ش: المفردات

النصوص: يُراد بالنص هنا لفظ الآية أو الحديث، لا ما يقابل الظاهر والمفسَّر والمُحْكَم.

إلحاد: ميلٌ وعدولٌ عن العقيدة الإسلامية.

الاستهزاء: التهكم بها، ومن ذلك اعتقاد أنها غير صالحة لتنظيم الحياة، أو تفضيل أنظمة أخرى عليها.

الاستهانة: التقليل من مكانتها، أو النظر إليها نظرة احتقار.

استحلال المعصية: أي الاعتقاد بحلِّها، وذلك إذا ثبت بدليل قطعي الثبوت والدلالة أو علم من الدين حكمه ضرورة.

اليأس: هو انقطاع الرجاء من رحمة الله أو فرجه.

الأمن: هو الاعتقاد بأن الله سوف لا يعذِّبُ أحداً ولا يحاسب أحداً.

الكاهن: الذي يخبر عن أفعالٍ بأنها ستقع مستمداً ذلك من إخبار الجنِّ له أو التكهن ويدعي بذلك أنه يعلم الغيب.

الشرح الإجمالي:

هذا الموضوع اشتمل على أمرين:

أحدهما: عدم جواز تفسير النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بمعانٍ تتنافى مع القواعد العامة للعقيدة أو للتعاليم الإسلامية، مثل تفسير الصيام بأنه كتمان الأسرار.

أما إذا كان ظاهر النَّص يتنافى مع أمور اعتقادها يُخلُّ في العقيدة كتجسيد الإله فلا بد من تأويله عن ظاهره، فمثلاً الآيات التي تدلُّ على الجسمية لله تعالى: كالعين، واليد، والاستواء، لا بدَّ من حملها على غير ظواهرها؛ إذ ربنا منزَّهٌ عن الجسمية، فلا مانع من حمل العين على العناية، واليد على القوة وهكذا، وهذا تأويل مستساغ.

أما التأويل الممنوع: فمثل ما فَسَّرَ به بعض المفسرين المعاصرين قوله تعالى ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (بأنه مرض الجدري).

بقي شيء آخر: وهو التفسير الإشاري الذي يفسِّرُ به السادة الصوفية، والذي يحمل شيئاً من الدقائق اللَّطيفة مع الاعتراف بتفسير الآية الظاهر، وعدم تعارضه معه، فهو جائز ومقبول؛ إذ يقول النبي ﷺ: «إنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً وحدَّاً ومطلعاً»[1] وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤][2]، يُفهم منه: أنَّ محبة الله إذا دخلت قلب عبدٍ استولت عليه، ولم تدع مدخلاً لغير الله فيه، فيفسد القلب عن كل شيء سوى الله.

ومثل قوله عليه الصلاة والسلام: « لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ »[3]، أي لا تدخل الملائكة القلب الذي فيه الغضب، والشهوة، والعجب، والحسد، والكبر، والحقد.

---

(١) أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود.

(٢) وهنا أولوا الملوك بالمحبة والقرية بالقلب وإفساد القرية بإفساد القلوب عما سوى الله.

(٣) حيث قد أولوا البيت بالقلب، والكلب بهذه الخصال الذميمة. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم: (٣٧٨٠)، وصحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب مكى تحريم تصوير صورة الحيوان، وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه، وأن الملائكة -عليهم السلام- لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب، رقم: (٢١٠٦).

ومثل تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ [يس: ٦٨]، أي من نجعل قلبه عامراً بالإيمان واليقين، أو إن نعمِّر مكانَتَهُ عندنا نقللها عند الخلق، ونجعل الناس تنظره نظرة استهوان.

ومثل: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩][١]، فيها إشارة إلى أن القلب النَّجِس لا يُدرِك معاني القرآن ولطائفه الدقيقة ولا يَمَسُّها، كما أن الجسم غير الطاهر لا يمس القرآن الظاهري المادي.

ثانيهما: أنه سَرَدَ جملةً من الأمور التي يحكم على مرتكبها وفاعلها ومعتقدها بالكفر والرِّدَّة ويضاف إليها أمور أخرى يمكن مراجعتها في أبواب الفقه المختصة بها، وذكر هنا من جملتها تصديق الكاهن بما يخبر عن الغيب.

لأجل ذلك ينبغي علينا أن نفرِّق بين تصديق الكاهن، والولي المكاشف، وبين المنجم:

أ- التكهن يقع من نفس فاسقةٍ أو شريرةٍ وبواسطة الجنِّ أو بواسطة ممارسته فهما معيناً وقد يخطئ أو يكذب في أخباره وأحياناً يخبر عن مغيب نتيجة المجاهدة ومكابدة النفس والرياضة النفسية فَيُكْشَفُ له بعض الأسرار.

ب- الكَشْفُ من الولي يكون بواسطة إلهام من الله تعالى؛ لصفاء قَلْبه، ونظافة سريرته؛ وذلك لأنَّ فراسة المؤمن تجعله ينظر بنور الله كما ذكرنا سابقاً عن حادثة سيدنا عمر وسارية[٢].

وكما وقع لسيدنا عثمان إذ دخل عليه ذات يوم رجل قد نظر إلى امرأة أجنبية قبل دخوله عليه فقال: (يَدْخُلُ أحدكم عليَّ وفي عينيه أثرُ الزنى، فقال له أنس: أوحيٌ بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال: لا، ولكن برهان وفراسة وصدق)[٣].

---

(١) في قراءة.

(٢) تقدمت في بحث كرامات الأولياء.

(٣) ينظر تفسير القرطبي في تفسير سورة الحجر: ١٠/ ٤٤، آية (٧٥).

ومع هذا فقد ذكرنا في بحث الإلهام أنه ليس سبباً للعلم، ولا مصدراً للتشريع إن وقع من غير الأنبياء.

ج- التنجيمُ إن كان إخباراً بالغيب فهو كفر، وإن كان على أساس احتساب سَيْرِ النجوم والشمس والقمر، وحركة الأفلاك والإطِّلاع على أنواء الجو بطريقةَ علمية فنية، والإعلام عن وقوع حادث فلكي في ضوء هذا العلم فإنَّه جائز، مع الاعتقاد أن مسير الكون وخالق الأشياء والأسباب هو الله تعالى.

ص: والمَعْـدُومُ لَيْسَ بِـشَيء، وفي دُعاء الأحياء للأمـوات وصدَقَتِهَم عَنْهُمْ نَفْعٌ لَهُمْ، والله تعالى يُجِيبُ الدَّعَواتِ ويقْضِي الحَاجَاتِ.

هذه جملة من الأمور التي تتميز بها عقيدة السنة:

ش: المفردات

المعدوم: ضد الموجود.

الشيء: معناه الموجود.

الشرح الإجمالي:

١ - المعدوم:

هل يسمى شيئاً؟ وهل يكون مرئياً لله تعالى؟

أولاً- المعدوم على نوعين:

النوع الأول: مستحيل وجوده كشريك الباري، فهذا مما أجمع الكلُّ على أنه لا يسمى شيئاً مرئياً.

النوع الثاني: ما يمكن وجوده وعدمه، كابن زيدٍ الذي لم يولد، وهذا الخلاف فيه فذهب أهل السنة والجماعة إلى عدم إطلاق لفظ الشيء عليه وأنه غير مرئي.

واستدل الجمهور بما يأتي:

١ - إن المعدوم نفيٌ محضٌ وليس بشيء، وإنما تطرأُ عليه الشَّيئية إذا وجد.

٢ - إن الشَّعْرَ الأسود بياضه معدوم في الحال، فإنْ كان البياض مرئياً في الحال، فلا بدَّ من أن يكون الله رائياً له في هذا الشعر أو في شعر آخر في محل آخر أو لا في محل.

فإنْ رآه في هذا الشعر فيلزم أن يراه أسود أبيض في حال واحد وهو محال، وإن

رآه في محلٍّ آخر يلزم أن يكون المتَّصف بالبياض هذا المحل لا الأول، وإنْ رآه لا في محلٍّ فهو محالٌ، والمحالُ ليس مرئياً إجماعاً"[1].

٣- قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

وجه الاستدلال بها – أنه نفى الشيئية قبل خلقه.

٤- قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وجه الاستدلال بها – أن رؤية العمل ستكون بعد ظهور العمل لا قبله.

واستدل المعتزلة بما يأتي:

١- قالوا: إنَّ العالم مرئي لله تعالى قبل وجوده؛ لأنَّ الرؤية صفة من صفات الله فينبغي أن تكون متعلِّقة بالعالم الموجود منه والمعدوم؛ لأنَّها إن لم تكن كذلك كانت قاصرة وناقصة، والله تعالى يجب أن ينزه على النقائص.

ويجاب عن هذا:

بأنا لا نسلم أن القصور يتطرق الى هذه الصفة بعدم رؤيته تعالى المعدوم؛ لأنَّ المفروض أن تعمَّ صفاته ما لا يستحيل، فخروج المستحيل عنها ليس نقصاً.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وجه الاستدلال بها – أنَّ زلزلة الساعة معدوم الآن، وقد أخبر عنه بالشيئية.

والجواب على هذا من وجهين:

- **أولهما**: إن إطلاق الشيء عليها بناءً على تحقق وقوعها فكأنَّها موجودة.
- **ثانيهما**: إن إطلاق الشيئية عليها بعد وجودها، أي بعد حصول الزلزال تكون شيئاً عظيماً لا الآن[2].

---

(١) لاحظ نثر اللآلي: ص ٢٢٦.

(٢) والحقيقة: أنه خلاف لا علاقة له بالعقيدة، ولا يخدم الدِّين شيئاً، ولولا أني التزمت شرح المتن، ولا بدَّ أن أنسجم مع مواضيعه؛ لما طرقت باب أمثال هذه الخلافات.

ثانياً- هل الدعاء للأموات وإهداء الثواب والصدقة عنهم ينفعهم؟

اختلف العلماء في ذلك على رأيين:

فذهب الجمهور إلى أن الميت ينفعه الدعاء وثواب الصدقة والعبادات الأخرى.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١- وقع في القرآن الكريم الدعاء للأموات المسلمين السابقين بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، والذين سبقوهم بالإيمان أموات وليسوا أحياء.

٢- كان النبي ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيِّتِ ، وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ » رواه أبو داود[١].

٣- صلاة الجنازة ما هي إلا دعاء واستغفار للميت.

٤- وقوله ﷺ « مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ »[٢].

٥- عن عائشة ﵂ أَنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: «إِنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَأُرَاهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ أَفَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا، قَالَ: نَعَمْ تَصَدَّقْ عَنْهَا» متفق عليه[٣].

٦- وقوله ﷺ « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »رواه مسلم[٤].

٧- وقوله ﷺ: « دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم: (٣٢٢٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب من صلى عليه مائة شفعوا فيه، رقم: (٩٤٧).

(٣) افتلتت نفسها - أي ماتت. صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب ما يستحب لمن يتوفى فجأة أن يتصدقوا عنه وقضاء النذور عن الميت، رقم: (٢٦٠٩).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم: (١٦٣١).

كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ »[1]، وهو عام في الميت وغيره، إذ الميت غائب والدعاء له يكون بظهر الغيب من باب أولى.

٨- إنه ﷺ أتى بكبش فذبحه بيده وقال: « بِسْمِ اللهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي »[2].

٩- مشروعية الحجِّ عن الميت كما ورد في الأحاديث الصحاح، والأدلة في هذا المجال كثيرة لا مجال لإنكارها أو إنكار فائدة الدعاء والصدقة للميت.

وذهبت المعتزلة:

إلى أن الدعاء والصدقة لا تنفعان الميت:

واستدلوا بما يأتي:

١- بقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فالإنسان مرهون بكسبه لا بكسب غيره.

ويجاب عن هذا:

بأن النفس مرهونة بما كسبت من السيئات، فلا علاقة للآية بالثواب والحسنات التي تهدى للميت.

٢- إن الله قضى على الميت إمَّا بالعذاب وإمَّا بالمغفرة، وقضاء الله لا يبدل فلا ينتفع منه الميت.

ويجاب على هذا أن القضاء على نوعين:

أ - مبرم: لا يمكن تغييره، وهو أمر لا نعلمه ولم ينكشف لنا.

ب - ومعلق: من باب السبب والمسبب، أي أن الله قد يعلِّق رحمته على صدقةٍ معيَّنة أو دعاء معين وهذا ينتفع منه الميت.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم: (٢٧٣٣).

(٢) سنن الترمذي، في كتاب الأضاحي، رقم: (١٥٢١).

٣- ربما يستدل على عدم انتفاع الميت بالحديث المتقدم وهو: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله» ويقولون: إن العمل لا ينفع الميت إذ قد انقطع عمله، فنقول: إنَّ نصَّ الحديث يدل على انقطاع عمل الميت نفسه إلا من ثلاث، وفعلاً أنه إذا مات لا يتمكن من العمل، ولم يدل الحديث على انقطاع عمل غيره عنه، إذ الضمير في عمله يعود إلى الميت والحصر جاء على عمل الميت فقط.

٤- وأحياناً يستدلون بقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، فسعي غيره ليس له.

ويجاب على هذا بما يأتي:

١- إنها منسوخة؛ لما روي عن ابن عباس ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فجعل الولد الطفل الصغير في ميزان أبيه.

وهذا على رأي من يجوز النسخ في الأخبار.

٢- منها أنها مخصوصة بالكافر والمنافق؛ لأنَّ المؤمن قد وردت أحاديث تدل على انتفاعه.

٣- منها أن الإنسان يراد به أبو جهل، أو عتبة بن أبي معيط، أو الوليد بن المغيرة الميت على كفره.

٤- إن الإنسان بسعيه في الخير وصحبته ومعاشرته اكتسب الأصحاب وأهدى لهم وتودد إليهم، فصار ما يحصل من ثوابهم بعد موته من سعيهم كأنه سعى إليه بنفسه خصوصاً وأن علاقة الإيمان هي صلة قوية فهو المتسبب لإهداء عمل الغير إليه.

٥- يحتمل حمل اللام على معنى (على) مثل «وإن أسأتم فلها» ومثل لهم اللعنة، أي فعليها وعليهم اللعنة[1].

---

(١) تلاحظ رسالة هداية المرتاب في جواز إهداء الثواب، للشيخ محمد أمين ملا يوسف الموصلي.

٦- على أنّ سياق الآية هو قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٣٩]، يدل على أن هذا شَرْعُ من قبلنا، وشرع من قبلنا شَرْعٌ لنا على رأي الجمهور إلا إذا ورد ما ينافيه، وفي هذه المسألة وردت أدلة تنافي هذا الحكم إذن فليس شرعاً لنا.

٧- وذهب البعض إلى القول بانتفاع الميت بالدعاء والصدقة دون غيرهما من ثواب العبادات الأخرى.

ويجاب: بأنه سبق أن وردت أدلة في الحج والأضحية عن الميت، وما دام ثواب الصدقة ثبت وصوله فثواب العبادات الأخرى يصل؛ إذ لا فرق بينهما، على أن إهداء الثواب هو دعاء للميت بإيصال الثواب إليه، والدعاء لهم يقولون باستفادة الميت منه فكما يستجيب الله طلب المغفرة للميت يستجيب الدعاء بإهداء الثواب الحاصل من العبادات الأخرى كثواب قراءة القرآن وثواب الصوم والصلاة والذكر ونحوها[1].

ومع كل هذا فإنها مسألة خلافية لا يجوز أن يجعلها المسلمون سبباً؛ لإحداث النزاع والاختلاف، وحصول الجدل فيما بينهم، ولا يلزم منها تكفير من ينكر وصول الثواب أو تكفير من يقول بوصوله.

ثالثاً- هل ينفع الدعاء بدفع الشر أو جلب الخير؟

اختلف العلماء في نفع الدعاء للحي والميت:

فذهب جمهور العلماء: إلى أنه ينفعُ ويستجابُ ويغير من أحوال الإنسان إن كان بخالص النية، وتوجه القلب، ومن لسان طاهر من الذنوب، ومن جوف خالٍ من الحرام.

واستدلوا على ذلك بكثير من الآيات والأحاديث الدالة على ذلك:

منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ص٥١٧.

ومنها قوله ﷺ: « لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ » قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: « قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ »[1].

ومنها قوله ﷺ: « إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا »[2]، وقد تقدم ما فيه كفاية من الأدلة الدالة على الانتفاع بالدعاء للميت.

ثم إن الدعاء: هو عبادة بحد ذاته فلا يخلو إذن الدعاء من أحد أمور، إما خير يعجَّل، أو شرٌّ يدفعُ، أو خيرٌ يؤجل، أو ثواب يصيب الإنسان؛ لتضرعه وانكساره أمام الله.

وذهبت المعتزلة:

إلى أنه لا ينفع؛ لأنَّ الله قد قضى على كل إنسان عاقبته، والدعاء لا يغير شيئاً من القضاء.

والجواب: ما قلنا سابقاً أن القضاء منه مبرم ومنه معلق، قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]، فالله يغير ما في اللوح المحفوظ ولكن لا يغير في أم الكتاب، وهي علم الله الأزلي فقد يكون الأمر مكتوباً في اللوح ويغير بعد دعاء أو صدقة إذا كان معلقاً عليها.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجب لي، رقم: (٢٧٣٥).

(٢) سنن أبي داود، أبواب فضائل القرآن، باب الدعاء، رقم: (١٤٨٨).

ص: وما أَخْبَرَ بِهِ النَّبِي ﷺ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ:

مِـنْ خُرُوجِ الدَّجَـالِ، ودَابَّـةِ الأَرْضِ، ويأْجوجَ ومَأْجُوجَ، ونُزولِ عِيسـى عليه السلام، وطلوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا: حَقٌّ.

آمارات قيام الساعة

ش: المفردات

أشراط الساعة: علامات قربها، والساعة: هي قيام القيامة وانتهاء هذه الدنيا.

والساعة وقتها لا يعلمه إلا الله، ولم يخبر النبي ﷺ ولا القرآن عنها، بل عن اشراطها.

الدجَّال: معناه لغة الكذَّاب، ويراد به هنا الرجل الذي أخبر عنه الرسول ﷺ بأنه يظهر في آخر الزمان؛ ليضل الناس.

دابة الأرض: دابة طويلة جداً لا يُدركها طالب، ولا يفوتها هارب، لها أربع قوائم وريش وجناحان يستمر خروجها من الأرض ثلاثة أيام لطولها تخرج من اليمن[1].

يأجوج ومأجوج: رجلان من أولاد يافث[2] بن نوح، كَثُرَ نسلهما وسميت الذرية بذلك لكثرتهم؛ لأنَّ بعضهم يموج في بعض.

الشرح الإجمالي:

هذه خمس علامات من علامات الساعة وهي أبرزها، وإن كانت كثيرة إذ منها ولادة المصطفى ﷺ.

---

(١) في الحقيقة أننا نؤمن بخروجها، وأنها تكلم الناس كما ورد بذلك نص القرآن، ولسنا مكلفين بوصفها ونوعها.

(٢) نوح له أربعة أبناء: أحدهم: كافر وقد غرق، وهو كنعان، والثاني؛ يافث أبو ياجوج وماجوج والترك، والثالث: حام أبو السود من البشر ،والرابع: سام أبو البيض والعرب والعجم والروم.

ومنها خروج دخانٌ يملأ ما بين السماء والأرض، يصيرُ المؤمن كالمزكوم والكافر كالسكران، على أن بعضهم قال قد حصل حينما أنزل الله القحط على قريش حتى صار أحدهم يرى السماء كالدخان من الجوع.

ومنها خروج نار تخرج من اليمن تسوق الناس إلى محشرهم وغير ذلك من الأَمارات.

ونحن نتكلم بإيجاز عن كل واحدة من الأمارات الخمس التي ذكرها المصنف والتي بلغت درجة القطع واليقين.

أولاً- ظهور الدجال:

الدجَّال يهودي الأصل، يظهرُ من جهة الشرق، فيدَّعي بين الناس الصلاح والاستقامة، ثم يدعي الألوهية ويتبعه كثير وأكثرهم اليهود، عَيْنُهُ اليمنى عوراء جاحظة وطافية بشكل منكر؛ ولهذا أطلق عليه المسيح؛ لأنَّ إحدى عينيه ممسوحة، لا يولد له يطوف في الأرض ولا يدخل مكة والمدينة، مكتوب على جبهته (كافر) يتبينها كل مسلم.

ومن جملة ما يكذب ادعاءَهُ الألوهية أنه لو كان كذلك؛ لأَحسن خلقته قبل أن يحسن خلقة غيره؛ ولرفع من جبهته ما هو مكتوب عليها، ولذلك يقول ﷺ: « إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ »[1]، يكون قتله على يد عيسى عليه السلام.

وقد وردت في الصحاح أحاديث كثيرة تدلُّ على ظهوره نقتصر منها على الحديثين الآتيين:

١- روى الشيخان وغيرهما عن حذيفة أن عقبة قال له: «حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ في الدجال فقال: إِنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ، وَإِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَاراً، فَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءً، فَنَارٌ تُحْرِقُ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا، فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَاهُ نَارًا، فَإِنَّهُ مَاءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ »[2].

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي، رقم: (٢٨٩٢).

(٢) المصدر السابق، كتاب الفتن واشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم: (٢٩٣٤).

٢- روى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم حديثاً عن الدجال، وإليك مختصراً من الحديث، حيث يقول في وصفه: «إنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ فواتح سورة الكهف، إنه خارج من خلة بين الشام والعراق (أي في طريق بينهما) فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا: قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول الله: فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره قلنا يا رسول الله: وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزأين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين (أي بين ثوبين أو حلتين تضربان إلى الصفرة) واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفع تحدر منه مثل الجمان فيطلبه (أي يطلب الدجال) حتى يدركه بباب لد فيقتله»[1].

والله تعالى يمده بهذه الخوارق امتحاناً للناس ليتبين الثابت على العقيدة من المتزعزع.

ثانياً- دابة الأرض:

نطق القرآن بها والأحاديث:

١- إذ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

٢- وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: «حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجاً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم: (٢٩٣٧).

مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحىً، فَأَيَّتُهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا»[١].

٣- وروى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: طلع علينا النبي ﷺ ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة قال: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ »[٢].

ثالثاً- يأجوج ومأجوج:

بيَّنا سابقاً بأنَّهما اسما رجلين، والآن يطلقان على أمة كبيرة من الناس سيخرجون على حين غفلة، ويأتون من كل حَدَبٍ، ويفسدون في الأرض، ويدمرون المنتوجات، ويمر أولهم ويشرب من بحيرة طبرية، فإذا مَرَّ آخرهم يقولون: كان في هذه ماء، وقد نطق الكتاب العزيز بوجودهم، وأخبرت السنة النبوية بهم، فهم من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها، وإنكار وجودهم ردٌّ لنص صريح من القرآن الكريم.

أما صفتهم ونوعيتهم فلم نكلَّف بمعرفتها، والخوض في تشخيصها، بل علينا الإيمان بما نطقت به النصوص فقط.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۞ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦-٩٧].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض، ونزول عيسى وقتله إياه، وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان، والنفخ في الصور، وبعث من في القبور، رقم: (٢٩٤١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، رقم: (٢٩٠١).

فالآية تتحدث عن وجودهم وكيفية غزوهم العالم، وأنَّ خروجهم علامة على قرب القيامة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤].

ومن ذلك ما روى الشيخان وغيرهما عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ: «استيقظ من نومه، وهو يقول:«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ عَشَرَةً، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ »[1]، ومثل حديث حذيفة بن أسيد السابق وغير ذلك من الأحاديث.

رابعاً- نزول عيسى عليه الصلاة والسلام:

عيسى بن مريم: هو رسول الله إلى بني إسرائيل؛ ولأنَّه جاء ببعض التشريعات التي تخالف التوراة حقد عليه اليهود فتآمروا على قتله، وجاؤوا إلى الدار التي هو فيها فأدخلوا أحدهم؛ ليقتله ووقف الباقون خارج الباب، فلما دخل عليه رفعه الله بجسمه[2] إلى السماء، وألقى شبهه على وجه الرجل الداخل، ولما خرج صاحبهم مسكوه ظانين أنه عيسى فقتلوه رغم قوله لهم: إني صاحبكم، ثم دخلوا إلى الدار؛ ليفتشوا عن صاحبهم فلم يجدوه، فقالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ وعندما نظروا إلى جثمان القتيل شاهدوا وجهه وجه عيسى وجسمه جسم صاحبهم؛ ولذلك يقول الله في تصوير هذا الحدث: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن واشراط الساعة، باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم: (٢٨٨٠).

(٢) بعد أنْ عرَّاه من العوارض البشرية التي تحتاج إلى المأكل والمشرب.

ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۞ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٩].

وقد أنكر جماعة حياته ورفعه بجسمه[1].

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، واعتبروا الوفاة بمعنى الموت وأولوا قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، رَفعَ روحٍ ودرجة.

ويجاب على ذلك:

بأن الآية نطقت بالوفاة وكلمة (وَفّى) أعم من (مات) إذ الموت أحد جزئيات الوفاة؛ لأنَّ معنى الوفاة لغة أخذ الشيء وقبضه تماماً، يقال: وفيت حقه أي أعطيته حقه كاملاً، وهنا قد وفاه بقاءه في الأرض ورفعه إليه، وإطلاق الوفاة على الموت كما يستعمله عامة الناس مجاز من باب إطلاق العام على الخاص وإلا لقال إني مميتك كما قال لسيدنا محمد ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وحمله على الأعم وهو الحقيقة هنا أولى حتى لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧]، وموته على رأي القائلين بذلك كان قتلاً.

وأما رفعه روحاً ودرجة:

فإن كان المراد من الآية ذلك فلماذا قيد رَفْعَهُ الدرجة بحال الصلب أو القتل؟ ألم يكن مرفوع الدرجة قبل ذلك؟ ثم إن رفع الروح ليس خاصاً بعيسى حتى يذكره الله هنا في معرض المدح بل يشاركه فيه غيره فأغلب الأرواح ترفع إليه تعالى مكانة، ثم إن عيسى ينزل بعد من السماء إلى الأرض، بالصفة التي ذكرناها سابقاً والتي نص عليها الحديث الذي سقناه دليلاً لظهور الدجال فيقتل الدجال، ويدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويرفع الجزية أي لم يقبل الجزية؛ إما الإسلام، وإما الحرب، ويمكث في الأرض

(١) أمثال الشيخ محمد عبده، والشيخ شلتوت، اللذين حاولوا تأويل الخوارق والمعجزات بما يخالف ظاهر النصوص.

أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون، والأصل بالنُّزول أن يحمل على ظاهره، وهو نزول الجسم إذ الحقيقة هنا ليست مستحيلة.

وقد وصفه ﷺ بأنه مربوع القامة، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران وهذه صفات خاصة بالجسم.

وأبرز آية تدل على نزوله قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، أي إن نزول عيسى من أعلام الساعة إذ الضمير يعود إلى عيسى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، فالضمير يعود في قوله (قبل موته) إلى عيسى.

يؤيد ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما بطرق مختلفة كثيرة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده يوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبلهُ أحد، حتى تكون السجدةُ الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

وهناك كثير من الأحاديث في الموضوع مما جعلته يكسب التواتر في المعنى وإن كانت أفرادها آحاداً.

خامساً- طلوع الشمس من مغربها:

وهي حادثة صرحت بها السنة صراحة وأشارت إليها الآية القرآنية إشارة.

أما السنة: فهي ما روي عن النبي ﷺ في الحديث الذي ذكرناه عن حذيفة بن أسيد في الاستدلال على دابة الأرض حيث قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[2].

---

(١) يلاحظ تفسير ابن كثير: ٣/ ١٣٢: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام رقم:: (٣٢٦٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها، رقم: (٦١٤١).

أي أن الناس صباحاً بينما هم ينتظرون شروقها من المشرق وإذا بها تبرز من المغرب وذلك بانعكاس دوران الأرض إلى جهة أخرى غير معتادة ويكون تمهيداً لخراب هذه الدنيا.

وأما الآية المشيرة إلى ذلك فهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فعند ذلك يسد باب التوبة عن الكفر وعن المعاصي.

فقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾[1] قال: طلوع الشمس من مغربها.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٣٢، ويلاحظ هناك الروايات الدالة على ذلك.

ص: والمُجْتَهِدُ قَدْ يُخْطِئُ وَقَدْ يُصِيبُ.

هل كل مجتهد مصيب

ش: المفردات

المجتهد: هو الذي توافرت به شروط الاجتهاد، والتي نصَّ عليها علماء أصول الفقه، وقد بذل قصارى جهده؛ للتوصل إلى الحق، وإليك بإيجاز شروط المجتهد:

١. أن يكون بالغاً.

٢. أن يكون عاقلاً.

٣. أن يكون فقيه النفس.

٤. أن يكون عارفاً بالدليل العقلي والتكليف به.

٥. أن يكون ملماً بمعرفة العلوم العربية واللغوية والأصول والبلاغة.

٦. أن يكون عالماً بآيات الأحكام وأحاديثها.

٧. أن يكون عالماً بالناسخ والمنسوخ، ومواقع الإجماع، وأسباب النزول، وشروط المتواتر، والآحاد، والضعيف، والصحيح، وحال الرواة[1].

الشرح الإجمالي:

اختلف علماء المسلمين في المسائل التي لم يظهر فيها دليل قاطع لحكمها هل كل مجتهد فيها مصيب أو المصيب واحد فقط؟

(١) لاحظ المحلي على جمع الجوامع: ٢ / ٣٨٣ - ٣٨٤.

إلى أربعة مذاهب:

١- ذهب عامة المعتزلة - إلى أنَّه لا حكم في المسألة قبل الاجتهاد، بل الحكم ما أدى إليه رأي المجتهد.

٢- وذهب طائفة من المتكلمين والفقهاء إلى أنَّ الحكم معيَّنٌ ولا دليل عليه.

٣- وذهب طائفة من المتكلمين إلى أن الحكم معين وعليه دليل قطعي والمجتهد يطلبه.

٤- إن الحكم معيَّن وعليه دليل ظني إن وجده المجتهد أصاب وإن فقده أخطأ.

فمن قال: إنه لا حكم بالمسألة قبل الاجتهاد - اعتبر أنَّ كلَّ مجتهد مصيب، ومن ذهب إلى وجود الحكم قبل الاجتهاد - اعتبر المصيب واحداً وغيره مخطئ، وهذا الذي أخذ به المصنف.

واستدل عليه بما يأتي:

١- قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، والضميرُ يعود إلى الفتوى[١]، فلو كان كل مجتهد مصيباً؛ لما كان لتخصيص سليمان بالذكر جهة، فلكون الإصابة مع سليمان خَصَّهُ بالذكر.

٢- وردت الأحاديث الدالة على وجود الخطأ والصواب في الاجتهاد، مثل قوله ﷺ: «إذا حَكَمَ الحَاكِمُ فاجتهد ثمَّ أصابَ فَلَهُ أجْرَانِ، وإذا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فلَهُ أجْرٌ»[٢].

٣- إن الاجتهاد غالباً ما يكون قياس مسألة مستجدة على أخرى، فالثابت به كأنه ثابت بالنص الذي اعتمده الأصل، والحقُّ فيما يثبت بالنص واحد لا غير.

---

(١) الفتوى هي: أنَّ غنم قومٍ أفسدت زرع آخرين، فترافعا إلى سيدنا داود، فحكم بإعطاء الغنم لأهل الحرث عوض ما فسد من الزرع، وكان سليمان عمره إحدى عشرة سنة، فقال -غير هذا الحكم-: أَرْفَق بالفريقين أرى أن تدفع الأغنام إلى أهل الأرض ينتفعون بألبانها وأولادها، ويدفع الحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه إلى أن يعود إلى ما كان ثم يترادا.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم: (١٧١٦).

٤- إذا حكم المجتهد على فعل بالإباحة وآخر بالحرمة، وقلنا: إنهما أصابا معاً فقد اتصف الفعل الواحد بالحرمة والإباحة، وهو جمع بين المتنافيين.

ويمكن أن يجاب:

عن الأول: بأن تفهيم سليمان كان وحياً والوحي مقدم على الاجتهاد، فلا يقال له: إنه أصاب؛ لأَنَّهُ غير مجتهد.

وعن الثالث: بأن الاجتهاد قد يكون خطؤه؛ لنقص في طريقة القياس، وعدم الإصابة في حمل الفرع على الأصل فيكون النَّص قد حكم على الأصل بحكم واحد والفرع له حكم آخر؛ لأَنَّهُ مقاس على أصل آخر غير هذا.

وعن الرابع: بأنه يلزم الجمع بين المتنافيين لو كان الحكم صادراً من واحد على شيء واحد.

أما هنا فالحكم واحد بالنسبة لكل مجتهد، ولا يظهر اختلاف وجهة المجتهدين في الحكم على شيء واحد؛ لأنَّ شرط التناقض وحدة النسبة الحكمية وهنا تعددت.

ص: وَرُسُلُ البَشَرِ أَفْضَلُ مِنْ رُسُلِ المَلاَئِكَةِ.
وَرُسُلُ المَلاَئِكَةِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ البَشَرِ.
وعامَّة البَشَرِ أَفْضَلُ مِنْ عِامَّةِ المَلاَئِكَةِ.

التفضيل بين البشر والملائكة

ش: المفردات

رسل البشر : هم ٣١٣ رسولاً على رأي.

رسل الملائكة : هم جبرائيل، واسرافيل، وعزرائيل، وميكائيل.

عامة البشر : هم العدول والصَّالحون منهم.

عامة الملائكة: ما عدا الأربعة.

الشرح الإجمالي:

اتفق العلماء: على أن رسل الملائكة أفضل من عامة البشر ومن عامة الملائكة، واختلفوا فيما عدا ذلك – هل أنَّ رسل البشر أفضل من رسل الملائكة ومن عامتهم، وعامة البشر أفضل من عامة الملائكة أو لا؟

فذهب الجمهور: إلى أنَّ رسل البشر أفضل من رسل الملائكة، وعامة البشر أفضل من عامة الملائكة.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١ – إن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم –عليه السلام– على وجه التعظيم والتكريم بدليل قوله تعالى حاكياً قول إبليس: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وجه الاستدلال:

إن السجود لا يكون إلا من الأدنى إلى الأعلى دون العكس، وإذا كان آدم أفضل فالأَنبياء كذلك؛ إذ لا قائل بالفرق.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١]، وتعليمه دونهم دليل على أنه أفضل منهم.

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]. والملائكة من جملة العالمين، فآل إبراهيم أفضل من الملائكة ما عدا رسلهم، فإنَّ الإجماع قد خصهم.

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

٥- إن الإنسان يصل إلى الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والشهوة والغضب، فيصلها بكسب ومقاومة للعوائق بخلاف المَلك، ومن يُحصلها بكسب أشَقُّ من غيره فهو أفضل ممن تحصل له بدون ذلك.

وذهبت المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة:

إلى أن الملائكة أفضل من عامة البشر ورسلهم.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

إنَّ الملائكة أرواح مجردة كاملة بالعقل مبرأة عن مبادئ الشـرور والآفات وعن ظلمات الهيولى والصورة، قوية على الأفعال العجيبة، عالمة بالكون وآياته، ومن كان كذلك أولى من غيره.

ويجاب عن هذا:

١- إن هذا مبني على أصول الفلاسفة، أما نحن فنقول: إنها أجسام نورانية ولا يقدرون إلا على ما قدرهم الله عليه، ولا يعلمون إلا ما أعلمهم به ربهم، والإنسان كذلك إن قدره الله وعلمه.

٢- إن الأنبياء الذين هم أفضل البشر يتعلمون منهم والمعلم أفضل من المتعلم.

ويجاب عن ذلك: بأنَّهم واسطة لإيصال العلم، والمعلم هو الله تعالى.

٣- غالباً ما يأتي ذكرهم في الكتاب والسنة قبل ذكر الأنبياء، وهذا يدلُّ على سبقهم شرفاً ورتبةً.

ويمكن أن يجاب

بأن تقدم ذكرهم نظراً لتقدمهم في الخلقة والوجود لا لشرفهم.

٤- يقول الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، ومثل هذا التعبير يدلُّ على الترقي تقول لا يعرف هذا التلميذ ولا المعلم فهم إذن أعلى مرتبة من المسيح.

ويمكن أن يجاب: أن سبب نزول الآية اعتقاد النصارى أنَّ عيسى ابن الله؛ لأنَّهُ مجرد من الأبوة، فيقول الله تعالى: إنه لا يستنكف من العبودية كما لا تستنكف الملائكة أن يكونوا عباداً مع أنهم أولى منه بالتجرد، وهم لا أمَّ لهم ولا أب، ويقدرون على أفعال أعظم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه بالنسبة لعيسى[1].

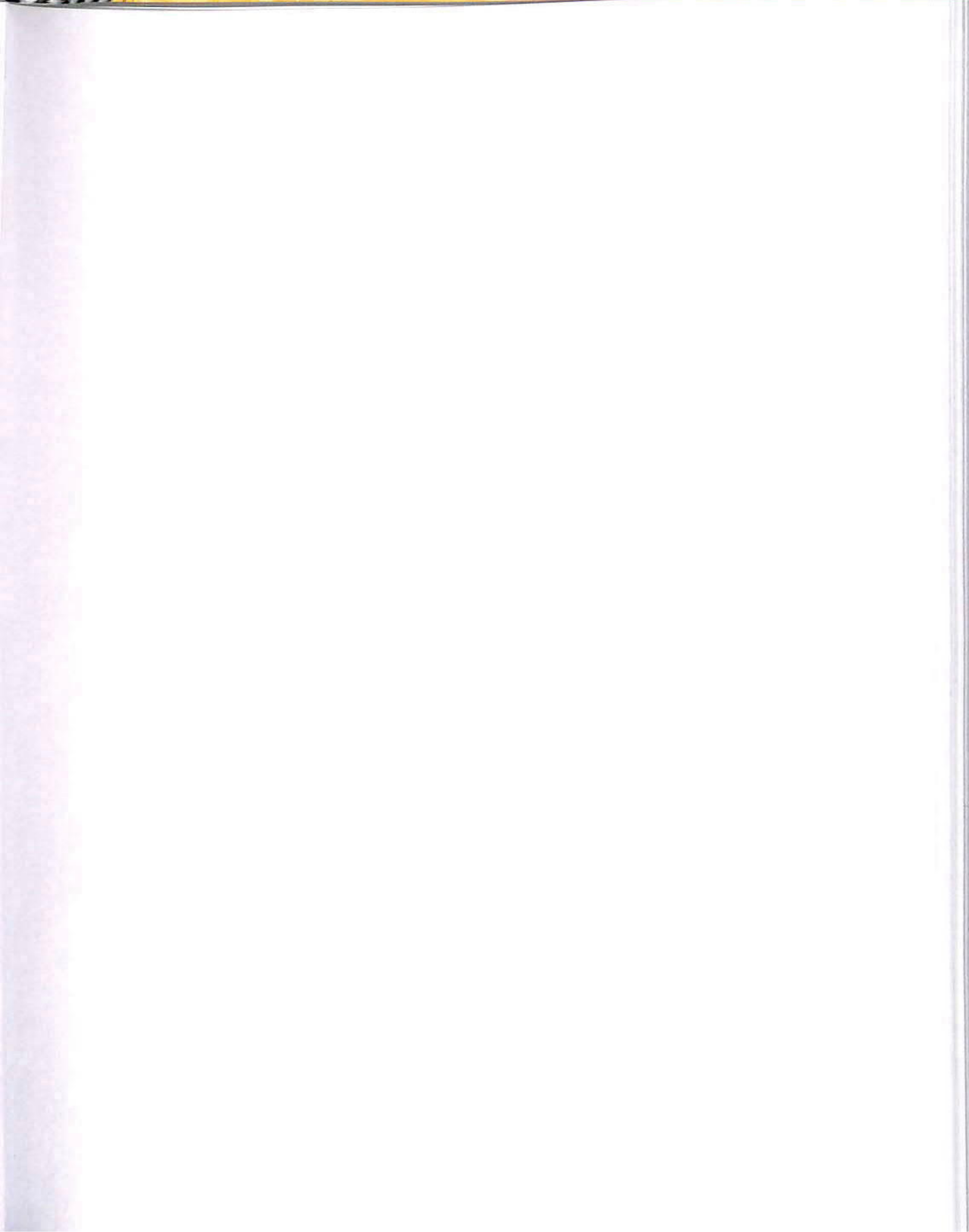
وهذا آخر ما تيسر لي توضيحه من شرح هذا المتن، وكان الفراغ منه عصر يوم الأربعاء المصادف ٤/ ربيع الأول سنة ١٣٩٧هـ الموافق ٢٣/ ٢/ ١٩٧٧م في غرفة من إحدى غرف الطابق الخامس من فندق سفار في مدينة بانكي عاصمة جمهورية أفريقيا الوسطى؛ حيث نزلنا ضيوفاً على الحكومة الأفريقية، وكُنّا موفدين من قبل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في الجمهورية العراقية؛ لغرض الاستطلاع على أحوال المسلمين هناك وبيان متطلباتهم واحتياجاتهم وبخاصة بعد إعلان الإمبراطور (صلاح الدين بوكاسا) الإسلام هو وبعض المسؤولين؛ ولنرفع للحكومة العراقية احتياجاتهم المادية والمعنوية، وكنت أنا أحد المشايخ الذين أوفدوا لهذا الغرض ومعي

(١) تلاحظ هذه المناقشة في شرح التفتازاني: ص٢٥٨ - ٢٥٩.

كل من أصحاب الفضيلة الشيخ شاكر محمود البدري خطيب الإمام الأعظم في بغداد، والشيخ ياسين منصور السعدي خطيب جامع الوزير في بغداد، وهذا اليوم الثاني عشر من سفرنا من بغداد.

وختاماً أرجو الله تعالى أن يوفقني وسائر المسلمين؛ لخدمة الإسلام والإخلاص في النية لله تعالى في أعمالنا وأقوالنا وكتابتنا وقراءتنا وحلنا وترحالنا، وأن يجعل سعيي هذا سعياً مشكوراً وعملاً متقبلاً مبروراً إنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور عبد الملك عبد الرحمن السعدي



المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: التفاسير والسنة النبوية:

١. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مع الكتاب: تعليقات كَمال يوسُفْ الحوُت.

٢. كتاب الأذكار للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

٣. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مع الكتاب: تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت.

٤. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، ١٩٩٤م.

٥. صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر من سيرة رسول الله وسننه وأيامه)، لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٦. تفسير القران العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [٧٠٠ – ٧٧٤ هـ]، الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.

٧. التاج جامع الأصول في أحاديث الرسول، منصور علي ناصف، الطبعة الثالثة، ١٣٨١هـ/ ١٩٤١م، دار إحياء الكتب العربية.

٨. تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، للإمام العلامة عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن الديبع الشيباني، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٢م.

٩. الجامع للأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري، الطبعة الثالثة، ١٣٨٢ – ١٩٦٢.

١٠. دلائل النبوة، للبيهقي (٤٥٨ هـ)، تحقيق: وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ـ ودار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

١١. سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، دار المحاسن للطباعة، القاهرة.

١٢. شرح النووي على مسلم، النووي، المطبعة المصرية.

١٣. السراج المنير على الجامع الصغير، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ.

١٤. سنن النسائي (المجتبى من السنن) أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

١٥. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر-بيروت، طبعة ١٩٦٨م.

١٦. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

١٧. شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٨. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

١٩. مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٩٩٩م.

٢٠. المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢١. مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي-بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٢٢. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، الطبعة الثانية، ١٣٥١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٣. مشكاة المصابيح، للعلامة الشيخ ولي الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي، مع شرحه مرعاة المفاتيح، للشيخ أبي الحسن عبيد الله بن العلامة محمد عبد السلام المباركفوري.

٢٤. صحيح مسلم.

٢٥. فتح المبين بشرح الأربعين.

٢٦. كنز العمال.

ثالثاً: التوحيد والتصوف:

٢٧. إحياء علوم الدين، الغزالي، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٩م.

٢٨. الاقتصاد في الاعتقاد.

٢٩. حاشية الباجوري، على الجوهرة، مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

٣٠. حاشية الباجوري، على السنوسية، مطبعة مصطفى محمد بمصر.

٣١. الحصون المحمدية، للشيخ حسين أفندي الجسر، مطبعة السعادة بمصر.

٣٢. شرح رمضان على شرح التفتازاني، مطبعة الحاج محرم أفندي، ١٢٩٣هـ.

٣٣. شرح العقيدة الطحاوية، الطبعة السادسة ١٤٠٠، بيروت.

٣٤. شرح المواقف.

٣٥. شرح النسفية للتفتازاني (طبع حجري).

٣٦. القصور العوالي، للإمام الغزالي، الطباعة الفنية المتحدَة.

٣٧. نثر اللآلي بدء الأمالي، لعبد الحميد الألوسي، مطبعة الشابندر، بغداد، ١٣٣٠هـ.

٣٨. نهج البلاغة للإمام علي كرم الله وجهه، طبع بيروت.

رابعاً: كتب الفقه وأصوله:

٣٩. جمع الجوامع في أصول الفقه، الإمام السبكي.

٤٠. حاشية البجيرمي، على الخطيب الشربيني، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٢٥هـ.

٤١. فتح القدير، ابن الهمام، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر.

٤٢. المدونة الكبرى (فقه مالكي) المحمية ١٣١٦هـ.

٤٣. المغني، ابن قدامة المقدسي، مكتب القاهرة.

خامساً: التراجم:

٤٤. السيرة النبوية والتاريخ والسيرة، الإمام علي بن برهان الدين الحلبي، مطبعة مصطفى محمد.

٤٥. الأعلام، الزركلي، الطبعة الثانية.

٤٦. تاريخ الخلفاء، السيوطي.

٤٧. طبقات الحنابلة، لأبي يعلى، مطبعة السنة النبوية، مصر، ١٣٧١هـ.

٤٨. الطبقات الكبرى للشافعية، تحقيق عبد الفتاح الحلو والدكتور محمود الطناحي.

٤٩. وفيات الأعيان، ابن خلكان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

سادساً: كتب اللغة:

٥٠. أقرب الموارد، الشرتوني.

٥١. القاموس المحيط، للفيروز آبادي، الطبعة الثانية، البابي الحلبي (٣٧)، س١٩٥.

٥٢. المصباح، الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٣٨م.

٥٣. الفرق والمذاهب.

٥٤. الفرق بين الفرق.

أفعال العباد بين الجبر والاختيار في القرآن الكريم

إعداد

د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده ملكوت السموات والأرضين، يُعزُّ من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين الهادي البشير، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والتقدير.

أما بعد: فإن مسألة القضاء والقدر والإيمان بهما من المسائل التي أشغلت أفكار السابقين من أعلام هذه الأمة، وهي لا تزال تُشغل بالَ اللاحقين؛ لما لها من خطورة جسيمة على عقيدة المؤمن؛ لأنها إحدى أركان الإيمان.

وقد صارت هذه المسألة منشأ خلاف وضلالات للبعض، ومتكأ يتكئ إليها البعض الآخر إذا ما أراد الانصراف عن عمل الخير أو التقرب إلى أعمال الشر، فكم زَلَّتْ بها أقدام وانحرفت بالخوض بها عقائد وأقلام، وشغلت السواد الأعظم من المفكرين والكُتَّابِ، وأصبحت موضع استفسار واستفهام من الناس، فكثير ما نسمع: هل الإنسان مسيّر أو مُخَيَّر؟ والبعض يسمح لنفسه ويبرر لها المضي في الموبقات بحجة أن الله قد كتب عليه ذلك، ويتهاون في عمل الواجبات متذرعاً بأن الله لم يكتب له ذلك. وعلى الرغم من صعوبة هذا الأمر؛ لأن السير في طريقه سير في طريق شائك، رأيت أن أكتب فيه هذه الأسطر المتواضعة؛ لعلي أصل بالقارئ لها إلى نتيجة تُزيلُ عنه الوَهَمَ وترفع عنه الشك وتمنحه الراحة والاستقرار في الاعتقاد.

فأقول وبالله التوفيق وهو المستعان:

إن موضوع البحث يستلزم أن أكوِّنه من مقدمة ومطلبين:

المقدمة: أبحث فيها عن معنى القضاء والقدر، والإرادة والمشيئة، والهداية والضلالة، والأمر، لغةً واصطلاحاً مبيناً مدلولات هذه الألفاظ، ثم أبين تكوين الإنسان وطبيعته ومكانته بين سائر المخلوقات ومدى صلاحيته لتحمل الأمانة والتكليف الإلهي، ثم بينت السببية والمسببية عند العلماء.

وفي المطلب الأول: أتحدثُ عن أفعال العباد الاختيارية والاضطرارية ذاكراً آراء الفرق الإسلامية في مصدر فعلها وإيقاعها مُبَيِّناً أدلة كُلٍّ مع مناقشتها، ثم أنتهي إلى الرأي الراجح لديَّ منها.

وسيكون المطلب الثاني: مُخَصَّصاً للآيات القرآنية الواردة بهذا الخصوص، ومبيناً التوفيق بين ما يبدوا لنا وكأنها متعارضة، والله يهدي السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المقدمة

أولاً: التعاريف:

١ . **القضاءُ لغة**: الحكمُ، يقال: قضيت بين الخصمين أي حكمتُ[١].

واصطلاحاً: هو الإرادةُ الأزليةُ المتعلقةُ بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال، أو عِلْمُ الله بها[٢].

٢ . **القَدَرُ لغةً**: ما يُقَدِّرُهُ الله -عزَّ وجلَّ- من القضاء[٣].

واصطلاحاً: إيجادُ الله الأشياء على قَدَرٍ مخصوص، وتقدير معين، في ذواتها وأحوالها[٤].

ومن خلال التعريفين اصطلاحاً يتضح لنا الفرق بين القضاء والقدر.

فالأول: يراد ما حكم الله به أو عَلِمَهُ أزلاً كالمهندس والمخطط للدار.

والثاني: يراد به تنفيذ ما حكم به -جلَّ شأنه- وفقاً لمقدار معين، في ذات أو حال معينة، كالبَنَّاء يُنَفِّذُ ما صمَّمَه المهندس.

وكل منهما يُطلقُ على عدة معان، أذكرها فيما يأتي:

فالقضاء يُطلق على الخلق، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]،**أي خَلَقَهُنَّ**.

---

(١) الصحاح مادة (قضى) ومادة (قدر).

(٢) المواقف للسيد الشريف الجرجاني: ٣/ ١٤٥ .

(٣) الصحاح مادة (قضى) ومادة (قدر).

(٤) المواقف للسيد الشريف الجرجاني: ٣/ ١٤٥ .

ويُطلق على الإيجاب والإلزام، مثل قوله تعالى:﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، أي أوجَبَ وحَكَمَ.

ويُطلق على الإعلام والتبيين، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي أعْلمناهم وبَيَّنا لهم.

ويُطلق على الفراغ، مثل: قضيتُ حاجتي، أي فرغتُ منها.

ويُطلق على الإبلاغ، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، أي أبلغناه إليه.

والقدر يطلق أيضاً على:

الخلق والتقدير، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١١]، أي خلق.

وعلى الإلزام والإيجاب، مثل قوله تعالى: (نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) [الواقعة:٦]، أي ألزمناه.

وعلى الإعلام والتبيين، مثل قوله تعالى: ﴿أَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[النمل:٥٧]، أي أعلمناه بذلك وكتبنا في اللوح المحفوظ[١].

٣. **الإرادة لغة:** طلب الشيء واختياره.

والمشيئة لغة: الإيجاد، يقال: شاء زيد الأمر، يشاؤه مشيئاً، من باب أراد وجوده، والمشيئة اسم منه[٢].

واصطلاحاً: هي تخصيص الممكن ببعض ما يجوز له، أو هي صفة توجب للحي حالاً يقع منه الفعل على وجه دون وجه، وضدهما الإكراه وعدم الاختيار [٣].

(١) تنظر هذه المعاني في شرح رمضان على شرح التفتازاني على النسفية: ص١٨٧.

(٢) المصباح المنير مادة (شاء) و (هدى):١/ ٣٣٤.

(٣) حاشية الباجوري على متن السنوسية: ص٢١.

وهما اسمان مترادفان عند أغلب العلماء.

وقد فَرَّقَ بينهما البعض فقال: إنَّ الإرادة تكون في الأكوان والأحكام، وإنَّ المشيئة تكون في الأكوان فقط، فيكون بينهما عموم وخصوص مطلق، أي كل مشيئة إرادة ولا عكس [1].

٤. **الهدى لغةً**: الإرشاد والدلالة، يقال: هديتُهُ الطريقَ والبيتَ هداية، أي عَرَّفتُه به [2].

واصطلاحاً: هي إرشاد الله ودعوته للناس إلى طريق الخير، أو خلق الطاعة فيهم وهو ما يطلق عليه (التوفيق) ويقابله الضلال.

ويتضح لنا من هذين التعريفين أنَّ للهداية معنيين:

- **الأول**: الدلالة والإرشاد.
- **الثاني**: خلق الطاعة بالعبد وإيصاله إليها.

٥. **الأمر لغة**: هو الطلب [3].

واصطلاحاً: قولٌ دعا إلى تحصيل الفعل على طريق الاستعلاء والعظمة والتضرع [4].

والأمر ملازم للإرادة عند المعتزلة، فكل ما أراده الله مأمور به.

عند أهل السنة والجماعة: بينهما عموم وخصوص من وجه، يظهر ذلك بالأمثلة الآتية:

- شيء أراده ولم يأمر به، مثل: كفر أبي جهل.

---

(١) شرح رمضان: ص١٨٨، والتعريفات للجرجاني: ص١٦.

(٢) المصباح المنير مادة (شَاءَ) و(هَدَى): ١/ ٣٣٤.

(٣) المصباح مادة (أَمَرَ).

(٤) ميزان الأصول لمحمد أحمد السمرقندي تحقيقنا: ١/ ٢٠٠، الطبعة الأولى.

• شيء أراده وأمر به، مثل: إيمان أبي بكر.

• شيء لم يرده وأمر به، مثل: إيمان أبي جهل.

• شيء لم يرده ولم يأمر به، مثل: كفر أبي بكر.

ثانياً: تكوين الإنسان ومكانته بين المخلوقين.

المخلوقات الحية المتحركة بالإرادة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١. أجسام نورانية فيها العقول فقط -وهم الملائكة-، وهؤلاء لا يَعرفونَ إلاَّ الطاعة؛ إذ وُجِدَ فيها عنصر الطاعة فقط: ﴿لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

٢. أجسام ظُلمانِيَّة فيها الشهوة والغضب، هي الحيوانات ما عدا الإنسان، وهذه لا تُكَلَّفُ بأمرٍ ولا نهيٍ؛ لأنها تفقد الجهاز المُمَيِّز بين الحسن والقبح، وبين الشر والخير، وبين الحق والباطل، وبين النافع والضار.

٣. أجسام ظُلمانِيَّة فيها العقل والشهوة والغضب -هو الإنسان-، فهو ذو شَبَهَيْن: يُشْبِهُ المَلَك من الناحية العقلانية، والحيوانات الأخرى من حيث الشهوة والغضب.

فإذا تَغَلَّبَ الجانب العقلاني على الجانب الشهواني، فاقَ المَلَكَ وصار خيراً منه؛ إذ تَغَلُّبُ هذا الجانب لم يحصل إلاَّ بعد صراعٍ عنيفٍ بين العقل والشهوة، والمَلَكُ يفقد عنصر الصراع؛ لأنه لم يُرَكَّب من عنصرين.

وإذا تَغَلَّبَ الجانب الشهواني على الإنسان، صار أَرْدَأ من الحيوان؛ لأن الحيوان ليس لديه الجانب االعقلاني؛ ليصارع الجانب الشهواني.

قال تعالى في حق الكافرين والمتمردين: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩].

فالعقل هو الجوهرة في الإنسان، وهو جهاز التمييز بين الأمور؛ وعلى هذا الأساس، ولأن الله جعل فيه عوامل تدفعه للخير أو للشر، وجعل فيه القابلية لفعل ما يشاء منهما: حَمَّلَه الله مسؤوليةَ التكاليف، وحَمَّلَه الأمانةَ بعد أن رفضتها المخلوقات عظيمةَ الأجرام والأحجام ولم تقبل تحملها؛ لأن التحمل عِبْءٌ كبير يحتاج إلى الجهاز المنظم لشؤون ما يتحمل.

والعقل جعله الله مناطَ التكليف لا الجسم، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فإذا لم يقم الإنسان برعاية ما ائتمنه الله تعالى فإنه كثيرُ الظلم لنفسه، وكثيرُ الجهل بها؛ إذ لم يعرف مكانته التي وصفه الله بها، ورفعه عمن سواه من مخلوقاته، فنال تكريم الله بأنْ جعله أفضل المخلوقين، وصَوَّرَه في أحسن تقويم.

ولِمَا للعقل من مكانة عُظمى عند الله تعالى، وأهمية جسيمة في تسيير أمور الحياة، ترى القرآن الكريم يُكْثِرُ من ذكره بلفظ العقل تارة، وبلفظ اللب تارة، وبلفظ القلب أخرى: (أفلا تعقلون)، (لعلكم تعقلون)، (أفلم تكونوا تعقلون)، (لقوم يعقلون)..، (وما يذكر إلا أولوا الألباب)، (يا أولي الألباب) (لآيات لأولي الألباب)، (لمن كان له قلب)... ونحو ذلك.

ثالثاً: السبب والمُسَبَّبُ.

يعتقد جمهور أهل السنة والجماعة: أن السبب ليس هو المُؤَثِّر في المُسَبَّب، بل المُؤَثِّر هو الله تعالى، ويحصل المُسَبَّب عند وجود السبب لا به، والتلازم بينهما عقلي [1].

وهو ما يراه إمام الحرمين، والغزالي، والرازي، وبمثله قالت الفلاسفة إلاَّ أنهم يرون أن التأثير للعلة.

---

(١) أي لا ينفك السبب عن المُسَبَّب، ولا العكس عند حصوله.

ويرى الأشاعرة: أن الترابط بينهما عادي وليس عقلياً؛ لذا نرى المُسَبَّبَ يَتَخَلَّفُ أحياناً مع وجود السبب.

ويرى المعتزلة: أن الله يخلق السبب فقط، ويتولد من ذلك خلق المُسَبَّب، فالله خلق القوة في اليد فتَوَلَّدَت بها حركة اليد، ومن حركة اليد تَوَلَّدَ حركة المفتاح، يبغون بذلك عدم خلق الله لأفعال العباد[1].

---

(١) يلاحظ شرح السُلَّم ص٤٥، وحاشية الباجوري على السُلَّم ص٧٥، وحاشية الباجوري على السنوسية (٤٩) وحاشية الخيالي على شرح النسفية.

المطلب الأول

أفعال الإنسان

تنقسم أفعال الإنسان -أي ما يقع منه وما يقع فيه- إلى قسمين: ضرورية، واختيارية:

١ . **فالفعل الضروري**: ما حصل في الذات القائم به، بإحداث الله تعالى وتخليقه من غير أن يكون للذات فيه فعل الكسب والاختيار، ولا قدرةُ التحصيل والترك، نحو حركة المُرْتَعِش، وسكون اليد الشَّلّاء وغيرهما.

٢ . **الفعل الاختياري**: ما يحصل في الذات القائم به، بإحداث الله تعالى وتخليقه أيضاً، لكن للذات فيه فعل الكسب والاختيار وقدرة التحصيل أو الترك، كالذهاب والمجيء والقيام والقعود [1].

القسم الأول: لم يحصل خلاف بين العلماء والفِرَقِ بأنه من فعل الله وقضائه وتقديره لا دخل للإنسان في فعله ولا تركه، ويحصل من الإنسان وفيه دون إرادته ورغبته؛ ولذلك لا يؤاخذُ عليه إن حصل ذلك أو لم يحصل، وهذا هو القضاء والقدر بمعنى الإيجاب والإلزام، ونظراً لهذا القسم من الأفعال فالإنسان (مُسَيَّر).

ويُمَثَّلُ هذا -إضافة إلى المثالين السابقين- بكل ما يحصل على الإنسان قهراً كـ:النوم، ورمشات جفن العين، ونبضات القلب، وحركة الأجهزة الهضمية، وعمل الكليتين، وخلقته وصورته، وذكورته وأُنوثته، وقوته وضعفه، وصغره وكهولته وشيخوخته، وذكائه وغبائه، وطوله وقصره، ولونه، وسلامته وعَوَقِه، وولادته وموته، وإبصاره وعماه، وسمعه وصممه، وفقره وغناه، ونصره والفتح عليه، ومدى ارتفاع قدمه وبعدها عن الثانية في مشيه، وخوارق العادات.

---

(١) ميزان الأصول في نتائج العقول: ١/ ١٠٤.

وقد نطقت آيات كثيرة تدل على هذه المعاني، وأن الإنسان غير مختار بها ولا يملك الإرادة في وجودها وعدمها، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢].

وقوله: ﴿وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقوله: ﴿وَالله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾[البقرة: ٢٤٥].

وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ﴾ [فاطر:١١].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٦].

وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤-٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً اخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤].

وقوله: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

وقوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ﴾ [الأنعام:١٧، ويونس:١٠٧].

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣].

وقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد:٢٦].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢٠-٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وقوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل:٧٠].

وقوله: ﴿وَاتَّقُواْ الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:١٣٤].

وقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥].

وقوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٥].

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

وقوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤].

وقوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٨].

وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤].

وقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٥٠].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس:٢٢].

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠٨].

وقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [الحج:٥].

وأمثال هذه الآيات كثيرة نكتفي بهذا والله الموفق.

القسم الثاني: ويتمثل بالكسب الدنيوي والحركات، وجميع أفعال التكاليف الشرعية.

وهذا القسم هو موضوع الخلاف بين الفِرَق، هل هو مخلوق لله فقط، والإنسان يُكْرَهُ على فعله ولا مناص له من التخلص عنه؟ أو هو مخلوق للعبد لا غير؟ أو هو مخلوق لله، ومكسوب أو مكتسب للعبد؟

حصل فيه الخلاف الآتي:

أولاً: القَدَرِيَّة [١]:

ذهبوا إلى أن العبد هو خالق لأفعاله، فالله تعالى خلق فيه القوة فقط، وهي تُوَلِّدُ خلق أفعاله بناءً على نظرية التوليد عندهم.

وقد ألجأهم إلى القول بهذا حذرهم من أن يُنْسَبَ الشر إلى الله تعالى؛ ولأن مبدأ عقيدتهم مبني على أنَّ فعل الأصلح واجب على الله تعالى.

واستدلوا على ذلك بما يأتي:

١. لو كان فعل العبد مخلوقاً لله تعالى؛ لَمَا كَلَّفَ أحداً من خلقه، ولَمَا حاسبه وعاقبه.

٢. لو كان الله خالقاً لأفعال العباد؛ لكان الله هو القائم والقاعد، والآكل والشارب، والزاني، والسارق، إلى غير ذلك.

---

(١) هم فرقة من المعتزلة، والمعتزلة هم أتباع واصل وعمر بن عبيد، سُمُّوا بالقَدَرِيَّة؛ لأنهم أنكروا القَدَرَ الإلهي واشتهروا بحرية الإرادة والاختيار، من باب الاشتقاق من الضد، والقَدَرِيَّة أتباع معبد الجهني وغيلان الدمشقي أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ومعبد هو أول من تكلم بالقدر وكان يجلس إلى الحسن البصري في مجلسه بالبصرة. الفرق بين الفرق، لعبدالقاهر البغدادي: ١٠٠، والفِرَق الإسلامية، للدكتور عرفان عبدالحميد: ص٢٥٧.

٣. وردت آيات في كتاب الله تعالى تنسب الخلق إلى الإنسان، منها قوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة:١١٠]، فنسبة الخلق إلى عيسى عليه السلام تدل على أن العبد يخلق أفعاله، ومثل قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، يدل اسم التفضيل على أن هنالك خالقين غير الله، والله أحسنهم [١].

٤. وقوع الأفعال حسب قصد العبد وقدرته وعلمه، فلو أراد العبد فعل حِدَادةٍ تقع حِدَادةً لا نجارة.

ولو جهل الكتابة لا تقع منه، ولو أراد حمل جبل لا يقع.

ولو كان الفعل من غيره؛ لكان علمه وجهله، وقلة قدرته وكثرتها على حَدٍّ سواء، وكل هذا يدل على أن أفعالهم حادثة من قبلهم [٢].

ويجاب عن هذه الأدلة بما يأتي:

١. عن الدليل الأول: إنكم لم تُفَرِّقوا بين خلق الفعل وإيقاع الفعل، فإنَّ نسبة خلق الفعل إلى الله تعالى لا تدل على أنه أَلْزَمَ العبد في إيقاعه أو قسره عليه.

لأن الله تعالى يخلق الفعل بعد قصد العبد فعله، وبعد توجهه إليه لا قبله.

٢. عن الثاني: بأنَّ الذي يتصف بالفعل هو من قام به الفعل لا من خلقه، وإلا فإن الله تعالى خالق للسواد والبياض وسائر أوصاف الأجسام ولا يقال عنه: أنه أسود أو أبيض أو متحرك؛ لأنه خلق ذلك، فكذا إذا خلق الزنا في الإنسان ثم زنى لا يسمى الله زانياً، بل يسمى بذلك من وقع منه الفعل.

٣. وأما نسبة الخلق إلى غير الله تعالى في الآيتين: فالمراد بهما التقدير: أي تُقَدِّر كهيئة الطير، والله أحسن المقدرين، والإنسان مُقَدِّر أيضاً.

---

(١) شرح النسفية للتفتازاني: ص ٩٨، طبع دار إحياء الكتب العربية بمصر.

(٢) المختصر في أصول الدين: ٢٣٥، للقاضي عبدالجبار، مطبوع ضمن رسائل العدل والتوحيد دار الشروق ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

وقد ورد لفظ الخلق بمعنى التقدير في اللغة، يقال: خلقتُ الأديم، إذا قايستَه، لتقطع منه شيئاً [1].

على أن ما ذكرتم من الآيات مُعَارَضٌ بها سيأتي من آيات تدل على أن الله هو خالق الإنسان وعمله، وخالق كُلِّ شيء، وإذا تعارضت ظواهر النصوص لم يُعمل بها، ولابُدَّ من الرجوع إلى غيرها.

٤. وعن الأخير بأنه جرت سنة الله في أنَّ الإنسان إذا قصد فعلاً ممكناً خلقه فيه بعد القصد إن شاء، فالقصد غير الخلق؛ إذ قد يحصل القصد ولا يحصل الفعل.

وذلك بأن لا يريد الله فعله؛ ولذا جعل الثواب والعقاب على القصد وإن لم يحصل الفعل. كمن عزم على الصوم فمَرِضَ أو عجز فإنه يُثاب على عزمه، وكذا من تَوَجَّه لصلاة الجماعة فحصل عذر يمنعه من الوصول، فإنه يُثاب على عزمه (قصده)؛ لأنه المطلوب من المكلف.

وكذا إن عزم فعل منكر ورجع من منتصف الطريق إذا خاف من مراقب أو من الناس لا من الله، فإنه سيأثم على ذلك، فالقصد والمعرفة والقدرة في العبد لا تستلزم إيقاع الفعل منه.

ثانياً: الجبرية [2]:

نفت الجبرية قدرة الإنسان واستطاعته على الفعل، فليس له في فعله اختيار أو إرادة، بل هو مجبر به والله يخلقها به كما يخلقها في الحيوانات والجمادات، ونسبتها إلى الإنسان على سبيل المجاز كما تنسب إلى الحيوانات والجمادات [3].

---

(١) أنظر شرح النسفية للتفتازاني: ص ٩٧.

(٢) الجبرية الخالصة: هي التي لا تُثبِتُ للعبد فعلًا ولا قدرة على الفعل أصلًا، وهم اتباع الجعد بن درهم والجهم. الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٠٨، الفرق الاسلامية للدكتور عرفان عبد الحميد.

(٣) أنظر: شرحنا على النسفية: ص ١٠٣، والمواقف: ٣/ ١٢٨.

واستدلوا على ذلك بالآيات التي تدل على أن الهداية تصدر من الله، وأن الأفعال بمشيئة الله تعالى، كما سترى معظم الآيات القرآنية الواردة بهذا الخصوص في المطلب الثاني إن شاء الله تعالى.

ونحن نذكر بعضها كأدلة اعتمدوها في الإجبار فيما يأتي:

١ . قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٦].

٢. قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص:٦٨].

٣. وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٢-٦٤].

٤. ومثل قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ الله فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً﴾ [الكهف:١٧]، وغير ذلك مما سيأتي.

والجواب عن ذلك من وجهين: (بصورة تفصيلية -وهو ما سأتناوله في المطلب الثاني-) وبصورة إجمالية، وهو:

١ - إنَّ هذا الرأي سيؤدي إلى تعطيل جميع التكاليف الشرعية؛ لأن نظرية الإجبار تتنافى مع التكاليف، فلا يليق بإنسان أن يُكَلِّفَ آخر بترك عمل وقد أجبره على فعله!، فالله من باب أولى.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

فالمجبر على فعلٍ لا يُكَلَّفُ بنقيضه أو بضده؛ لأنه تكليف بالمحال، وعلى هذا الرأي لا نُفَرِّق بين حركة المُرْتَعِش وحركة المختار، والواقع خلاف ذلك.

وهذا يتنافى مع واقع الإنسان؛ حيث لا يقع منه فعل إلا بعد قصده والتوجه إليه.

فلو قيل لإنسان: إجلس عن العمل الدنيوي، وعن البيع والشراء، أو عن ممارسة مهنتك والله يبعث لك الرزق.

أو قيل لفَلَّاح لا تزرع مزرعتك، وسوف يأتيك الناتج والحاصل إلى بيتك دون أن تعمل - لسَخِرَ من كلامك، وهو بالوقت نفسه يَكِلُ الأمر إلى قدر الله وقضائه إذا طولب بعمل خيرٍ أو ترك شَرٍّ، فما الفرق بين هذا وذاك؟

فذاك لا يحصل إلا بعد مباشرة العمل وهذا لا يقع إلا بعد الأخذ بالأسباب.

٢- ثم إن بعض ما ذكرتم من آيات الله وأدلة إنما هي في الأعمال التي للإنسان دخلٌ في إيقاعها، وهو موضع اتفاق بين الفِرَقِ الإسلامية، وموضع الخلاف الأعمال الاختيارية.

٣- وربما استدلوا على ذلك بما روى البخاري ومسلم عن أبي مسعود -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجْمَعُ خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرْسَلُ إليه المَلَك فينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب أربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله غيره إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1].

موضع الاستشهاد فيه أمران:

كونه يُكْتَبُ شَقِيّاً أو سعيداً، وسَبْقُ الكتاب عليه بأنه من أهل النار، وهو يعمل بعمل أهل الجنة وبالعكس، فالنتيجة تكون مثل ما هو مكتوب في علم الله.

والجواب عن هذا بما يأتي:

أ- المراد بالشقاوة والسعادة في الحديث: هي شقاوة الدنيا، كالمرض والفقر والجهل، وبالسعادة الصحة، والغِنى والعلم، ولا شك أن هذه الأعمال الاضطرارية لا

---

(١) فتح الباري: ١٣/ ٤٤، باب قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين)، وشرح مسلم للنووي: ١/ ١٢٤ باب من قتل نفسه، و: ١٦/ ١٩٠، كتاب القدر.

يكسبها الإنسان باختياره.

وليس المراد من الشقاوة والسعادة شقاوة الآخرة وسعادتها؛ لأنها مناطة بعمل الإنسان كما سنذكر ذلك.

ب- أما سَبْقُ الكتاب: فإنه لا يُراد بذلك المكتوب وهو في بطن أمه، بل المراد أنَّ من يعمل بعمل أهل الجنة في ظاهره وسريرته انطوت على العكس فلا بد من أن تظهر حقيقة ما في سريرته على ظاهره فيعمل بعمل أهل النار.

وعلى العكس فيمن ظاهره الفسق والفجور، وسريرته تكره ذلك وتحب عمل الخير، فإن هذا سينعكس أمره، ويظهر ما في سريرته على ظاهره، ورواية مسلم تدل على ذلك؛ حيث رويت بزيادة (فيما يبدو للناس) في الموضعين - أي أن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، أي ظاهره مخالف لباطنه، فلا بد يوماً من أن يتحقق ما في ضميره فيترك ظاهره، وهكذا قُيِّدَت الجملة الثانية بهذا القيد، وهو (فيما يبدو للناس).

فلا شك أنَّ من يتظاهر بعملٍ على خلاف ما في سريرته وباطنه، فإنَّ التظاهر لا يدوم حاله ولا بد من أن ينعكس أمره ويظهر ما في داخله.

وهذا أمر واقعي، فكم من متظاهر بالصلاح وقلبه مشغوف بالكفر أو المعاصي فينقلب واقعه على حسب ما أضمر؟ وكم من متظاهر بالفسق وهو كاره له ويميل قلبه إلى التوبة والاعتدال، فينعكس إلى الصلاح والتوبة؟ وهذا هو مضمون ما جاء في هذا الحديث.

٣- أما قولهم: إن نسبة الخلق إلى الإنسان على سبيل المجاز، فالجواب عنه:

إن الأصل في حمل الألفاظ الحملُ على الحقيقة ما لم يكن هناك مانع يمنع ذلك، وواقع الإنسان الاختياري يُؤَيِّد حملَها على الحقيقة.

٤- إذا كان الإنسان مُجْبَرَاً في أفعاله، فما فائدة العقل الذي منحه الله إياه؟! وما الفارق بينه وبين بقية الحيوانات التي لم يُكَلِّفْها الله في فعلٍ أو تركٍ؛ لفقدانها مناط

التكليف وهو العقل؟! ثم إن الإنسان سيقيم الحجة على الله يوم القيامة إذا ما أراد حسابه أو عقابه على ما اقترف من الذنوب، ويقول له: أنت أجبرتني على فعلها!

ثالثاً: الأستاذ أبو إسحاق الاسفراييني:

قال: إن فعل العبد حصل بقُدْرَتَي الله و الإنسان، أي إن قدرة الإنسان ليست مستقلة بالتأثير ما لم تنضم إليها قدرة الله تعالى، فإذا انضمت إليها قدرة الله صارت مستقلة بإعانتها (١).

رابعاً: القاضي أبو بكر الباقلاني:

أيضاً قال: إنَّ فعل الإنسان يحصل بقدرة الإنسان مع قدرة الله تعالى مع وجود فارق بين نوع القدرتين.

فقدرة الله تعالى تَعَلَّقَت بأصل الفعل نفسه، وقدرة العبد تَعَلَّقَت بصفة من طاعة أو معصية.

ومَثَّل لها بضرب اليتيم للتأديب أو للأذى، كلاهما مخلوقتان بقدرة الله وتأثيره، وكون الأولى طاعة، والثانية معصية بقدرة العبد وتأثيره (٢).

والفرق بين الرأيين: هو أن الاسفراييني يجعل فعل الإنسان مخلوقاً بتأثير قدرتين: قدرة الله تعالى، وقدرة العبد، دون تفريق بين وظيفة كل قدرة.

بالوقت الذي نرى القاضي يجعل قدرة الله تُؤَثِّرُ في أصل الفعل فقط، وقدرة المخلوق بوصفه فقط.

ويجاب عن هذين الرأيين: بأن فيهما نسبة التأثير لغير الله تعالى وتجعل له شريكاً في التأثير، وأيضاً على هذين الرأيين ستجتمع على الفعل قدرتان: أحدهما حادثة، والأخرى قديمة، وهما متغايرتان، فكذا آثارهما.

---

(١) المواقف: ٣/ ١١٨.

(٢) المواقف: ٣/ ١٨٨.

خامسا: الفلاسفة وإمام الحرمين:

الفعل من الإنسان واقع بقدرة يخلقها الله تعالى في العبد، ولا يجوز بعد خلقها تَخَلُّفُه عنها[1].

ويجاب عن هذا:

أن ما نُقِلَ عن إمام الحرمين ليس هو رأيه، بل اشتهر عنه، وإلا فإنَّ رأيه كرأي الأشاعرة، وهو ما ذكره في كتابه الإرشاد: من أن الله هو المُؤَثِّر في الخلق وحده لا تأثير للعبد، بل أثبت له الكسب والاكتساب فقط[2].

سادساً: الشيخ أبو الحسن الأشعري:

قال: إن الله تعالى هو خالق لفعل العبد، وهو المؤثر فيه ليس للعبد تأثير في إيجاده، فهو خلقُ الله وإبداعُه وإحداثُه، والعبد كاسب له[3].

واستدل على رأيه بما يأتي:

أ. الدليل العقلي:

١. فعل العبد ممكن، وكل ممكن مقدور لله تعالى؛ لشمول قدرته كل شيء، فما هو مقدور لله تعالى ليس بواقع بقدرة العبد؛ لامتناع اجتماع قدرتين مؤثِّرتين على مقدور واحد.

٢- لو كان العبد مُوجِداً خالِقاً لأفعاله؛ لكان عالماً بتفاصيلها؛ ضرورة أن إيجاد الشيء بالقدرة والاختيار لا يكون إلا كذلك، والواقع أنه لا يعلمها، فإنَّ الماشي مثلاً إلى مكان لا يعلم عدد سكنات وحركات مشيه، ولا حركاته ولا سرعتها، ولا حركات أعضائه وعضلاته وقدر ارتفاع قدمه عن الأرض وانخفاضه.

---

(١) المواقف: ٣/ ١٨٨.

(٢) الإرشاد لإمام الحرمين عبد الملك الجنويني: ص ١٨٧، طبعة ١٣٦٩ع- (١٩٥٠م) مطبعة السعادة.

(٣) الإرشاد لإمام الحرمين عبدالملك الجويني: ص ١٨٧، ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م مطبعة السعادة.

ب. من النقل:

١. قوله تعالى ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أي خلقكم وخلق عملكم على تقدير (ما) مصدريةً، أو خلقكم وخلق الذي تعملونه على تقدير (ما) موصولةً.

٢. قوله تعالى ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢]، والمراد به الممكن فقط؛ لأنَّ الواجب قد خَصَّه العقل، فأفعال العباد شيء، فهي مخلوقة له تعالى بموجب صيغة العموم وهي لفظ (كل).

٣. قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧] جاء بها في مقام المدح، والامتداح يكون بالخلة التي يختص بها الممدوح، فلو جازت لغيره لما امتدح بها نفسه؛ إذ يشاركه فيها الآخرون.

٤. قوله تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وهو يريد الإيمان فيكون فَعَّالاً له، وكذا الكفر إذ لا قائل بالفصل، والإنسان دوره في الفعل (الكسب) إن كان خيراً، (والاكتساب)[1] إن كان شراً. (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [البقرة: ٢٨٦]، والأشعري أراد بهذا أن يتوسط بين أهل الجبر وأهل القدر.

رأينا في ذلك:

يكاد رأيي يتفق مع ما ذهب إليه القاضي الباقلاني، إلا أنه جعل لقدرة الإنسان تأثيراً بوصف الفعل لا بأصله، واعتبر قدرة العبد خالقةً أيضاً للوصف ومؤثرة فيه، ولا يخفى أنه لا مؤثر مع الله.

والذي أقوله ما يأتي:

١. إن الله خالق للفعل ولوصفه في الأفعال الاضطرارية لا تأثير لغيره في ذلك، وعلى

(١) عَبَّرَ عن عمل الخير بالكسب؛ لأنه يحصل براحة واطمئنان النفس، وعن الشر بالاكتساب؛ لأنه يحصل بجهد وارتباك.. والله أعلم.

هذا أرى أن تحمل النصوص الواردة في القضاء والقدر بمعنى الإلزام والإيجاب، فالإنسان لا يملك فيها خلقاً ولا قصداً؛ بدليل عدم الإثابة والمعاقبة عليها من الله تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٢. أما بالنسبة للأفعال الاختيارية: فإنَّ الله تعالى لمّا كَوَّن الإنسان منحه العقل، وهذه المنحة تدل على إعطائه حرية الاختيار.

فحرية الاختيار يملكها الإنسان بتفويض وبإمداد منه تعالى؛ لذا كَلَّفَه وأوقفه على مفرق الطريقين وخَيَّرَه في سلوك أيٍّ منهما، طريقَ الخير وطريقَ الشر، طريقَ العمل الصالح وطريقَ العمل الفاسد، طريقَ المؤمنين وطريقَ غيرهم، وبعد تخيير الله له هو يختار ما يروم من الطريقين.

وبعد اختياره لأحدهما يخلق الله ذلك الفعل فيه: فَخَلْقُ الفعل من الله، واختياره من الإنسان.

والاختيار ليس فعلاً، بل نية وقصداً، فخالق الفعل الله، وقاصده الإنسان؛ لذا يثاب ويأثم على قصده ولو لم يفعل -كما مَثَّلْتُ عند مناقشة رأي القَدَرِيَّة-.

ويستوي في ذلك تَوَجُّهُه إلى فعل العمل التكليفي من مأمور به أو منهي عنه وتَوَجُّهُه إلى كسب دنيوي.

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ﴾ [البلد:١٠]. أي الطريقين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان:٣].

فالهداية أسندها الله إليه، والشكر والكفر أسندهما إلى الإنسان.

فلو وُضِعَ أمامَ الإنسان كأسان أحدهما من خمر والآخر من ماء، فإن اختار شرب أحدهما فعزم على شرب الماء خلق الله فيه فعل مَدِّ اليدِ إلى كأس الماء، وإذا قصد شرب الخمر خلق الله فيه فعل مَدِّ اليدِ إلى كأس الخمر.

وكذا من يذهب إلى المسجد وإلى المرقص، ومن يأتي زوجته ويأتي أجنبية، ومن يتناول ماله أو مال غيره بدون إذنه، وهكذا.

وقد أناط الله الثواب والعقاب بالقصد؛ لأنه من الإنسان، ولا يُناطان بالفعل فقط أو عدمه؛ ولذلك رفع الإثم عن الناسي والخاطئ والمُكْرَه؛ لأنه فاقد للقصد مع وقوع الفعل منه.

والقصد له دوافع خَلقيَّة موجودة في الإنسان، وبهذه الدوافع يمتنع عن الفعل أو يفعل.

وسيتضح لك من خلال الأسباب التي سأُعَلِّقُ عليها حول حصول الهداية أو الضلالة في المطلب الثاني عند سردي لآيات الاختيار.

وبشكل موجز:

إن الأسباب تكون من العبد نتيجة قصده وتوجُّهِه، وأن المُسَبَّبات هي من خلق الله وتأثيره لا غير، وهنا الإنسان (مُخَيَّرٌ) وليس مُسَيَّراً.

المطلب الثاني

﴿ في آيات الاختيار وآيات الجبر وكيفية التوفيق بينهما ﴾

تمهيد:

قبل أن أكتب الآيات القرآنية الدالة على الاختيار والجبر، لابد لي من أن أُنَبِّهَ على ما يأتي:

١. سَبَقَ أن ذكرت في المقدمة أن لفظ الهداية يَرِدُ لمعنيين:

الأول: الدلالة والإرشاد، وهذا يتمثل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

الثاني: بمعنى خَلْقِ الهداية وإيصال المُهْدَى إلى المطلوب فعلاً، وهذا يتمثل في قوله تعالى: (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) [القصص:٥٦].

فهنا نفى الهداية مع أنه أرشد من يحب ودَلَّه، فالنفي على الخلق لا على الدلالة؛ لذا لا تعارض بين الآيتين ولا تناقض؛ لأن شرط التناقض عند المناطقة وَحْدَةُ النِسْبَةِ الحُكْمِيَّةِ.

فالله تعالى يتصف بالهداية بكلا معنييها، فإنه يرشد ويخلق، أما العبد فإنه يتصف بالمعنى الأول فقط.

٢. بَيَّنَّا أن القضاء والقدر كما يُطلق على الإلزام والإيجاب، يُطلق على الإعلام والتبيين، ولابد من حمل القضاء والقدر في الأفعال الاختيارية على المعنى الثاني حتى لا يحصل تعارض بين الآيات.

يُؤَيِّد ما ذهبت إليه ما نقله الإمام النووي -رحمه الله تعالى- في شرح مسلم فقال: «فقال الخَطَّابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه

وتعالى العبدَ وقهرُهُ على ما قدَّر وقضى، وليس الأمر كما يَتَوَهَّمُونَه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله -سبحانه وتعالى- وبما يكون من إكساب العبد وصدوره عن تقدير منه) [1].

يؤيد هذا قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القلم:٧]، وذكر ابن حجر العسقلاني في شرحه حديث ابن عمر عن الإيمان وتعريف القضاء والقدر فقال: «والقضاء علم الله أولاً بالأشياء على ما هي عليه، والقدر إيجاده إياها على ما يطابق العلم» [2].

فإن قيل: أليس إذا عَلِمَ الله وقوع هذه المعصية أو الطاعة منه يصبح وجودها واجبَ الوقوع حتى لا يصير علم الله جهلاً إذا تخلف عن الوجود، وعند ذلك سيكون وجود الفعل من العبد جبراً وقسراً؟!

الجواب:

١. إنَّ عِلْمَ الله تعالى بوقوع هذا الفعل من الإنسان لا يلزم منه أنه فرض عليه إيقاعه وألزمه به، بل إنه يعلم أن هذا تغلب عليه نفسه، ويميل إلى هواها فيرتكب الضلال، والآخر يتغلب على نفسه فتقع منه الهداية.

مثال هذا: رجل له ابنان أحدهما شرير(خالد) والآخر طيب (محمد)، فأَمَدَّ كُلَّ واحد منهما بكمية متساوية من النقود، وقال لهما خذا هذا النقد، فَمَنْ صَرَفَهُ في الخير أرضى عنه وأُكْرِمُه، ومن صرفه في الشر أغضب عليه وأُعَاقِبُه.

وهو يعلم أن خالداً سيذهب بالنقود إلى الموبقات، ومحمداً إلى المساكين، ثم ينصرف كل واحد منهما حيث عِلْمُ الأب، فالأب لم يدفع محمداً إلى المساكين ولم يجبره، ولم يدفع خالداً إلى الموبقات مع أنه أَمَدَّ الكُلَّ منه على حَدٍّ سواء، ولله المثل الأعلى.

---

(١) شرح مسلم للنووي ١/ ١٥٤-١٥٥.

(٢) فتح الباري ١/ ١١٨.

فالله هو المُمِدُّ للطائع والعاصي، ويعلم أن نفس الطائع ستدفعه إلى الخير، ونفس الشرير ستدفعه إلى الشر، ولكن لم يدفعها إلى ذلك ولم يلزمها، قال تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاءِ وَهَـؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء:٢٠].

فالقوة الموجودة في الإنسان مَدَدٌ من الله، وعطاء صالح للخير والشر وَوَكَّل أمر اختيارهما إليه.

ثم إن العلم صفة انكشاف لا تَعَلُّقَ لها بالإيجاد والإعدام؛ لذا تتعلق بالموجودات الحادثة وبذات الله وبالمستحيلات، وليس كالقدرة والإرادة لتَعَلُّقِهما بالمُمكنات.

آيات الاختيار

وصورة خلق الهداية بعد قصد العبد لأسبابها تتجلى في الآيات الآتية:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء:١١٥] فأنت ترى أن المشاقة للرسول واتباع سبيل غير المؤمنين من أفعال الإنسان، ثم يأتي فعل الله بعد ذلك، وهي قوله ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء:١١٥].

ويقول أيضاً ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:٥-١٠] فانظر إلى أن التيسير لليسرى جاء بعد اتصاف المؤمن بالعطاء والتقى والتصديق بالآخرة، وأن التيسير للعسرى جاء بعد البخل والاستغناء، والتكذيب بالحسنى.

وقوله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦].

فقد ذكر الله تعالى الصفات التي تُسَبِّبُ صرف الله الإنسان عن آياته، وهي التكبر في الأرض، وعدم إتباع سبيل الرشد، والاستمرار بالسير في طريق الغي، وقد جعل الله

تعالى فعله الإضلال للإنسان بعد أن بين له ما يتقي به الكفر والضلال، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

وليس شيء أَدَلَّ على أنَّ الله لا يضل إلا بعد اختيار العبد طريق الضلال من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

وقد أسند تزكية النفس وتدنيسها إلى الإنسان نفسه بعد أن جعل الله فيه قابلية الاختيار لأيها يشاء، فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٦-١٠].

كما أنَّ التلَوُّنَ في المعتقدات من الأسباب التي تَتَخَلَّفُ معه الهداية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنْ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٣٧].

وقد يَتَعَمَّدُ الإنسان في اختيار الضلالة وإبدالها بالإيمان والهدى، قال تعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٦٠].

وقد نفى الله الهداية عن أقوام بسبب كفرهم أو فسقهم أو ظلمهم أو خيانتهم، فالكفر والفسق والظلم والخيانة التي وقعت منهم هي المسببة لعدم خلق الله تعالى فيهم الإيمان؛ لأن الله ربط عدم خلق الإيمان والهداية بذلك، فهم المتسببون بخلق الضلالة فيهم.

وإليك طائفة من الآيات القرآنية:

١. ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨، والتوبة:١٩، والأحقاف:١٠، والصف:٧، والجمعة:٥].

٢. ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:١٠٨، والتوبة:٢٤، و٨٠ والصف:٥].

٣. ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢١، والتوبة:٣٧، والمائدة:٦٧، والنحل:١٠٧]

٤. ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١، والأنعام:١٤٤، والقصص:٥٠].

٥. ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢].

٦. ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَـسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦].

٧. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦].

٨. ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

٩. ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

فالضلال وعدم الهدى يخلقهما الله تعالى في الإنسان بعد صدور الظلم والكفر والفسق والخيانة منه.

كما أنه تعالى بَيَّنَ أنَّ الفسق والخروج عن طاعة الله هو المُسَبِّبُ للكفر بالآيات المنزلة فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١٠٤] فرفضهم الإيمان هو الذي سبب عدم خلق الله الإيمان فيهم.

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

وكما أن الكفر سبب لعدم خلق الهداية، كذلك الإسراف والكذب والصد عن سبيل الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَـفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ [النساء:١٦٧].

وقد جعل نقض العهد والاعتداء على الأنبياء مع الكفر وسيلة من وسائل عدم خلق الهداية فيهم، فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ الله وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾ [النساء:١٥٥-١٥٦] فالباء في الكل سببية.

كما جعل الإنابة إليه سبباً من أسباب خلق الهداية في الإنسان، فقال: ﴿إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧].

ويفهم من هذا أن من شاء إضلاله هو من لا ينيب.

وقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

كما جعل الإيمان والاستجابة للموعظة، والاعتصام بالله، والاستسلام لأمر الله، واتباع رضوان الله من الأسباب التي يخلق الله الهداية عندها، فقال: ﴿وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَالله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً * وَإِذاً لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ [النساء:٦٧-٦٨].

وقال: ﴿وَإِنَّ الله لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤].

وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ الله وَأُوْلَـئِكَ هُمْ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨].

وقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنُ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس:١٠٨].

وقال: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].

كما أن الجهاد وسيلة من وسائل الهداية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وأن كسب المعاصي والنفاقَ وسيلةٌ من تلك الوسائل، فقال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء:٨٨].

فانظر إلى إضلال الله وإركاسه حصل بما كسبوا من سوء، وقال: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٧٠].

وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

وقال ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

وقد نَبَّهَ رسولَه بأنَّ من لا ينظر إلى الحق نظرة اعتراف واعتبار وتفكُّرٍ فإنك لا تستطيع هدايته؛ لأن الله لم يخلق الهداية فيه؛ لفقد شرطها، فقال: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [يونس:٤٣].

وقال: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:٨١، والروم: ٥٣].

وقال: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال: ﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [الروم:٥٢].

كما وردت آيات كثيرة تدل على أن للإنسان حريةَ اختيارِ ما يشاء:

فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠]، وقال: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

وقال: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء:١٥].

وقال: ﴿إِنَّ هَـذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل:٩، والدهر:٢٠].

وقال: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر:٥٤-٥٥].

وقال: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً﴾ [النبأ:٣٩].

وقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية:٣١].

الآيات التي يُفْهَمُ منها الجبر وتأويلُها.

أولاً: ألفاظ الهِداية:

سبق أن أوضحنا أن الهداية لها معنيان: الدلالة، وخلق الطاعة، وقلنا: إن خلق الطاعة في الإنسان تكون بعد توجُّهِهِ إلى سُبُلِ الهداية وأسبابها، ومع ذلك التوجه قد لا يشاء الله خلق الفعل؛ لأنَّه الفَعَّال لما يريد، وهو خالق كل شيء بإرادته لا مُكْرِهَ له ولا مُتَصَرِّفَ غيرُه.

وأنا أورد فيما يأتي ألفاظاً للهداية منسوبة إليه تعالى، وألفاظاً أضدادها وهي الضلالة، المراد منها أن الله يخلق ذلك بعد توجه الإنسان إليها وليس المراد أنه يهديه مباشرة وتقديراً، وكل هذا لنجمع بين الآيات التي ظاهرها التعارض، ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ [البقرة:٢٦]، أي يخلق الضلالة بعد توجه الإنسان إليها للبعض، ولا يخلقها في البعض ولو توجه إليه، ويخلق الهداية كذلك.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة:١٩٨]، وقوله: ﴿فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَالله يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ الله يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وهنا الهداية بمعنى خلقها ولا يراد بها الدلالة؛ لأنه دلَّهم على طريق الإيمان.

وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ الله وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء:٨٨]، أي مهما حرصت على هداهم، فإنهم لم يتجهوا إلى طريق الهدى، فلم يخلق فيهم الهداية، بل الضلال.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٤٣].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ الله يُضْلله وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩]، فتكذيبهم جعلهم كالصم والبكم؛ فتسبب من ذلك عدم هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وقوله حكاية عن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]، أي مهما رأيتُ من أدلة وبراهين في الكون ومهما عملتُ من وسائل للهدي، لا تكفي إلا أن ينضم إليها خلق الله الهداية فيَّ، وترفع عني الموانع كالتكبر والتعالي وعدم الرضوخ للحق.

وقوله تعالى: ﴿ذلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، فآخر الآية يدل على أنهم لم يُشْرِكُوا فهداهم الله بعد ترك الشرك.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، أي بالأسباب التي فعلها الأنبياء الموصِلَةِ إلى الهداية اهتدِ.

وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وهنا فعلان: الهداية، وشرح الصدر، كلاهما يُخلقان بعد مباشرة الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:١٦١، وبراءة:٢٥]،

وقوله: ﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾ [الأعراف:٣٠]، أي ثبتت عليهم الضلالة ولم تخلق فيهم الهداية؛ لأنهم سلكوا طريق الضلالة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وتهدي مَن تشاء﴾ [الأعراف:١٥٥]، والفتنة هي الاختبار، والتكاليف الشرعية كلها اختبار، فمن قَبِلَهَا خلق الله فيه الهداية، ومن رفضها خلق الله فيها الضلالة.

وقوله: ﴿مَن يَهْدِ الله فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٨]، وقوله ﴿مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، [ومثلها في الرعد ٣٣ وفي الزمر ٣٦-٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ الله مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:٤]، فالهداية والإضلال يكونان بعد إرسال الرسول وتبليغه قومه وإنذارهم.

وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل:٣٧]، أي مهما حرصت على اهتدائهم فأن من سلك طريق الضلالة منهم لا يخلق الله فيه الهداية.

وقوله: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩].

ثانياً: ألفاظ المشيئة:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ الله مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ [المائدة:٤٨].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام:١٠٧].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف:١٧٦].

وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس:٩٩].

وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨، والنحل ٣٥].

وقال: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر:٥٧].

وقال: ﴿فَإِن يَشَإِ الله يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى:٢٤].

وقال: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

وقال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ الله لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

هذه الآيات الكريمة تَصَدَّرَتْها (لو) أو جاءت فيها.

ولو: حرف امتناع لامتناع، وتدخل هي أو إن الشرطية على المقدمة الكبرى من القياس الاستثنائي، والصغرى تقع بعد لكن وهي-أي الصغرى- في هذه الآيات ما بين مذكورة وما بين محذوفة، ومع ذلك فإن الصغرى منتفية بانتفاء الكبرى؛ لأن نفي اللازم يستلزم نفي الملزوم.

فأراد الله بها أن يُبَيِّنَ أنه قادر على أن يجعل الناس كلهم مهتدين ولم يختلفوا، وأن يجمعهم على أمة واحدة وهي أمة الهداية، وأن لا يُشركوا وأن يعبدوه وحده، وأن لا يفعلوا ما يغضب الله، فهو قادر على ذلك دون شك، ولكنه لم يشأ ذلك، بل ترك الأمر لاختيار الناس وإرادتهم؛ ليمتحنهم؛ لأجل أن يأخذ كل منهم جزاءه بموجب أعماله، وبهذا جرت سنة الله تعالى.

مثال هذا: أن نقول: لو شاء رئيس الدولة أن يجعل الشعب كلهم أغنياء؛ لأنه قادر على ذلك، لكنه لم يعمل هذا؛ ليترك الناس كل يكسب على حسب قدرته وإمكاناته، ولله المثل الأعلى.

أو نقول: لو شاء الأستاذ لجعل الطلاب كلهم ناجحين، ولكنه لم يفعل ذلك؛ ليترك أمر النجاح إلى الطلاب على حسب دراسته وقراءته وسعيه.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨]، فإضلال الله العبد بسبب أن رأى عمله حسناً، وزَيَّن له الشيطان ذلك.

وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢]، أي إنك لا تسمعهم ما داموا لا ينتفعون بما تقوله كالأموات.

وقال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]، أي بعد أن يتجه الإنسان إلى الهداية، ويخلقها الله فليس بإمكان غيره أن يضله، وإن لم يسلك طرق الهداية ولم يخلقها الله فيه، فليس بإمكان أحد أن يهديه.

إيرادات:

قد يسأل البعض ويقول: إذا كان الأمر كما تقدم فكيف التوفيق بين الآيات الآتية:

١. قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان:٣٠، والتكوير:٢٩]؛ إذ الآية علقت مشيئة العبد على مشيئة الله تعالى، فالله يشاء الفعل ثم يشاؤه العبد.

فالجواب عن هذا: أن المفعول به للفعل (تشاؤون) محذوف تقديره -والله أعلم-: مشيئتكم فقط، وليس تقديره: مشيئة فعل العبد، أي يشاء الله مشيئتكم المطلقة، بغض النظر عن نوعها مشيئةَ خيرٍ أو شرٍّ.

ثم بها تشاؤون ما تختارونه من فعل، وسَوْقُ الآية لبيان أنَّ مشيئة العبد المطلقة لا تحصل للإنسان إلا بعد أن يشاءها الله تعالى، ومن ثَمَّ يشاء بها أي فعل يختاره.

٢. قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

كيف التوفيق بينهما وبين قوله تعالى؟

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وقوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء:٩].

والجواب عن ذلك:

إنَّ لفظ المصيبة يُطلق على كل شيء يسيء الإنسان من جوع أو خوف أو موت أو مرض أو نقص في الأموال والأرزاق، ولا شك أن هذه المصائب تدخل ضمن القسم الأول من الأفعال- وهي الأفعال الاضطرارية للإنسان، وليست من كسب العبد وقد تحصل عقوبة دنيوية على العبد على مخالفة أو تحدث عليه امتحاناً له؛ ولذلك قال: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

أما وصف المصيبة بالحسنة والسيئة في الآية الأخيرة: فإنَّ الله يريد أن يُعَلِّمَنا الأدب معه بأن ننسب الخير إليه والشر لأنفسنا، كما فعل سيدنا ابراهيم صلوات الله عليه حينما قال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٧٩-٨٠].

فقد نسب الإطعام والسقي لله، ونسب المرض له، والكل من الله تعالى.

ومن هذا تبين أن الآيات واردة في الأفعال الاضطرارية وليس في الاختيارية.

٣. قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤]؛ فالآية دلت على أن الله قد يحول دون قلب الإنسان ومن ثم لا يعلم الحق.

فالجواب عن هذه:

إن صدر الآية حَذَّرَ الإنسان من عدم الاستجابة لله وللرسول مخافة أن يُنْتِجَ هذا الإعراض عن دعوة الله تعالى أن يحول الله بينه وبين قلبه، ومن ثَمَّ لا يُمكنه أن يستجيب، وهو يؤيِّد ما ذكرنا من أن الله يخلق الفعل بعد مباشرة العبد لأسبابه من خيرٍ أو شرٍ.

٤. قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة:٦-٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وِمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ * وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِكْرَ وَخشِيَ الرَّحْمـنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:٧-١١].

أخبرت هذه الآيات على أنَّ من تدعوهم إلى الإيمان لا يؤمنون؛ لأن الله قد ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل غشاوة على أعينهم، وجعل الأغلال في أعناقهم فلا خيار لهم بعد ذلك.

فيجاب عن هذا:

أن رسول الله ﷺ قد أنذرهم مِراراً وتكراراً وقد أجهد بذلك نفسه حرصاً على استجابتهم، فأراد الله أن يُهَوِّنَ عليه ذلك، فأخبره بأن الإنذار أصبح غير مجد فيهم؛ لأنهم بعد أن أَصَرُّوا على الكفر والشرك ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا يسمعون لك، ولا يُدركون ما تقول ولا يرون الحق.

يُوَضِّحُ هذا قوله في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلـهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فالختم حصل؛ لأنه اتخذ إلههُ هواه، وصار ضالاً مع وجود ما يعرف به الحق وهو العلم.

ثم إن آية يس الأخيرة بينت أوصاف من ينفع معه الإنذار، وهو من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب.

فهؤلاء سلكوا سبيل الرشد فخلق الله فيهم الهداية.

وعلى هذا الأساس: لابد أن نحمل كل كلمة وردت بهذا الخصوص على هذا المعنى -وهي الختم والطبع والإقفال وإغفال القلب والأَكِنَّة والوَقْرُ-؛ لأن هذه الأمور كناية عن الإضلال؛ لأنها تطلق في اللغة على الموانع.

وهنا اسْتُعْمِلَت مجازاً في الأمور التي تمنعهم من قبول الحق ولكنها تحصل بعد إعراضهم وإدبارهم عن قبول الموعظة، والله المُوَفِّق.

الخاتمة

في موجز لما توصلت إليه في هذا البحث:

١. عَرَّفْتُ القضاء والقدر، والإرادة والمشيئة، والهدى والضلال، والأمر لغةً واصطلاحاً، وبَيَّنْتُ المعاني التي يُطلق عليها القضاء والقدر.

٢. مَيَّزْتُ بين تكوين الإنسان وبين تكوين بقية المخلوقات الحية، وذكرتُ أسباب اختيار الله تعالى الإنسان لتَحَمُّلِ الأمانة والتكاليف الشرعية، مع بيان ارآء العلماء في ارتباط المُسَبَّب بالسبب.

٣. قَسَّمتُ أفعال الإنسان إلى أفعال اضطرارِيَّة خاضعة للقضاء والقدر لا دخل للإنسان في فعلها أو تركها، وبَيَّنتُ أنها لا تدخل تحت التكليف؛ لأنها ليست باختياره وإرادته، وإلى أفعال اختيارِيَّة بوسع الإنسان فعلها أو تركها، وهي ما كَلَّفَه الله بها فعلاً أو تركاً، وضربتُ لذلك أمثلة، واستشهدت على ذلك بآيات من كتاب الله العزيز.

٤. ثم ذكرتُ آراء المذاهب العقائدية في حصول القسم الثاني من الأفعال، هل الإنسان يخلقها مجبراً على فعلها أو أنه يقصدها ويخلقها الله؟

٥. توصَّلتُ من خلال البحث إلى أن الإنسان باختياره يتوجه إلى فعل الشيء ومن ثم يخلق فيه الله ذلك الفعل بعد توجُّهِه إليه، فالله يخلق الفعل والإنسان يقصده، فأصله من الله وقصدهُ من الإنسان.

٦. ثم بَيَّنتُ أن للهداية معنيين: الدلالةَ، وخلقَ الهداية، وأن ما ورد من نصوص تدل على أن الله لا يهدي أو يهدي أو يضل إنما يخلق ذلك بعد قصد الإنسان للفعل جمعاً بين الدلالة.

كما بَيَّنتُ المراد من المشيئة التي ترد في النصوص ويدل ظاهرها على أن الفعل لا يقع إلا بعد أن يريده الله، وأَزَلْتُ اللبس عن ذلك.

وختاماً: فإني وإن كتبت هذه الأسطر فإني بَشَرٌ عاديٌّ مُعَرَّضٌ للخطأ والصواب، فإن أصبت فأرجو الله أن لا يحرمَني الأجرين، وإن أخطأت فأملي به أن لا يحرمَني الأجر الواحد، وعلى كلا الحالين فإني شاكر له إذا ما حصل الأول، ومستغفره إذا ما حصل الثاني، وبالله التوفيق .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي العراقي

تحريرا في رمضان ١٤١٥هـ

وشباط ١٩٩٥م

العراق – الأنبار – الرمادي – الجامع الكبير.

المراجع

١- الإرشاد لإمام الحرمين عبد الملك الجويني، سنة طبعة ١٤٥٠-١٩٥٠، مطبعة دار السعادة.

٢- حاشية الباجوري على السُلَّم.

٣- حاشية الباجوري على السنوسية.

٤- حاشية خيالي على شرح النسفية.

٥- شرح السُلَّم لعبد الرحمن الأخضري.

٦- شرح مسلم للنووي.

٧- شرح النسفية للتفتازاني، طبع دار إحياء الكتب العربية بمصر.

٨- شرح النسفية في العقيدة الإسلامية، د. عبد الملك عبد الرحمن السعدي.

٩- الصحاح للجواهري.

١٠- فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

١١- الفرق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادي.

١٢- الفِرَق الإسلامية للدكتور عرفان عبد الحميد.

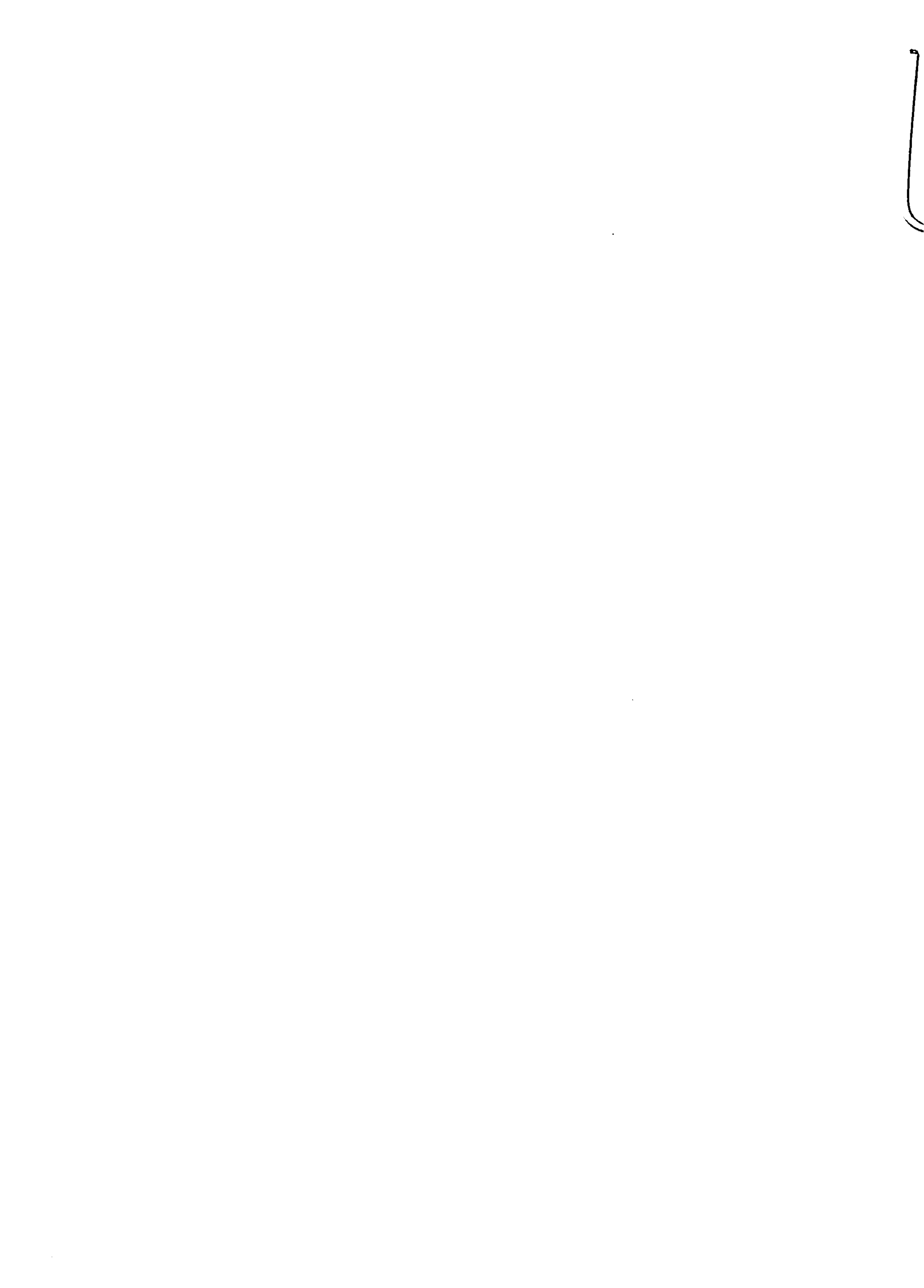
١٣- المختصر في أصول الدين للقاضي عبد الجبار، مطبوع ضمن رسائل العدل والتوحيد، دار الشروق، ١٤٠٨-١٩١٨.

١٤- المصباح المنير للفيومي.

١٥- الملل والنحل للشهرستاني.

١٦- المواقف للسيد شريف الجرجاني.

١٧- ميزان الأصول في نتائج العقول لمحمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق: الدكتور عبد الملك عبد الرحمن السعدي، الطبعة.





الفهرس

شرح العقائد النسفية

الفصل الثاني

الإلهيات

الفصل الثالث
في أحـــوال الآخـــرة

الفصل الرابع
الإيمـــــان

الفصل الخامس
النبـــوات والمـلائكـة

الفصل السادس

الخلافة والإمامة

الخاتمة

في ذكر أمور فرعية يتميز بها أهل السنة والجماعة

أفعال العباد بين الجبر والاختيار في القرآن الكريم





عمان - الأردن - تلفاكس: 00962795394309

www.darannor.com darannor@gmail.com

@Darannor

 darannorpage